﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾.
[٣٨/ص/ ٢٩]



محاسن التأويل

تأليف علامة الشام

محمد جمال الدين القاسمي

١٢٨٣ — ١٣٣٢هـ
١٨٦٦ — ١٩١٤م

الجزء الأول

وهو المقدمة المشتملة على قواعد التفسير

وقف على طبعه وتصحيحه، ورقمه وخرج آياته وأحاديثه، وعلق عليه
(خادم الكتاب والسنة)
محمد فؤاد عبد الباقي

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

« الطبعة الأولى »

[١٣٧٦هـ — ١٩٥٧م]

كلمة

كاتب الشرق الأكبر، عطوفة أمير البيان

الأمير شكيب أرسلان

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث » للمؤلف، رضي الله عنه

« وإني لأوصي جميع الناشئة الإسلامية التي تريد أن تفهم الشرع فهماً ترتاح إليه ضمائرها، وتنعقد عليه خناصرها، أن لا تقدم شيئاً على قراءة تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمي »

جنيف، رجب الفرد ١٣٥٣

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيد محمد رشيد رضا

في مجلد المنار السابع عشر صفحة ٥٥٨

« هو علّامة الشام، ونادرة الأيّام، والمجدّد لعلوم الإسلام، محيي السنّة بالعلم والعمل والتعليم، والتهذيب والتأليف، وأحد حلقات الاتصال بين هَدْي السلف، والارتقاء المدني الذي يقتضيه الزمن »

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

تبارك الذى أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ، ورقّاه فى مراتب البلاغة إلى مقام لو اجتمعت الجن والإنس على معارضته لم يقدروا ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً . فسبحان من أوضح لنا به معالم الدين ، وأبان بمشارق أنواره مناهج الأدلة للمجتهدين . أحمده سبحانه وتعالى وأشكره ، وأستعينه وأستغفره . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، المَـلِك الحق المبين . وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله المبعوث رحمة للعالمين، بملة حنيفية ، وشرعة قويمة عليّة ، وعلى آله وأصحابه الذين عرفوا مقاصد التنزيل فحصّلوه ، وأسسوا قواعده وفصّلوه ، وجالت أفـكارهم فى آياته ، وأعملوا الجد فى تحقيق مبادئه وغاياته ، وعلى من اقتفى أثرهم ، ممن لا يزالون ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم .

أما بعد ، فإن أكرم ما تمتد إليه أعناق الهمم ، وأعظم ما تتنافس فيه الأمم ، العلم الذى هو حياة القلب ، وصحة اللب ؛ وأجلّ أصنافه وأرفعها ، وأكمل معالمه وأنفعها ، هى العلوم الشرعية ، والمعارف الدينية ، إذ بها انتظام صلاح العباد ، واغتنام الفلاح فى المعاد . وعـلمُ التفسير ، من بينها ، أعلاها شأنا ، وأقواها برهانا ، وأوثقها بنيانا ، وأوضحها تبيانا . فإنه مأخذها وأساسها ، وإليه يستند اقتناصها واقتباسها ، بل هو ، كما وصف به ، رئيسها ورأسها . كيف لا وموضوعه ، وهو الـكتاب المجيد ، كلية الشريعة ، وعمدة الملة ، وينبوع الحـكمة ، وآية الرسالة ، ونور الأبصار والبصائر . وإنه لا طريق إلى الله سواه ، ولا نجاة بغيره ، ولا تمسك بشىء يخالفه . فلا جرم ، لزم من رام الاطلاع على كليات الشريعة الغراء ، وطمع فى إدراك مقاصدها واللحاق بأهلها النجباء ، أن يتخذه سميره وأنيسه ، ويجعله على المدى ، نظراً وعملا ، جليسه . فيوشك أن يفوز بالبغية ، ويظفر بالطَّلِبة ، ويجد نفسه من السابقين ، وفى الرعيل الأول المهتدين ، ويشرق فى قلبه نور الإيقان ، وتطلع فى بصيرته

شمس العرفان ، ويتبوأ فى الدنيا والآخرة مكاناً علياً ، وتدرج النبــوة بين جنبيه وإن لم يكن نبياً .

وإنى كنت حركت الهمة إلى تحصيل ما فيــه من الفنون ، والاكتحال بإثمد مطالبه لتنوير العيون ، فأكببت على النظر فيــه ، وشغفت بتدبر لآلئ عقوده ودراريه . وتصفحت ما قدر لى من تفاسير السابقين ، وتعرفت ، حين درست ، ما تخللها من الغث والسمين . ورأيت كلًّا ، بقدر وسعه، حام حول مقاصده . وبمقدار طاقته، جال فى ميدان دلائله وشواهده. وبعد أن صرفت فى الـكشف عن حقائقه شطراً من عمرى . ووقفت على الفحص عن دقائقه قدراً من دهرى . أردت أن أنخرط فى سلك مفسريه الأكابر . قبــل أن تبلى السرائر وتفنى العناصر . وأكون بخدمته موسوماً ، وفى حَمَلته منظوماً . فشحذت كليل العزم ، وأيقظت نائم الهم . واستخرت الله تعالى فى تقرير قواعده ، وتفسير مقاصده . فى كتاب اسمه بعون الله الجليــل : « محاسن التأويل » ، أودعه ما صفا من التحقيقات ، وأوشّحه بمباحث هى المهمات . وأوضح فيه خزائن الأسرار . وأنقد فيه نتائج الأفــكار ، وأسوق إليه فوائد التقطتها من تفاسير السلف الغابر . وفرائد عثرت عليها فى غضون الدفاتر . وزوائد استنبطتها بفكرى القاصر . مما قادنى الدليل إليه . وقوى اعتمادى عليــه . وسيحمد السابح فى لججه ، والسانح فى حججه ، ما أودعته من نفائسه الغريبة البرهان ، وأوردته من أحاديثه الصحاح والحسان ، وبدائعه الباهرة للأذهان ، فإنها لباب اللباب ، ومهتدى أولى الألباب . ولم أُطِلْ ذيول الأبحاث بغرائب التدقيقات ، بل اخترت حسن الإيجاز فى حل المشكلات . اللهم إلا إذا قابَلَتْ فرسانَ مضمار الحق جولةُ الباطلات ، فهنالك تُصَوَّبُ أسنّةُ البراهين نحو نحور الشبهات .

ولا يخفى أن من القضايا المسلمة ، والمقدمات الضرورية ، أنه مهما تأنق الخبير فى تحبير دقائقه السميّة ، فما هو إلا كالشرح لشذرة من معانيه الظاهرة ، وكالـكشف للمعة يسيرة من أنواره الباهرة ، إذ لا قدرة لأحد على استيفاء جميع ما اشتمل عليه الـكتاب ، وما تضمنه من لباب اللباب ، لأنه منطو على أسرار مصونة ، وجواهر حكم مكنونة ؛ لا يكشفها

بالتحقيق إلا من اجتباه مولاه ، ولا نتبين حقائقها إلا بالتلقى عن خيرته ومصطفاه .

هذا وقد حليت طليعته بتمهيد خطير ، فى مصطلح التفسير . وهى قواعد فائقة ، وفوائد شائقة ، جعلتها مفتاحاً لمغلق بابه ، ومسلكاً لتسهيل خوض عبابه ، تعين المفسر على حقائقه ، وتطلعه على بعض أسراره ودقائقه .

فدونك أيها الباحث عن مطالب أعلى العلوم ، التائق لأسنى نتائج الفهوم ، المتعطش إلى أحلى موارده ، المنقب عن مصادر مقاصده ، ينبوعاً لمعانى الفرقان ، وعِقْداً ضَمَّ درر التبيان ، وُقِفَ بك من الطريق السابلة على الظهر ، وخطب لك عرائس الحكم ثم وُهِبَ لك المهر ، فقدِّم قَدَمَ عزمك فإذا أنت بحول الله قد وصلت ، وأقبل على ما قِبَلك منه فها أنت قد فزت بما حصلت . وفارق وَهْدَ التقليد راقياً إلى يفاع الاستبصار ، وتسنّم أوج التحقيق فى مطالع الأنظار . والبس التقوى شعاراً ، والاتّصاف بالإنصاف دثاراً . واجعل طلب الحق لك نحلة ، والاعتراف به لأهله ملة . ولا ترد مشرع العصبية ، ولا تأنف من الإذعان إذا لاح وجه القضية ، أنفة ذوى النفوس العصية . فذلك مرعى لسُوَّامِها وبيل ، وصدود عن سواء السبيل .

وكان شروعى فى هذه النية الحميدة ، بعد استخارته تعالى أياماً عديدة ؛ فى العشر الأول من شوال فى الحول السادس عشر بعد الثلاثمائة وألف . نفعنا الله بما يجرى منه على يدينا ، ولا جعله حجة علينا ، ونحن نستغفر الله مما تعاطيناه من الأمر العظيم ، واقتحمناه من الخطر الجسيم ، ونستعيذ به من الوقوع فى حبائل العدوّ الرجيم ، ونسأله توفيقاً يقف بنا على جادة الاستقامة ، ويصرفنا عن عمل ما يعقبه ملام أو ندامة ، ونرجو من فضله تعالى حياة طيبة وعزماً تنحط من دونه المصاعب ، وعوناً على إكمال هذا المأرب تبيضّ به وجوه المطالب . وهداية قدسية إلى الطريقة المثلى ، وعناية لَدُنّية نقوى بها على تأييد كلمة الحق الفضلى ، فهو ولىّ الإنعام ، فى البدء والختام .

تمهيد خطير فى قواعد التفسير

١ — قاعدة فى أمهات مآخذه :

للناظر فى القرآن ، لطلب التفسير ، مآخذ كثيرة . أمهاتها أربعة :

الأول ـ النقل عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : وهذا هو الطراز المعلم . لكن يجب الحذر من الضعيف منه والموضوع ، فإنه كثير . ولهذا قال أحمد : ثلاثة كتب لا أصل لها : المغازى ، والملاحم ، والتفسير .

قال المحققون من أصحابه : مراده أن الغالب أنه ليس لها أسانيد صحاح متصلة . وإلا فقد صح من ذلك كثير ، كتفسير الظلم بالشرك فى آية الأنعام . والحساب اليسير بالعرض ، والقوة بالرمى فى قوله : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ »[1] .

الثانى ـ الأخذ بقول الصحابىّ : فإن تفسيره عندهم بمنزلة المرفوع إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم، كما قاله الحاكم فى مستدركه . وقال أبو الخطاب ، من الحنابلة : يحتمل أن لا يرجع إليه إذا قلنا: إن قوله ليس بحجة . والصواب الأول ، لأنه من باب الرواية لا الرأى .

قلت : ما قاله الحاكم نازعه فيه ابن الصلاح وغيره من المتأخرين ، بأن ذلك مخصوص بما فيه سبب النزول أو نحوه ، مما لا مدخل للرأى فيه . ثم رأيت الحاكم نفسه صرح به فى علوم الحديث فقال : ومن الموقوفات تفسير الصحابة . وأما من يقول إن تفسير الصحابة مسند ، فإنما يقوله فيما فيه سبب النزول . فقد خصص هنا ، وعمَّم فى المستدرك . فاعتمد الأول ، والله أعلم . ثم قال الزركشىّ : وفى الرجوع إلى قول التابعىّ روايتان عن أحمد .

---

(١) [٨ / الأنفال / ٦٠] ونصّها : وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ .

واختار ابن عقيل المنع ، وحكوه عن شعبة ، لـكن عمل المفسرين على خلافه . فقد حكوا فى كتبهم أقوالهم لأن غالبها تلقوها من الصحابة . وربما يحكى عنهم عبارات مختلفة الألفاظ ، فيظن من لا فهم عنـده أن ذلك اختلاف محقق فيحكيه أقوالا ، وليس كذلك ، بل يكون كل واحد منهم ذكر معنى من الآية لـكونه أظهر عنده أو أليق بحال السائل . وقد يكون بعضهم يخبر عن الشيء بلازمه ونظيره ، والآخر بمقصوده وثمرته ، والـكل يؤول إلى معنى واحد غالباً . فإن لم يمكن الجمع ، فالمتأخر من القولين عن الشخص الواحد مقدم ، إن استويا فى الصحة عنه ، وإلا فالصحيح المقدم .

الثالث ـ الأخذ بمطلق اللغة : فإن القرآن نزل بلسان عربىّ ، وهـذا قد ذكره جماعة ، ونص عليه أحمد فى مواضع ، لـكن نقل الفضل بن زياد عنـه أنه سئل عن القرآن يمثل له الرجل ببيت من الشعر ؟ فقال : مايعجبنى . فقيل : ظاهره المنع . ولهذا قال بعضهم فى جواز تفسير القرآن بمقتضى اللغة روايتان عن أحمد ، وقيل : الـكراهة تحمل على من صرف الآية عن ظاهرها إلى معان خارجة محتملة يدل عليها القليـل من كلام العرب ، ولا يوجد غالباً إلا فى الشعر ونحوه ، ويكون المتبادر خلافها .

وروى البيهقىّ فى « الشُّعَب » عن مالك قال : لا أُوتَى برجل غير عالم بلغة العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نـكالًا .

الرابع ـ التفسير بالمقتضى من معنى الـكلام ، والمقتضب من قوة الشرع : وهذا هو الذى دعا به النبىّ صلى الله عليه وسلم لابن عباس حيث قال : «اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل»[1]

(١) فى صحيح البخارىّ فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ١٧ ـ باب قول النبىّ ﷺ : « اللهم علمه الـكتاب » .

عن ابن عباس قال : ضمنى رسول الله ﷺ وقال « اللهم علمه الـكتاب » .

وكذا هو فى : ٩٦ ـ كتاب الاعتصام ، فى أول الـكتاب .

وفى : ٤ ـ كتاب الوضوء ، ١٠ ـ باب وضع الماء عند الخلاء .

عن ابن عباس أن النبىّ ﷺ قال « اللهم فقهه فى الدين » . =

والذى عناه علىٌّ بقوله : إلا فهماً يؤتاه الرجل فى القرآن . ومن هنا اختلف الصحابة فى معنى الآية ، فأخذ كل برأيه على منتهى نظره . ولا يجوز تفسير القرآن بمجرد الرأى والاجتهاد من غير أصل . قال تعالى : « وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ »(١) . وقال : « وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ »(٢) . وقال : « لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »(٣) . أضاف البيان إليه . وقال صلى الله عليه وسلم : « من تكلم فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ » أخرجه أبو داود(٤) والترمذىّ والنسائىّ . وقال : « من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار »(٤) أخرجه أبو داود(٥) .

وقال البيهقى فى الحديث الأول : إن صح . أراد ــ والله أعلم ــ الرأى الذى يغلب من غير

= وفى : ٦٢ ــ كتاب فضائل أصحاب النبىّ ﷺ ، ٢٤ ــ باب ذكر ابن عباس رضى الله عنهما.

عن ابن عباس قال : ضمّنى النبىّ ﷺ إلى صدره وقال: « اللهم علمه الحكمة » .

(١) [١٧ / الإسراء / ٣٦] وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا .

(٢) [٢ / البقرة / ١٦٩] إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ .

(٣) [١٦ / النحل / ٤٤] بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ، وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ .

(٤) فى سنن أبى داود فى : ٢٤ ــ كتاب العلم ، ٥ ــ باب الكلام فى كتاب الله بغير علم ، حديث ٣٦٥٢ :

عن جندب قال: قال ﷺ « من قال بكتاب الله عز وجل برأيه فأصاب فقد أخطأ » .

(٥) فى جامع الترمذىّ فى : ٤٤ ــ كتاب التفسير ، ١ ــ باب ما جاء فى الذى يفسر القرآن برأيه .

عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار » . وفى رواية : من قال فى القرآن برأيه .

دليل قام عليه ، وأما الذى يشدّه برهان ، فالقول به جائز .

وقال فى المدخل : فى هـذا الحديث نظر ، وإن صح ، فإنما أراد به ـ والله أعلم ـ فقد أخطأ الطريق ، فسبيله أن يرجع فى تفسير ألفاظه إلى أهل اللغـة . وفى معرفة ناسخه ومنسوخه ، وسبب نزوله ، وما يحتاج فيه إلى بيانه ، إلى أخبار الصحابة الذين شاهدوا تنزيله ، وأدَّوْا إلينا من السنن ما يكون بياناً لـكتاب الله تعالى . قال تعـالى : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْـكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَـكَّرُونَ »(١) . فما ورد بيانه عن صاحب الشرع ففيه كفاية عن فـكرة مَنْ بعده ، وما لم يرد عنـه بيانه ففيه حينئذ فـكرة أهل العلم بعده ، ليستدلوا بما ورد بيانه على ما لم يرد . قال : وقد يكون المراد به من قال فيه برأيه من غير معرفة منه بأصول العلم وفروعه ، فيـكون موافقته للصواب ، إن وافقه ، من حيث لا يعرفه ، غير محمودة .

وقال الماوردىّ : قد حمل بعض المتورعة هذا الحديث على ظاهره ، وامتنع من أن يستنبط معانى القرآن باجتهاده ، ولو صحبها الشواهد ، ولم يعارض شواهدها نص صريح . وهـذا عدول عما تُعُبِّدْنا بمعرفته من النظر فى القرآن ، واستنباط الأحكام ، كما قال تعالى : « لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ »(٢) ولو صح ما ذهب إليه ، لم يعلم شىء بالاستنباط ، ولمـا فهم الأكثر من كتاب الله شيئاً . وإن صح الحديث فتأويله أن من تكلم فى القرآن بمجرد رأيه ، ولم يعرج على سوى لفظه ، وأصاب الحق ، فقد أخطأ الطريق ، وإصابَتُهُ اتفاق . إذ الفَرْض أنه مجرد رأى لا شاهد له . وفى الحديث : « القرآن ذلول ذو وجوه فاحملوه على أحسن وجوهه » أخرجه أبو نعيم وغيره من حديث ابن عباس . فقوله « ذلول » يحتمل معنيين :

---

(١) [١٦ / النحل / ٤٤] بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ، وَأَنْزَلْنَا إِلَيْـكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَـكَّرُونَ .

(٢) [٤ / النساء / ٨٣] وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ، وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ، وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْـكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا .

أحدهما : أنه مطيع لحامليه تنطق به ألسنتهم .

والثانى : أنه موضح لمعانيه حتى لا يقصر عنه أفهام المجتهدين .

وقوله : « ذو وجوه » يحتمل معنيين :

أحدهما : أن من ألفاظه ما يحتمل وجوها من التأويل .

والثانى : قد جمع وجوها من الأوامر والنواهى والترغيب والترهيب والتحريم .

وقوله : « فاحملوه على أحسن وجوهه » يحتمل معنيين :

أحدهما : الحمل على أحسن معانيه ،

والثانى : أحسن ما فيه من العزائم دون الرخص ، والعفو دون الانتقام .

وفيه دلالة ظاهرة على جواز الاستنباط والاجتهاد فى كتاب الله تعالى — كذا أفاده الزركشىّ فى البرهان .

وقال أبو حيان : ذهب بعض من عاصرناه إلى أن علم التفسير مضطر إلى النقل فى فهم معانى تركيبه ، بالإسناد إلى مجاهد وطاوس وعكرمة وأضرابهم . وأن فهم الآيات يتوقف على ذلك ، قال : وليس كذلك . قال الزركشىّ — بعد حكاية ذلك — : الحق أن علم التفسير ، منه ما يتوقف على النقل ، كسبب النزول ، والنسخ ، وتعيين المبهم ، وتبيين المجمل . ومنه ما لا يتوقف . ويكفى فى تحصيله الثقة على الوجه المعتبر. قال: وكان السبب فى اصطلاح كثير على التفرقة بين التفسير والتأويل، والتميز بين المنقول والمستنبط، ليحيل على الاعتماد فى المنقول وعلى النظر فى المستنبط . قال : واعلم أن القرآن قسمان : قسم ورد تفسيره بالنقل ، وقسم لم يرد . والأول إما أن يرد عن النبىّ ﷺ أو الصحابة أو رؤوس التابعين. فالأول يبحث فيه عن صحة السند ، والثانى ينظر فى تفسير الصحابىّ ، فإن فسره من حيث اللغة ، فهم أهل اللسان ، فلا شك فى اعتماده ، أو بما شاهده من الأسباب والقرائن ، فلا شك فيه . وإن تعارضت أقوال جماعة من الصحابة ، فإن أمكن الجمع فذاك ، وإن تعذر قدّم ابن عباس ، لأن النبىّ ﷺ بشره بذلك حيث قال : « اللهم علمه التأويل »[1] .

---

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ٨ .

وقد رجّح الشافعيّ قول زيد فى الفرائض لحديث « أفرضكم زيد »[١].

وأما ما ورد عن التابعين، فحيث جاز الاعتماد فيما سبق، فكذلك، وإلا وجب الاجتهاد.

وأما ما لم يرد فيه نقل، فهو قليل، وطريق التوصل إلى فهمه النظر إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب ومدلولاتها واستعمالها بحسب السياق.

وقال الإمام ابن خلدون فى مقدمة « العبر » فى علوم القرآن :

وأما التفسير : فاعلم أن القرآن نزل بلغة العرب، وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه، ويعلمون معانيه فى مفرداته وتراكيبه، وكان ينزل جملا جملا، وآيات آيات، لبيان التوحيد والفروض الدينية، بحسب الوقائع، ومنها ما هو فى العقائد الإيمانية، ومنها ما هو فى أحكام الجوارح، ومنها ما يتقدم، ومنها ما يتأخر ويكون ناسخا له. وكان النبيّ ﷺ يبين المجمل، ويميز الناسخ من المنسوخ، ويعرّفه أصحابه، فعرفوه وعرفوا سبب نزول الآيات ومقتضى الحال منها منقولا عنه، كما علم من قوله تعالى: « إذا جاء نصر الله والفتح »[٢] أنها نعى النبيّ ﷺ، وأمثال ذلك. ونقل ذلك عن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين،

---

(١) سنن ابن ماجه، فى المقدمة، ١١ ـ باب فضائل أصحاب رسول الله ﷺ، حديث ١٥٤.

عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال « أرحم أمتى بأمتى أبو بكر، وأشدهم فى دين الله عمر، وأشدهم حياءً عثمان، وأقضاهم علىّ بن أبى طالب، وأقرؤهم لكتاب الله أُبىّ ابن كعب، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت. ألا وإن لكل أمة أمينا، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح ».

(٢) صحيح البخارىّ، ٦٥ ـ كتاب التفسير، ١١٠ ـ سورة إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ، ٣ ـ باب ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا.

عن ابن عباس أن عمر رضى الله عنه سألهم عن قوله تعالى : إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ؟ قالوا : فتح المدائن والقصور. قال : ما تقول يا ابن عباس؟ قال : أَجَلٌ أو مثلٌ ضُرِب لمحمد ﷺ، نُعِيَتْ له نفسه.

وتداول ذلك التابعون من بعدهم ، ونقل ذلك عنهم ، ولم يزل ذلك متناقلا بين الصدر الأول والسلف ، حتى صارت المعارف علوما ، ودونت الكتب، فكتب الكثير من ذلك، ونقلت الآثار الواردة فيه عن الصحابة والتابعين ، وانتهى ذلك إلى الطبرى والواقدى والثعالبى ، وأمثال ذلك من المفسرين ، فكتبوا فيه ما شاء الله أن يكتبوه من الآثار ؛ ثم صارت علوم اللسان صناعية من الكلام فى موضوعات اللغة ، وأحكام الإعراب ، والبلاغة فى التراكيب فوضعت الدواوين فى ذلك ، بعد أن كانت ملكات للعرب، لا يرجع فيها إلى نقل ولا كتاب. فتُنوسى ذلك ، وصارت تُتلقى من كتب أهل اللسان ، فاحتيج إلى ذلك فى تفسير القرآن ، لأنه بلسان العرب ، وعلى منهاج بلاغتهم . وصار التفسير على صنفين :

تفسير نقلى مسند إلى الآثار المنقولة عن السلف ، وهى معرفة الناسخ والمنسوخ ، وأسباب النزول ، ومقاصد الآى . وكل ذلك لا يعرف إلا بالنقل عن الصحابة والتابعين .

وقد جمع المتقدمون فى ذلك وأَوْعَوْا ، إلا أن كتبهم ومنقولاتهم تشتمل على الغث والسمين، والمقبول والمردود . والسبب فى ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم، وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية . وإذا تشوقوا إلى معرفة شىء مما تشوق إليه النفوس البشرية فى أسباب المكونات ، وبدء الخليقة ، وأسرار الوجود ، فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ، ويستفيدونه منهم ، وهم أهل التوراة من اليهود ، ومن تبع دينهم من النصارى . وأهلُ التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم ، ولا يعرفون من ذلك إلا ماتعرفه العامة من أهل الكتاب ، ومعظمهم من حِمْيَر ، الذين أخذوا بدين اليهودية . فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التى يحتاطون لها ، مثل أخبار بدء الخليقة، وما يرجع إلى الحدثان والملاحم ، وأمثال ذلك. وهؤلاء مثل كعب الأحبار ، ووهب بن منبه ، وعبد الله بن سلام وأمثالهم . فامتلأت التفاسير من المنقولات عندهم فى أمثال هذه الأغراض ، أخبار موقوفة عليهم، وليست مما يرجع إلى الأحكام، فيتحرى فى الصحة التى يجب بها العمل. ويتساهل المفسرون فى مثل ذلك، وملؤوا كتب التفسير بهذه المنقولات . وأصلها ، كما قلنا ، عن أهل التوراة الذين يسكنون البادية ، ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك . إلا

أنهم بَعُدَ صيتهم، وعظمت أقدارهم، لما كانوا عليه من المقامات فى الدين والملة. فتلقيت بالقبول من يومئذ. فلما رجع الناس إلى التحقيق والتمحيص، وجاء أبو محمد بن عطية، من المتأخرين بالمغرب، فلخص تلك التفاسير كلها، وتحرى ما هو أقرب إلى الصحة منها، ووضع ذلك فى كتاب، متداول بين أهل المغرب الأندلس، حسن المنحى. وتبعه القرطبىّ فى تلك الطريقة، على منهاج واحد فى كتاب آخر مشهور، بالمشرق.

والصنف الآخر من التفسير، وهو ما يرجع إلى اللسان من معرفة اللغة والإعراب، والبلاغة، وتأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب؛ وهذا الصنف من التفسير قَلَّ أن ينفرد عن الأول؛ إذ الأول هو المقصود بالذات، وإنما جاء هذا بعد أن صار اللسان وعلومه صناعة. انتهى.

٢ — قاعدة فى معرفة صحيح التفسير، وأصح التفاسير عند الاختلاف :

○ قال الإمام محمد بن المرتضى اليمانىّ رضى الله عنه فى كتابه « إيثار الحق على الخلق » :

فصل : فى الإرشاد إلى طريق المعرفة لصحيح التفسير، وأصح التفاسير عند الاختلاف بطريق واضح لا يشك أهل الإنصاف فى حسن التنبيه عليه والإرشاد إليه :

«اعلم أن كتاب الله تعالى، لما كان مفزع الطالب للحق بعد الإيمان، وكان محفوظا كما وعد به الرحمن، دخل الشيطان على كثير من طريق تفسيره، وعدم الفرق بين التفسير والتحريف والتأويل والتبديل، ولو كان لكل مبتدع أن يحمله على ما يوافق هواه، بطل كونه فرقا بين الحق والباطل. وقد ثبت أنه يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق. وهذا لا يتم إلا بحراسته من دعاوى المبطلين فى تصرفاتهم واحتيالهم على التشويش فيه، ولبس صوادعه وقواطعه بخوافيه، وهذه هذه فليهتم المعظم له بمعرفتها، ويتأملها حق التأمل، ويتعرف أسبابها ممن قد مارسها».

وقد أوضحها رضى الله عنه فى كتابه المذكور ، وجوّد الكلام عليها ثم قال : فإذا عرفت ذلك فلا غنى عن معرفة مراتب المفسرين ، حيث يكون التفسير راجعاً إلى الرواية ؛ ثم مراتب التفسير ، حيث يكون التفسير راجعاً إلى الدراية .

أما مراتب المفسرين : فخيرهم الصحابة رضى الله عنهم ، لما ثبت من الثناء عليهم فى الكتاب والسنة ، ولأن القرآن أنزل على لغتهم ، فالغلط أبعد عنهم من غيرهم ، ولأنهم سألوا رسول الله ﷺ عما أشكل عليهم ، وأكثرهم تفسيراً حَبْرُ الأمة وبحرها عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، وقد جُمِع عنه تفسير كامل ، ولم يتفق مثل ذلك لغيره من الصدر الأول الذين عليهم فى مثل ذلك المعوّل ، ومتى صح الإسناد إليه كان تفسيره من أصح التفاسير ، مقدماً على كثير من الأئمة الجماهير ، وذلك لوجوه :

أولها : أن رسول الله ﷺ دعا له بالفقه فى الدين ، وتعلّم التأويل أى التفسير ، وصح ذلك واشتهر عن رسول الله ﷺ ، وله طرق فى مجمع الزوائد . وقال الحافظ أبو مسعود فى أطرافه : إنه مما أخرجه البخارىّ ومسلم بكماله . وفيهما من غير طريق أبى مسعود عند سائر الرواة « اللهم علمه الكتاب والحكمة »(١) ، وفى رواية « اللهم فقهه فى الدين » . وفى رواية الترمذىّ : أنه رأى جبريل عليه السلام مرتين ، ودعا له النبىّ ﷺ بالحكمة مرتين . وينبغى معرفة سائر مناقبه مع ذلك فى مواضعها ، ولولا خوف الإطالة لذكرتها .

وثانيها : أن الصحابة اتفقوا على تعظيمه فى العلم عموماً ، وفى التفسير خصوصاً ، وسموه البحر والحبر ؛ وشاع ذلك فيهم من غير نكير ، وظهرت إجابة الدعوة النبوية فيه ، وقصة عمر معه ، رضى الله عنهما ، مشهورة ، فى سبب تقديمه وتفضيله على من هو أكبر منه من الصحابة ، وامتحانه فى ذلك(٢) .

---

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ٨ .

(٢) صحيح البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ١١٠ ـ سورة إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ، ٤ ـ باب فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً .

عن ابن عباس قال : كان عمر يُدخلنى مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وجد فى نفسه =

وثالثها : كونه من أهل بيت النبوة ، ومعدن الرسالة .

ورابعها : أنه ثبت عنه أنه كان لا يستحل التأويل بالرأى . روى عنه أنه قال : من قال فى القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار. وفى رواية « بغير علم » رواه أبو داود فى العلم، والنسائى فى فضائل القرآن ، والترمذى فى التفسير[1] ، وقال : حديث حسن، وشرطه فيما قال فيه « حسن » أن يأتى من غير طريق .

والخامس : أن الطرق إليه محفوظة غير منقطعة ، فصح منها تفسير نافع ، ممتع . ولذلك خصصته بالذكر ، وإن كان غيره أكبر منه ، وأقدم وأعلم وأفضل ، مثل علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، من جنسه وأهله ، وغيرُه من أكابر الصحابة رضى الله عنهم . لكن ثبوت التفسير عنهم قليل ؛ بالنظر إليه، رضى الله عنهم أجمعين .

ثم المرتبة الثانية من المفسرين «التابعون» ومن أشهر ثقاتهم المصنفين فى التفسير: مجاهد وعطاء وقتادة والحسن البصرىّ وأبو العالية رفيع بن مهران ومحمد بن كعب القرظىّ وزيد ابن أسلم . ويلحق بهؤلاء عكرمة ، ثم مقاتل بن حيان ومحمد بن زيد ، ثم علىّ بن أبى طلحة، ثم السدى الكبير . وتتمة هذا فى الإيثار وفى الإتقان .

قال ابن تيمية : أعلم الناس بالتفسير أهل مكة لأنهم أصحاب ابن عباس ، كمجاهد ، وعطاء بن أبى رباح وعكرمة مولى ابن عباس وسعيد بن جبير وطاوس وغيرهم . وكذلك

فقال : لِمَ تُدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ فقال عمر : إنه من حيث علمتم . فدعاه ذات يوم فأدخله معهم . فما رُؤيت أنه دعانى يومئذ إلا ليريهم . قال : ما تقولون فى قول الله تعالى : إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ؟ فقال بعضهم : أُمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نُصرنا وفُتِح علينا . وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً . فقال لى : أكذاك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت : لا . قال : فما تقول ؟ قلت : هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له . قال: إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ، وذلك علامة أجلك ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً . فقال عمر : ما أعلم منها إلا ما تقول .

(١) انظر الحاشية رقم ٥ ص ٩ .

فى الـكوفة أصحاب ابن مسعود . وعلماء أهل المدينة فى التفسير مثل زيد بن أسلم الذى أخذ عنه ابنه عبدالرحمن بن زيد، ومالك بن أنس. انتهى.

٣ — قاعدة فى أنه غالب ما صح عن السلف من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوّع، لا اختلاف تضادّ :

قال ابن تيمية : يجب أن يعلم أن النبىّ صلى الله عليه وسلم بيّن لأصحابه معانى القرآن ، كما بيّن لهم ألفاظه . فقوله تعالى: « لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »(١) يتناول هذا وهذا . وقد قال أبو عبد الرحمن السُّلَمِىّ : حدثنا الذين كانوا يقرؤون القرآن كعثمان بن عفان وعبدالله ابن مسعود وغيرهما؛ أنهم كانوا إذا تعلموا من النبىّ صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل. قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً . ولهذا كانوا يبقون مدة فى حفظ السورة .

وقال أنس: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فى أعيننا ، رواه أحمد فى مسنده(٢).

وأقام ابن عمر على حفظ البقرة ثمان سنين ، أخرجه فى الموطأ(٣) .

وذلك أن الله قال « كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ »(٤) . وقال : « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ »(٥) وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن . وأيضاً فالعادة

---

(١) انظر الحاشية رقم ٥ ص ١٠ .

(٢) مسند الإمام أحمد ، جزء ثالث ، صفحة ١٢٠ (طبعة الحلبىّ) .

(٣) الإمام مالك فى الموطأ فى : ١٥ ـ كتاب القرآن ، ١١ ـ وحدثنى عن مالك أنه بلغه أن عبد الله بن عمر مكث على سورة البقرة ثمانى سنين يتعلمها ، صفحة ٢٠٥ .

(٤) [٣٨ / ص / ٢٩] كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ .

(٥) [٤ / النساء / ٨٢] أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً .

تنعم أن يقرأ قوم كتاباً فى فن من العلم، كالطب والحساب ولا يستشرحونه ، فكيف بكلام الله الذى هو عصمتهم ، وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم ؟ ولهذا كان النزاع بين الصحابة فى تفسير القرآن قليلاً جداً . وهو، وإن كان بين التابعين أكثر منه بين الصحابة ، فهو قليل بالنسبة إلى ما بعدهم . ومن التابعين من تلقى جميع التفسير عن الصحابة . وربما تكلموا فى بعض ذلك بالاستنباط والاستدلال . والخلاف بين السلف فى التفسير قليل . وغالب مايصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوّع لا اختلاف تضادّ ، وذلك صنفان:

أحدهما : أن يعبر واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه ، تدل على معنى فى المسمى غير المعنى الآخر ، مع اتحاد المسمى ، كتفسيرهم « الصراط المستقيم » : بعضٌ بالقرآن ، أى اتباعه . وبعضٌ بالإسلام . فالقولان متفقان . لأن دين الإسلام هو اتباع القرآن ، ولكن كل منهما نبه على وصف غير الوصف الآخر ، كما أن لفظ « صراط » يشعر بوصف ثالث . وكذلك قول من قال : « هو السنة والجماعة » ، وقول من قال : « هو طريق العبودية » ، وقول من قال: « هو طاعة الله ورسوله » وأمثال ذلك . فهؤلاء كلهم أشاروا إلى ذات واحدة، لكنْ وَصَفَها كل منهم بصفة من صفاتها .

الثانى : أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل . وتنبيه المستمع على النوع ، لا على سبيل الحد المطابق للمحدود فى عمومه وخصوصه. مثاله : مانقل فى قوله تعالى : « ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا »[1] الآية . فمعلوم أن الظالم لنفسه يتناول المضيع للواجبات ، والمنتهك للحرمات ؛ والمقتصد يتناول فاعل الواجبات وتارك المحرمات ، والسابقَ يدخل فيه من سبق ، فتقرّب بالحسنات مع الواجبات . فالمقتصدون أصحاب اليمين ، والسابقون السابقون أولئك المقربون . ثم إن كلًّا منهم يذكر هذا فى نوع من أنواع الطاعات كقول القائل : السابق الذى يصلى فى أول الوقت ، والمقتصد الذى يصلى فى أثنائه ، والظالم

(١) [٣٥ / فاطر / ٣٢] ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ، فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ .

لنفسه الذى يؤخر العصر إلى الاصفرار . أو يقول : السابق المحسن بالصدقة مع الزكاة ، والمقتصد الذى يؤدى الزكاة المفروضة فقط ، والظالم مانع الزكاة .

قال : وهذان الصنفان اللذان ذكرناهما فى تنوّع التفسير، تارة لتنوّع الأسماء والصفات ، وتارةً لذكر بعض أنواع المسمى ، هو الغالب فى تفسير سلف الأمة الذى يظن أنه مختلف .

ومن التنازع الموجود منهم ما يكون اللفظ فيه محتملاً للأمرين ، إما لكونه مشتركا فى اللغة ، كلفظ « القَسْوَرَة » الذى يراد به الرامى ، ويراد به الأسد ؛ ولفظ « عسعس » الذى يراد به إقبال الليل وإدباره . وإما لكونه متواطئاً فى الأصل ، لكن المراد به أحد النوعين ، أو أحد الشخصين ، كالضمائر فى قوله : « ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى »[1] الآية ، وكلفظ « وَالْفَجْرِ . وَلَيَالٍ عَشْرٍ . وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ »[2] وأشباه ذلك . فمثل ذلك قد يجوز أن يراد به كل المعانى التى قالها السلف ، وقد لا يجوز ذلك . فالأول إما لكون الآية نزلت مرتين ، فأريد بها هذا تارة ، وهذا تارة . وإما لكون اللفظ المشترك يجوز أن يراد به معنياه ؛ وإما لكون اللفظ متواطئاً ، فيكون عاماً إذا لم يكن لمخصصه موجب . فهذا النوع إذا صح فيه القولان كان من الصنف الثانى .

ومن الأقوال الموجودة عنهم ، ويجعلها بعض الناس اختلافاً ، أن يعبروا عن المعانى بألفاظ متقاربة ، كما إذا فسر بعضهم « تبسل » بتحبس ، وبعضهم بترتهن ، لأن كلًّا منهما قريب من الآخر .

فصل

ثم قال :

والاختلاف فى التفسير على نوعين : منه ما مستنده النقل فقط ، ومنه ما يعلم بغير ذلك . والمنقول إما عن المعصوم أو غيره ؛ ومنه ما يمكن معرفة الصحيح منه من غيره ، ومنه

(١) [٥٣ / النجم / ٨ و ٩] ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى .

(٢) [٨٩ / الفجر / ١ ـ ٣] وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ .

مالا يمكن ذلك . وهذا القسم الذى لا يمكن معرفة صحيحه من ضعيفه ، عامته مما لا فائدة فيه ، ولا حاجة بنا إلى معرفته . وذلك كاختلافهم فى لون كلب أصحاب الكهف ، واسمه ، وفى البعض الذى ضرب به القتيل من البقرة ، وفى قدر سفينة نوح وخشبها ، وفى اسم الغلام الذى قتله الخضر ، ونحو ذلك . فهذه الأمور طريق العلم بها النقل ، فما كان منه منقولاً نقلاً صحيحاً عن النبىّ ﷺ قُبِل . وما لا ، بأن نقل عن أهل الكتاب ، ككعب ووهب ، وقف عن تصديقه وتكذيبه . لقوله ﷺ : « إذا حدثكم أهل الكتاب ، فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم »(١) ، وكذا ما نقل عن بعض التابعين ، وإن لم يذكر أنه أخذه عن أهل الكتاب . فمتى اختلف التابعون ، لم يكن بعض أقوالهم حجة على بعض ، وما نقل فى ذلك عن الصحابة نقلاً صحيحاً ، فالنفس إليه أسكن مما ينقل عن التابعين ، لأن احتمال أن يكون سمعه من النبىّ ﷺ أو من بعض من سمعه منه أقوى ، ولأن نقل الصحابة عن أهل الكتاب أقل من نقل التابعين . ومع جزم الصحابىّ بما يقوله ، كيف يقال إنه أخذه عن أهل الكتاب وقد نهوا عن تصديقهم ؟

وأما القسم الذى يمكن معرفة الصحيح منه ، فهذا موجود كثير ولله الحمد ، وإن قال الإمام أحمد : ثلاثة ليس لها أصل : التفسير والملاحم والمغازى ؛ وذلك لأن الغالب عليها المراسيل .

وأما ما يعلم بالاستدلال لا بالنقل ، فهذا أكثر ما فيه الخطأ من جهتين حدثتا بعد تفسير الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان . فإن التفاسير التى يذكر فيها كلام هؤلاء صرفاً ، لا يكاد يوجد فيها شىء من هاتين الجهتين ، مثل تفسير عبد الرزاق والفريابىّ ووكيع وعبدٍ وإسحق وأمثالهم . أخذها قوم اعتقدوا معانى ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها .

(والثانى) قوم فسروا القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريده من كان من الناطقين بلغة العرب ، من غير نظر إلى المتكلم بالقرآن والمنزّل عليه والمخاطَب به . فالأولون راعوا المعنى الذى رأوه من غير نظر إلى ما تستحقه ألفاظ القرآن من الدلالة والبيان . والآخرون راعوا

---

(١) مسند الإمام أحمد ، جزء رابع ، صفحة ١٣٦ (طبعة الحلبىّ) عن أبى نملة الأنصارىّ .

مجرد اللفظ وما يجوز أن يراد به العربىّ من غير نظر إلى مايصلح للمتكلم ، وسياق الكلام .
ثم هؤلاء كثيراً ما يغلطون فى احتمال اللفظ لذلك المعنى فى اللغة ، كما يغلط فى ذلك الذين قبلهم ، كما أن الأولين كثيراً ما يغلطون فى صحة المعنى الذى فسروا به القرآن ، كما يغلط فى ذلك الآخرون ، وإن كان نظر الأولين إلى المعنى أسبق ، ونظر الآخرين إلى اللفظ أسبق.
والأولون صنفان : تارة يسلبون لفظ القرآن ما دل عليه وأريد به ، وتارة يحملونه على ما لم يدل عليه ولم يرد به . وفى كلا الأمرين قد يكون ما قصدوا نفيه أو إثباته من المعنى باطلاً ، فيكون خطؤهم فى الدليل والمدلول . وقد يكون حقًّا، فيكون خطؤهم فى الدليل لا فى المدلول .
فالذين أخطأوا فيهما ، مثل طوائف من أهل البدع ، اعتقدوا مذاهب باطلة ، وعمدوا إلى القرآن فتأولوه على رأيهم ، وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين ، لا فى رأيهم ولا فى تفسيرهم . وقد صنفوا تفاسير على أصول مذهبهم . مثل تفسير عبد الرحمن بن كيسان الأصم والجُبَّائى وعبد الجبار والرّمّانى والزمخشرىّ وأمثالهم . وهؤلاء من يكون حسن العبارة يدس البدع فى كلامه ، وأكثر الناس لا يعلمون ، كصاحب الكشاف ونحوه . حتى إنه يروج على خلق كثير من أهل السنة تفاسيرهم الباطلة . وتفسير ابن عطية وأمثاله أتبع للسنة وأسلم من البدعة . ولو ذكر كلام السلف المأثور عنهم على وجهه لكان أحسن ، فإنه كثيراً ما ينقل من تفسير ابن جرير الطبرىّ ، وهو من أجلّ التفاسير وأعظمها قدراً ، ثم إنه يدع ما ينقله ابن جرير عن السلف ويذكر ما يزعم أنه قول المحققين ، وإنما يعنى بهم طائفة من أهل الكلام الذين قرروا أصولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزله أصولهم ، وإن كانوا أقرب إلى السنة من المعتزلة ، لكن ينبغى أن يعطى كل ذى حق حقه . فإن الصحابة والتابعين والأئمة إذا كان لهم فى الآية تفسير، وجاء قوم فسروا الآية بقول آخر لأجل مذهب اعتقدوه، وذلك المذهب ليس من مذاهب الصحابة والتابعين، صار مشاركا للمعتزلة وغيرهم من أهل البدع فى مثل هذا .

وفى الجملة من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى مايخالف ذلك كان مخطئاً فى ذلك بل مبتدعاً ، لأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه ، كما أنهم أعلم بالحق الذى بعث الله به

رسوله . وأما الذين أخطأوا في الدليل لا في المدلول كمثل كثير من الصوفية والوعاظ والفقهاء، يفسرون القرآن بمعان صحيحة فى نفسها ، لكن القرآن لا يدل عليها ، مثل كثير مما ذكره السلمىّ فى الحقائق ، فإن كان فيما ذكروه معانٍ باطلة دخل فى القسم الأول . انتهى .

٤ — قاعدة فى معرفة سبب النزول :

قال ابن تيمية : معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية ، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب . وقد أشكل على مروان بن الحكم معنى قوله تعالى : « لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا »(١) الآية ، وقال : لئن كان كل امرئ فرح بما أوتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً ، لنعذبن أجمعون . حتى بيّن له ابن عباس أن الآية نزلت فى أهل الكتاب حين سألهم النبىّ ﷺ عن شىء فكتموه إياه وأخبروه بغيره ، وأروه أنهم أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك إليه ـ أخرجه الشيخان(٢) ـ .

وحكى عن عثمان بن مظعون وعمرو بن معديكرب أنهما كانا يقولان : الخمر مباحة ،

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٨٨] لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

(٢) صحيح البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣ ـ سورة آل عمران ، ١٦ ـ باب لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا .

عن ابن أبى مليكة أن علقمة بن وقاص أخبره أن مروان قال لبوابه : اذهب ، يارافع ، إلى ابن عباس فقل له : لئن كان كل امرئ فرح بما أوتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبًا ، لنعذّبن أجمعون . فقال ابن عباس : وما لكم ولهذه ؟ إنما دعا النبىّ ﷺ يهود . فسألهم عن شىء فكتموه إياه وأخبروه بغيره ، فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم ، وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم .

ثم قرأ ابن عباس : وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ . إلى آخر الآيتين .

ويحتجان بقوله تعالى: « لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا... »(١) الآية ، ولو علما سبب نزولها لم يقولا ذلك . وهو أن ناساً قالوا ، لما حرّمت الخمر : كيف بمن قتلوا فى سبيل الله وماتوا وكانوا يشربون الخمر وهى رجس؟ فنزلت ـ أخرجه أحمد والنسائى(٢) وغيرهما ـ .

ومن ذلك قوله تعالى : « وَاللَّائِى يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ »(٣) فقد أشكل معنى هذا الشرط على بعض الأئمة حتى قال الظاهرية: بأن الآيسة لا عدة عليها إذا لم ترْتَبْ . وقد بين ذلك سبب النزول : وهو أنه لما نزلت الآية

---

(١) [٥ / المائدة / ٩٣] لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

(٢) صحيح البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥ ـ سورة المائدة ، ١١ ـ باب لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا .

عن أنس رضى الله عنه: أن الخمر التى أهريقت الفضيخ . قال: كنت ساقى القوم فى منزل أبى طلحة . فنزل تحريم الخمر فأمَرَ منادياً فنادى . فقال أبو طلحة : اخرج فانظر ما هـذا الصوت . قال : فخرجت فقلت : هذا منادٍ ينادى ألا إن الخمر قد حرّمت . فقال لى : اذهب فأهرقها .

قال : فجرت فى سكك المدينة .

قال : وكانت خمرهم يومئذ الفضيخ .

فقال بعض القوم : قتل قوم وهى فى بطونهم . قال فأنزل الله : لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا .

(٣) [٦٥ / الطلاق / ٤] وَاللَّائِى يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِى لَمْ يَحِضْنَ ، وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا .

التى فى سورة البقرة فى عدد من النساء قالوا : قد بقى عدد من عددالنساء لم يذكرن ـ الصغار والـكبار ـ أخرجه الحاكم عن أبىّ ـ فعلم بذلك أن الآية خطاب لمن لم يعلم ما حكمهن فى المدة ، وارتاب هل عليهن عدة أو لا ، وهل عدتهن كاللاتى فى سورة البقرة أو لا . فمعنى « إن ارتبتم » إن أشكل عليكم حكمهن ، وجهلتم كيف يعتددن ، فهذا حكمهن .

ومن ذلك قوله تعالى: « فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ »[1] فإنا لو تركنا ومدلول اللفظ لاقتضى أن المصلى لا يجب عليه استقبال القبلة سفراً ولا حضراً ، وهو خلاف الإجماع . فلما عرف سبب نزولها علم أنها فى نافلة السفر ، أو فيمن صلى بالاجتهاد وبان له الخطأ ، على اختلاف الروايات فى ذلك .

ومن ذلك قوله : « إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ . . . »[2] الآية : فإن ظاهر

---

(١) [٢ / البقرة / ١١٥] وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ، فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ ، إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ .

(٢) [٢ / البقرة / ١٥٨] إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ ، فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ، وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ .

وجاء فى صحيح البخارىّ ، فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٢١ ـ باب إن الصفا والمروة من شعائر الله .

عن هشام بن عروة عن أبيه أنه قال: قلت لعائشة، زوج النبىّ ﷺ ، وأنا يومئذ حديث السن : أرأيت قول الله تعالى : إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا . فما أرى على أحد شيئا أن لا يطوّف بهما ، فقالت عائشة : كلا . لو كان كما تقول كانت : فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما .

إنما أنزلت هذه الآية فى الأنصار ، كانوا يهلون لمناة . وكانت مناة حذو قديد . وكانوا يتحرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة . فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك ، فأنزل الله : إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ ، فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا .

لفظها لا يقتضى أن السعى فرض . وقد ذهب بعضهم إلى عدم فرضيته تمسكاً بذلك . وقد ردت عائشة على عروة فى فهمه ذلك بسبب نزولها، وهو أن الصحابة تأثموا من السعى بينهما، لأنه من عمل الجاهلية ، فنزلت .

ومنها رفع توهم الحصر . قال الشافعىّ ما معناه فى قوله تعالى « قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا... »(١) الآية : إن الـكفار لما حرموا ما أحل الله . وكانوا على المضادة والمحادة، فجاءت الآية مناقضة لغرضهم، فـكأنه قال: لاحلال إلاما حرمتموه ولا حرام إلاما أحللتموه، نازلا منزلة من يقول : لاتأكل اليوم حلاوة ، فتقول: لا آكل اليوم إلا الحلاوة؛ والغرض المضادة ، لا النفى والإثبات على الحقيقة . فـكأنه تعالى قال : لاحرام إلا ماحللتموه من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، ولم يقصد حل ماوراءه ، إذ القصد إثبات التحريم لا إثبات الحل .

قال إمام الحرمين : وهذا فى غاية الحسن ، ولولا سبق الشافعىّ إلى ذلك لـما كنا نستجيز مخالفة مالك فى حصر المحرمات فيما ذكرته الآية ، وتعيين المبهم فيها . ولقد قال مروان فى عبد الرحمن بن أبى بكر : إنه الذى أنزل فيه، «وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَـكُمَا » حتى ردت عليه عائشة وبينت له سبب نزولها (٢) .

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٥] قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٢) [٤٦ / الأحقاف / ١٧] وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَـكُمَا أَتَعِدَانِنِى أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

فى صحيح البخارىّ فى: ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٤٦ ـ سورة الأحقاف ، ١ ـ باب وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَـكُمَا .

عن يوسف بن ماهك قال: كان مروان على الحجاز . استعمله معاوية . فخطب فجعل =

وقال ابن تيمية أيضا : قد يجيء كثيرا من هذا الباب قولهم : هذه الآية نزلت فى كذا، لاسيما إن كان المذكور شخصا ، كقولهم : إن آية الظهار[1] نزلت فى امرأة ثابت بن قيس وإن آية الكلالة[2] نزلت فى جابر بن عبد الله ، وإن قوله : « وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ »[3] نزلت فى بنى قريظة والنضير ، ونظائر ذلك مما يذكرون أنه نزل فى قوم من المشركين بمكة

= يذكر يزيد بن معاوية لكى يبايع له بعد أبيه . فقال له عبد الرحمن بن أبى بكر شيئا . فقال : خذوه . فدخل بيت عائشة فلم يقدروا . فقال مروان : إن هذا الذى أنزل الله فيه : وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا . فقالت عائشة ، من وراء الحجاب : ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن ، إلا أن الله أنزل عذرى .

(١) [٥٨/المجادلة/٢ و ٣] الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ، إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ، وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ، وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ * وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ، ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

(٢) [٤ / النساء / ١٢] . . . وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ ، فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ، مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ ، وَصِيَّةً مِنَ اللهِ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ .

و [٤ / النساء / ١٧٦] يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ، إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ، وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ ، فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ، وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ، يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا ، وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

(٣) [٥ / المائدة / ٤٩] وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ .

أو فى قوم من اليهود والنصارى ، أو فى قوم من المؤمنين . فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أنّ حكم الآية يختص بأولئك الأعيان دون غيرهم، فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق. والناس وإن تنازعوا فى اللفظ العام الوارد على سبب هل يختص بسببه ، فلم يقل أحد إن عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين ، وإنما غاية مايقال إنها تختص بنوع ذلك الشخص ، فتعم مايشبهه ، ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ . والآية التى لها سبب معين إن كانت أمراً أو نهياً فهى متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته . وإن كانت خبرا بمدح أو ذم ، فإنها متناولة لذلك الشخص ولمن كان بمنزلته .

وقال ابن تيمية أيضا : قولهم أنزلت هذه الآية فى كذا يراد به تارة سبب النزول ، ويراد به تارة أن ذلك داخل فى الآية ، وإن لم يكن السبب، كما نقول عنى بهذه الآية كذا . وقد تنازع العلماء فى قول الصحابىّ : نزلت هذه الآية فى كذا ، هل يجرى مجرى المسند كما لو ذكر السبب الذى أنزلت لأجله ، أو يجرى مجرى التفسير منه الذى ليس بمسند ؟ فالبخارىّ يدخله فى المسند ، وغيره لا يدخله فيه . وأكثر المسانيد على هذا الاصطلاح ، كمسند أحمد ، وغيره. بخلاف ما إذا ذكر سبباً نزلت عقبه ، فإنهم كلهم يدخلون مثل هذا فى المسند . اه .

وقال الزركشىّ فى البرهان : قد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال: نزلت هذه الآية فى كذا ، فإنه يريد بذلك أنها تتضمن هذا الحكم ، لا أن هذا كان السبب فى نزولها . فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية ، لا من جنس النقل لما وقع . انتهى .

وقال المحقق أبو إسحق الشاطبىّ فى الموافقات : معرفة أسباب التنزيل لازمة لمن أراد علم القرآن . والدليل على ذلك أمران :

أحدهما : أن علم المعانى والبيان الذى يعرف به إعجاز نظم القرآن ، فضلا عن معرفة مقاصد كلام العرب ، إنما مداره على معرفة مقتضيات الأحوال حال الخطاب من جهة نفس الخطاب أو المخاطِب أو المخاطَب أو الجميع . إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين ،

وبحسب مخاطبين ، وبحسب غير ذلك . كالاستفهام لفظه واحد ، ويدخله معان أخر ، من تقرير وتوبيخ وغير ذلك . وكالأمر يدخله معنى الإباحة والتهديد والتعجيز وأشباهها . ولا يدل على معناها المراد إلا الأمور الخارجة . وعمدتها مقتضيات الأحوال . وليس كل حال ينقل ، ولا كل قرينة تقترن بنفس الكلام المنقول . وإذا فات نقل بعض القرائن الدالة، فات فهم الكلام جملة ، أو فهم شيء منه . ومعرفة الأسباب رافعة لكل مشكل فى هذا النمط ، فهى من المهمات فى فهم الكتاب بلا بد . ومعنى معرفة السبب هو معنى معرفة مقتضى الحال . وينشأ عن هذا الوجه .

الوجه الثانى : وهو أن الجهل بأسباب التنزيل موقع فى الشبه والإشكالات ، مورد للنصوص الظاهرة مورد الإجمال ، حتى يقع الاختلاف ، وذلك مظنة وقوع النزاع . ويوضح هذا المعنى ماروى أبوعبيد عن إبراهيم التيمىّ ، قال: خلا عمر ذات يوم ، فجعل يحدث نفسه: كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد ؟ ! فأرسل إلى ابن عباس فقال : كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد ، وقبلتها واحدة ؟ ! فقال ابن عباس : يا أمير المؤمنين ! إنّا أُنزل القرآن علينا فقرأناه ، وعلمنا فيم نزل . وإنه سيكون بعدنا أقوام يقرؤون القرآن ولا يدرون فيم نزل ، فيكون لهم فيه رأى ، فإذا كان لهم فيه رأى اختلفوا ، اقتتلوا . قال فزجره عمر وانتهره! فانصرف ابن عباس . ونظر عمر فيما قال ، فعرفه ، فأرسل إليه فقال : أعد علىّ ماقلت . فأعاده عليه ، فعرف عمر قوله وأعجبه . وما قاله صحيح فى الاعتبار ، ويتبين بما هو أقرب . فقد روى ابن وهب عن بكير أنه سأل نافعا : كيف كان رأى ابن عمر فى الحرورية ؟ قال : يراهم شرار خلق الله ، إنهم انطلقوا إلى آيات أنزلت فى الكفار ، فجعلوها على المؤمنين . فهذا معنى الرأى الذى نبه ابن عباس عليه ، وهو الناشىء عن الجهل بالمعنى الذى نزل فيه القرآن .

ثم ساق الشاطبىّ نحو ما تقدم عن ابن تيمية مطولا ، وقال فى آخر البحث : وهذا شأن أسباب النزول فى التعريف بمعانى المنزل ، بحيث لو فقد ذكر السبب ، لم يعرف من المنزل معناه على الخصوص ، دون تطرق الاحتمالات ، وتوجه الإشكالات . وقد قال عليه السلام:

خذوا القرآن من أربعة، منهم عبدالله بن مسعود[1] . وقد قال في خطبة خطبها : والله! لقدعلم أصحاب النبيّ ﷺ أني من أعلمهم بكتاب الله . وقال في حديث آخر : والذي لا إله غيره ! ماأنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم أنزلت ، ولو أعلم أحدا أعلم بكتاب الله مني ، تبلغه الإبل ، لركبت إليه[2] . وهـذا يشير إلى أن علم الأسباب من العلوم التي يكون العالم بها عالما بالقرآن .

وعن الحسن أنه قال : ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم فيما أنزلت ، وما أراد بها. وهو نص في الموضع مشير إلى التحريض على تعلم علم الأسباب .

وعن ابن سيرين قال: سألت عبيدة عن شيء من القرآن، فقال: اتق الله وعليك بالسداد، فقد ذهب الذين يعلمون فيم أنزل القرآن . وعلى الجملة فهو ظاهر بالمزاولة لعلم التفسير انتهى .

وقال ولي الله الدهلويّ في الفوز الـكبير : ومن المواضع الصعبة معرفة أسباب النزول . ووجه الصعوبة فيها خلاف المتقدمين والمتأخرين . والذي يظهر من استقراء كلام الصحابة والتابعين ، أنهم لايستعملون «نزلت في كذا» لمحض قصة كانت في زمنه صلى الله عليه وسلم ، وهي سبب نزول الآية . بل ربمـا يذكرون بعض ما صدقت عليه الآية مما كان في زمنه صلى الله عليه وسلم، أو بعده صلى الله عليه وسلم . ويقولون : « نزلت في كذا » ولا يلزم هناك

---

(١) صحيح البخاريّ في : ٦٦ ـ كتاب فضائل القرآن ، ٨ ـ باب القراء من أصحاب النبيّ ﷺ .

عن مسروق : ذكر عبدُ الله بن عمرو ، عبدَ الله بن مسعود فقال : لا أزال أحبه . سمعت النبيّ ﷺ يقول : « خذوا القرآن من أربعة : من عبـد الله بن مسعود ، وسالم ، ومعاذ ، وأبيّ بن كعب » .

(٢) صحيح البخاريّ في الباب السابق :

قال عبد الله رضي الله عنـه : والله الذي لا إله غيره ! ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين أنزلت . ولا أنزلت آية في كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم أنزلت . ولو أعلمُ أحداً أعلمَ مني بكتاب الله، تبلغه الإبل، لركبت إليه .

انطباق جميع القيود ، بل يكفى انطباق أصل الحكم فقط . وقد يقررون حادثة تحققت فى تلك الأيام المباركة ، واستنبط صلى الله عليه وسلم حكمها من آية ، وتلاها فى ذلك الباب ، ويقولون : « نزلت فى كذا » وربمايقولون: فى هذه الصورة ، فأنزل الله قوله كذا ، فكأنه إشارة إلى أنه استنباطُه صلى الله عليه وسلم . وإلقاؤها فى تلك الساعة بخاطره المبارك أيضا ، نوعٌ من الوحى والنفث فى الروع . فلذلك يمكن أن يقال : فأنزلت ، ويمكن أن يعبر فى هذه الصورة بتكرار النزول . ويذكر المحدثون فى ذيل آيات القرآن كثيرا من الأشياء ليست من قسم سبب النزول فى الحقيقة . مثل استشهاد الصحابة فى مناظراتهم بآية ، أو تمثيلهم بآية ، أو تلاوته صلى الله عليه وسلم آية للاستشهاد فى كلامه الشريف ، أو رواية حديث وافق الآية فى أصل الغرض ، أو تعيين موضع النزول ، أو تعيين أسماء المذكورين بطريق الإبهام، أو بطريق التلفظ بكلمة قرآنية ، أو فضل سور وآيات من القرآن ، أو صورة امتثاله صلى الله عليه وسلم بأمر من أوامر القرآن ونحو ذلك . وليس شيء من هذا فى الحقيقة من أسباب النزول ، ولا يشترط إحاطة المفسر بهذه الأشياء ، إنما شرط المفسر أمران :

الأول : ما تعرض له الآيات من القصص ، فلا يتيسر فهم الإيماء بتلك الآيات إلا بمعرفة تلك القصص .

والثانى : ما يخصص العام من القصة ، أو مثل ذلك من وجوه صرف الكلام عن الظاهر . فلا يتيسر فهم المقصود من الآيات بدونها .

ومما ينبغى أن يعلم أن قصص الأنبياء السابقين لا تذكر فى الحديث إلا على سبيل القلة، فالقصص الطويلة العريضة التى تكلف المفسرون روايتها ، كلها منقولة عن علماء أهل الكتاب ، إلا ماشاء الله تعالى . وقد جاء فى صحيح البخارىّ مرفوعا : لاتصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم[1] . وليعلم أن الصحابة والتابعين ربما كانوا يذكرون قصصا

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٩٧ ــ كتاب التوحيد ٥١ ــ باب مايجوز من تفسير التوراة وغيرها من كتب الله بالعربية وغيرها .

عن أبى هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية =

جزئية لمذاهب المشركين واليهود وعاداتهم من الجهالات لتتضح تلك العقائد والعادات ، ويقولون : نزلت الآية فى كذا . ويريدون بذلك أنها نزلت فى هذا القبيل ، سواء كان هذا وماأشبهه ، أوماقاربه . ويقصدون إظهار تلك الصورة، لابخصوصها ، بل لأجل أن التصوير صالح لتلك الأمور الكلية . ولهذا تختلف أقوالهم فى كثير من المواضع ، وكلٌّ يجرّ الكلام إلى جانب . وفى الحقيقة ، المطالب متحدة . وإلى هذه النكتة أشار أبو الدرداء حيث قال : لا يكون أحد فقيها حتى يحمل الآية على محامل متعددة . انتهى .

وقال أيضا : من جملة الآثار المروية فى كتب التفسير بيان سبب النزول. وسبب النزول على قسمين :

الأول : أن تقع حادثة يظهر فيها إيمان المؤمنين ، ونفاق المنافقين ، كما وقع فى أُحُدٍ والأحزاب ، أنزل الله تعالى مدح هؤلاء ، وذم أولئك ، ليكون فيصلًا بين الفريقين . وربما يقع فى مثل هـذا من التعريض بخصوصيات الحادثة ما يبلغ حدّ الكثرة . فيجب أن يذكر شرح الحادثة مختصراً ليتضح سوق الكلام على القارئ .

القسم الثانى : أن يتم معنى الآية بعمومها من غير احتياج إلى العلم بالحادثة التى هى سبب النزول . والحكم لعموم اللفظ لا لخصوص السبب . وقد ذكر قدماء المفسرين تلك الحادثة بقصد الإحاطة بالآثار المناسبة للآية ، أو بقصد بيان ما صدق عليه العموم . وليس ذكر هذا القسم من الضروريات .

وقد تحقق عند الفقير ؛ أن الصحابة والتابعين كثيراً ما كانوا يقولون : نزلت الآية فى كذا وكذا ، وكان غرضهم تصوير ما صدقت عليه الآية ، وذكر بعض الحوادث التى تشملها الآية بعمومها ، سواء تقدمت القصة أو تأخرت ، إسرائيلياًّ كان ذلك أو جاهلياًّ أو إسلامياًّ ، استوعبت جميع قيود الآية أو بعضها والله أعلم.

فعلم من هذا التحقيق أن للاجتهاد فى هذا القسم مدخلًا، وللقصص المتعددة هنالك سعة. فمن استحضر هذه النكتة يتمكن من حل ما اختلف من سبب النزول بأدنى عناية. انتهى كلامه.

= لأهل الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا : ءَامَنَّا بِاللهِ وَمَآأُنْزِلَ . . . الآية » .

٥ — قاعدة فى الناسخ والمنسوخ

قد تقرر أن النسخ فى الشرائع جائز ، موافق للحكمة وواقع ، فإن شرع موسى نسخ بعض الأحكام التى كان عليها إبراهيم . وشرع عيسى نسخ بعض أحكام التوراة . وشريعة الإسلام نسخت جميع الشرائع السابقة. لأن الأحكام العملية التى تقبل النسخ ، إنما تشرع لمصلحة البشر . والمصلحة تختلف باختلاف الزمان ، فالحكيم العليم يشرع لكل زمن ما يناسبه .

وكما تنسخ شريعة بأخرى ، يجوز أن تنسخ بعض أحكام شريعة بأحكام أخرى فى تلك الشريعة . فالمسلمون كانوا يتوجهون إلى بيت المقدس فى صلاتهم ، فنسخ ذلك بالتوجه إلى الكعبة . وهذا لا خلاف فيه بين المسلمين . ولكنّ هناك خلافا فى نسخ أحكام القرآن ولو بالقرآن . فقد قال أبو مسلم محمد بن بحر الأصفهانىّ المفسر الشهير : ليس فى القرآن آية منسوخة ، وهو يخرّج كل ما قالوا إنه منسوخ على وجه صحيح بضرب من التخصيص أو التأويل .

وظاهر أن مسألة القبلة ليس فيها نسخ للقرآن ، وإنما هى نسخ لحكم ، لا ندرى هل فعله النبىّ ﷺ باجتهاده ، أم بأمر من الله تعالى غير القرآن ، فإن الوحى غير محصور فى القرآن .

ولكن الجمهور على أن القرآن ينسخ بالقرآن ، بناء على أنه لا مانع من نسخ حكم آية مع بقائها فى الكتاب ، يُعبد الله تعالى بتلاوتها ، وتذكر نعمته ، بالانتقال من حكم كان موافقاً للمصلحة ولحال المسلمين فى أول الإسلام ، إلى حكم يوافق المصلحة فى كل زمان ومكان . فإنه لا ينسخ حكم إلا بأمثل منه . كالتخفيف فى تكليف المؤمنين بقتال عشرة أمثالهم ، والاكتفاء بمقاتلة الضعف بأن تقاتل المائة مائتين . واتفقوا على أنه لا يقال بالنسخ إلا إذا تعذر الجمع بين الآيتين من آيات الأحكام العملية ، وعُلِم تاريخهما ، فعند ذلك يقال : إن الثانية ناسخة للأولى . أما آيات العقائد والفضائل والأخبار فلا نسخ فيها .

وقال الإمام شمس الدين ابن القيم رحمه الله تعالى : مراد عامة السلف بالناسخ والمنسوخ

رفع الحكم بجملته تارة — وهو اصطلاح المتأخرين — ورفع دلالة العام والمطلق والظاهر وغيرها تارة ، إما بتخصيص أو تقييد مطلق . وحمله على المقيد وتفسيره وتبيينه . حتى إنهم يسمون الاستثناء والشرط والصفة نسخاً ، لتضمن ذلك رفع دلالة الظاهر وبيان المراد . فالنسخ ، عندهم وفى لسانهم ، هو بيان المراد بغير ذلك اللفظ ، بل بأمر خارج عنه . ومن تأمل كلامهم رأى من ذلك فيه ما لا يحصى ، وزال عنه به إشكالات أوجبها حمل كلامهم على الاصطلاح الحادث المتأخر . انتهى.

وقال ولىّ الله الدهلوىّ فى الفوز الكبير : من المواضع الصعبة فى فن التفسير التى ساحتها واسعة جدًّا ، والاختلاف فيها كثير ، معرفة الناسخ والمنسوخ . وأقوى الوجوه الصعبة اختلاف اصطلاح المتقدمين والمتأخرين ؛ وما علم فى هذا الباب ، من استقراء كلام الصحابة والتابعين، أنهم كانوا يستعملون النسخ بإزاء المعنى اللغوىّ الذى هو إزالة شيء بشيء ، لا بإزاء مصطلح الأصوليين . فمعنى النسخ عندهم إزالة بعض الأوصاف من الآية بآية أخرى ، إما بانتهاء مدة العمل ، أو بصرف الكلام عن المعنى المتبادر إلى غير المتبادر ، أو بيان كون قيد من القيود اتفاقياً ، أو تخصيص عام، أو بيان الفارق بين المنصوص وما قيس عليه ظاهراً، أو إزالة عادة الجاهلية ، أو الشريعة السابقة . فاتسع باب النسخ عندهم ، وكثر جولان العقل هنالك ، واتسعت دائرة الاختلاف . ولهذا بلغ عدد الآيات المنسوخة خمسمائة .

وإن تأملت، متعمقاً، فهى غير محصورة . والمنسوخ باصطلاح المتأخرين عدد قليل. لاسيما بحسب ما اخترناه من التوجيه . انتهى .

وقال الإمام الشاطبىّ فى الموافقات : الذى يظهر من كلام المتقدمين أن النسخ عندهم ، فى الإطلاق ، أعم منه فى كلام الأصوليين . فقد يطلقون على تقييد المطلق نسخاً ، وعلى تخصيص العموم ، بدليل متصل أو منفصل ، نسخاً ، وعلى بيان المبهم والمجمل نسخاً ، كما يطلقون على رفع الحكم الشرعىّ ، بدليل شرعىّ متأخر ، نسخاً . لأن جميع ذلك مشترك فى معنى واحد . وهو أن النسخ فى الاصطلاح المتأخر اقتضى أن الأمر المتقدم غير مراد

فى التكليف ، وإنما المراد ما جيء به آخراً ، فالأول غير معمول به ، والثانى هو المعمول به .
وهذا المعنى جاء فى تقييد المطلق . فإن المطلق متروك الظاهر مع مقيده ، فلا إعمال له فى إطلاقه ، بل المعمل هو المقيد ، فكأن المطلق لم يفد مع مقيده شيئاً ، فصار مثل الناسخ والمنسوخ . وكذلك العامّ مع الخاص . إذ كان ظاهر العام شمول الحكم لجميع ما يتناوله اللفظ . فلما جاء الخاص أخرج حكم ظاهر العام عن الاعتبار ، فأشبه الناسخ والمنسوخ . إلا أن اللفظ العام لم يهمل مدلوله جملة ، وإنما أهمل منه ما دل عليه الخاص ، وبقى السائر على الحكم الأول ، والمبين مع المبهم ، كالمقيد مع المطلق . فلما كان كذلك استسهل إطلاق لفظ النسخ فى جملة هذه المعانى ، لرجوعها إلى شيء واحد . ولا بد من أمثلة تبين المراد : فقد روى عن ابن عباس أنه قال فى قوله تعالى : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ »[1] أنه ناسخ لقوله تعالى : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا »[2] وهذا ، على التحقيق ، تقييدٌ لمطلقٍ . إذ كان قوله « نؤته منها » مطلقاً ومعناه مقيد بالمشيئة ، وهو قوله فى الأخرى « لمن نريد » وإلا فهو إخبار ، والأخبار لا يدخلها النسخ .

وقال فى قوله « وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ » إلى قوله « وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ »[3] هو منسوخ بقوله « إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ... »[4] الآية

---

(١) [١٧ / الإسراء / ١٨] ونصها : مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا .

(٢) [٤٢ / الشورى / ٢٠] ونصها : مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِى الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ .

(٣) [٢٦ / الشعراء / ٢٢٤ ـ ٢٢٦] ونصها : وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ .

(٤) [٢٦ / الشعراء / ٢٢٧] ونصها : إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ، وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ .

قال مكيّ — وقد ذكر عن ابن عباس، فى أشياء كثيرة فى القرآن فيها حرف الاستثناء، أنه قال: منسوخ — قال: وهو مجاز لا حقيقة. لأن المستثنى مرتبط بالمستثنى منه، بيّنه حرف الاستثناء أنه فى بعض الأعيان الذين عمهم اللفظ الأول، والناسخ منفصل من المنسوخ، رافع لحكمه، وهو بغير حرف. هذا ما قال. ومعنى ذلك: أنه تخصيص العموم قبله، ولكنه أطلق عليه لفظ النسخ، إذ لم يعتبر فيه الاصطلاح الخاص.

وقال فى قوله تعالى: « لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا »(١) أنه منسوخ بقوله: « لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ . . . »(٢) الآية. وليس من الناسخ والمنسوخ فى شىء. غير أن قوله: « ليس عليكم جناح » يثبت فى الآية الأخرى أنما يراد بها المسكونة.

وقال فى قوله تعالى: « انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا »(٣) أنه منسوخ بقوله: « مَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً »(٤) والآيتان فى معنيين. ولكنه نبه على أن الحكم بعد غزوة تبوك أن لا يجب النفير على الجميع.

وقال فى قوله تعالى: « قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ »(٥) منسوخ بقوله: « وَاعْلَمُوا

---

(١) [٢٤ / النور / ٢٧] ونصها: يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ.

(٢) [٢٤ / النور / ٢٩] ونصها: لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ.

(٣) [٩ / التوبة / ٤١] ونصها: انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ.

(٤) [٩ / التوبة / ١٢٢] ونصها: وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً، فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ.

(٥) [٨ / الأنفال / ١] ونصها: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ، قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ =

أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ . . . »(١) الآية ، وإنما ذلك بيان لمبهم فى قوله: « لله والرسول » .

وقال فى قوله تعالى: « وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ » أنه منسوخ بقوله: «وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا... » الآية. وآية الأنعام خبر من الأخبار ، والأخبار لا تَنسخ ولا تُنسخ .

وقال فى قوله: «وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ..»(٤) الآية: أنه منسوخ بآية المواريث . وقال مثله الضحاك والسدّى وعكرمة . وقال الحسن : منسوخ بالزكاة . وقال ابن المسيّب : نسخه الميراث والوصية .

والجمع بين الآيتين ممكن ، لاحتمال حمل الآية على الندب ، والمراد بأولى القربى من لا يرث . بدليل قوله : « وَإِذَا حَضَرَ » كما ترى الرزق بالحضور ، فإن المراد غير الوارثين . وبيّن الحسن أن المراد الندب أيضا بدليل آية الوصية والميراث ، فهو من بيان المجمل والمبهم .

= وَالرَّسُولِ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .

(١) [٨ / الأنفال / ٤١] ونصها : وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

(٢) [٦ / الأنعام / ٦٩] ونصها : وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَٰكِنْ ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ .

(٣) [٤ / النساء / ١٤٠] ونصها : وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا .

(٤) [٤ / النساء / ٨] ونصها : وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا .

وقال هو وابن مسعود فى قوله : « وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِى أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ » أنه منسوخ بقوله : « لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا »(٢) بدليل أن ابن عباس فسر الآية بكتمان الشهادة ، إذ تقدم قوله « وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ » ثم قال : « وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِى أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ » الآية . فحصل أن ذلك من باب تخصيص العموم أو بيان المجمل .

وقال فى قوله : « وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا »(٣) أنه منسوخ بقوله : « وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ »(٤) الآية ، وليس بنسخ وإنما هو تخصيص لما تقدم من العموم .

وعن أبى الدرداء وعبادة بن الصامت فى قوله تعالى : « وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ »(٥) أنه ناسخ لقوله : «وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ »(٦) فإن

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٨٤] ونصها: لِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ، وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِى أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ ، فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٨٦] ونصها : لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ...

(٣) [٢٤ / النور / ٣١] ونصها: وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ...

(٤) [٢٤ / النور / ٦٠] ونصها : وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ، وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ، وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

(٥) [٥ / المائدة / ٥] ونصها : الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ، وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ ...

(٦) [٦ / الأنعام / ١٢١] ونصها : وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ، وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ .

كان المراد أن طعام أهل الكتاب حلال و إن لم يذكر اسم الله عليه فهو تخصيص للعموم . وإن كان المراد طعامهم حلال بشرط التسمية فهو أيضا من باب تخصيص . لكن آية الأنعام هى آية العموم المخصوص فى الوجه الأول ، وفى الثانى بالعكس .

وقال عطاء فى قوله تعالى : « وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ »[1] أنه منسوخ بقوله : « إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ »[2] إلى آخر الآيتين ، وإنما هو تخصيص وبيان لقوله « وَمَنْ يُوَلِّهِمْ » فكأنه على معنى « وَمَنْ يُوَلِّهِمْ » وكانوا مثلى عدد المؤمنين . فلا تعارض ولا نسخ بالإطلاق الأخير ، والأمثلة كثيرة . انتهى .

وسيأتى فى تفسير قوله تعالى : « مَا نَنْسَخْ مِنْ ءَايَةٍ »[3] زيادة على ما هنا بعونه تعالى .

٦ — قاعدة فى القراءة الشاذة والمدرج :

قال أبو عبيد فى فضائل القرآن : المقصد من القراءة الشاذة تفسير القراءة المشهورة وتبيين معانيها . كقراءة عائشة وحفصة « والصلاة الوسطى صلاة العصر » وقراءة ابن مسعود « فاقطعوا أيمانهما » وقراءة جابر « فإن الله من بعد إكراههن لهن غفور رحيم » .

قال : فهذه الحروف وما شاكلها قد صارت مفسرة للقرآن . وقد كان يروى مثل هذا عن التابعين فى التفسير فيستحسن . فكيف إذا روى عن كبار الصحابة، ثم صار فى نفس

---

(١) [٨ / الأنفال / ١٦] ونصها : وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ .

(٢) [٨ / الأنفال / ٦٥] ونصها : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ، إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ .

(٣) [٢ / البقرة / ١٠٦] ونصها : مَا نَنْسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

القراءة ، فهو أكثر من التفسير وأقوى ؟ فأدنى ما يستنبط من هذه الحروف معرفة صحة التأويل . انتهى .

وقال القراب فى الشافى : التمسك بقراءة سبعة من القراء دون غيرهم ليس فيه أثر ولا سنة ، وإنما هو من جمع بعض المتأخرين فانتشر ، وأوهم أنه لا تجوز الزيادة على ذلك ، وذلك لم يقل به أحد . انتهى .

ومن القراآت ما يشبه من أنواع الحديث المدرج . وهو ما زيد فى القراآت على وجه التفسير . كقراءة سعد بن أبى وقاص «وله أخ أو أخت من أم» أخرجها سعيد بن منصور ، وقراءة ابن عباس « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فى مواسم الحج» أخرجها البخارىّ. وقراءة ابن الزبير « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويستعينون بالله على ماأصابهم » قال عمرو : فما أدرى أكانت قراءته أم فسر — أخرجه سعيد بن منصور وأخرجه الأنبارىّ ، وجزم بأنه تفسير .

وأخرج عن الحسن أنه كان يقرأ: « وإن منكم إلا واردها الورود الدخول » قال الأنبارىّ: قوله: « الورود الدخول » تفسير من الحسن لمعنى الورود، وغلط فيه بعض الرواة فأدخله فى القرآن .

قال ابن الجزرىّ فى آخر كلامه : وربما كانوا يدخلون التفسير فى القراآت إيضاحاً وبياناً . لأنهم محققون لما تلقوه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قرآنا . فهم آمنون من الالتباس. وربما كان بعضهم يكتبه معه. وأما من يقول: إن بعض الصحابة كان يجيز القراءة بالمعنى فقد كذب وساء — كذا فى الإتقان.

---

(١) صحيح البخارىّ فى : ٦٥ — كتاب التفسير ، ٢ — سورة البقرة ، ٣٤ — باب ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم .

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقاً فى الجاهلية .. فتأثموا أن يتجروا فى المواسم . فنزلت : لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ . فى مواسم الحج .

٧ — قاعدة فى قصص الأنبياء والاستشهاد بالإسرائيليات

قال الإمام أبو العباس أحمد بن زروق فى قواعد التصوف : التأثير بالأخبار عن الوقائع أتم لسامعها من التأثير بغيرها . فمن ثَمَّ قيل : الحكايات جند من جنود الله يثبت الله بها قلوب العارفين. قيل : فهل تجد لذلك شاهداً من كتاب الله ؟ قال: « وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ » ووجه ذلك: أن شاهد الحقيقة بالفعل أظهر وأقوى فى الانفعال من شاهدها اللغوىّ ، إذ مادة الفاعل مستمرة فى الفعل لغابر الدهر .

وقال ولىّ الله الدهلوىّ ، قدس سره ، فى أصول التفسير ، فى فصل الكلام على معرفة أسباب النزول :

شرط المفسر أمران :

الأول : ما تعرض له الآيات من القصص، فلا يتيسر فهم الإيماء بتلك الآيات إلا بمعرفة تلك القصص .

والثانى : ما يخصص العام من القصة، أو مثل ذلك من وجوه صرف الكلام عن الظاهر، فلا يتيسر فهم المقصود من الآيات بدونها .

ومما ينبغى أن يعلم أن قصص الأنبياء السالفين لا تذكر فى الحديث إلا على سبيل القلة، فالقصص الطويلة العريضة التى تكلف المفسرون روايتها، كلها منقولة عن علماء أهل الكتاب إلا ما شاء الله تعالى . انتهى .

فإذن، لا يخفى أن من وجوه التفسير معرفة القصص المجملة فى غضون الآيات الكريمة ، ثم ما كان منها غير إسرائيلىّ . كالذى جرى فى عهده ﷺ، أو أخبر عنه. فهذا تكفل ببيانه المحدثون . وقد رووه بالأسانيد المتصلة . فلا مغمز فيه .

---

(١) [١١ / هود / ١٢٠] ونصها : وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ، وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ .

وأما ما كان إسرائيلياً ، وهو الذى أخذ جانباً وافراً من التنزيل العزيز، فقد تلقى السلف شرح قصصه، إما مما استفاض على الألسنة ودار من نبئهم، وإما من المشافهة عن الإسرائيليين الذين آمنوا . وهؤلاء كانوا تلقفوا أنباءها عن قادتهم . إذ الصحف كانت عزيزة لم تتبادلها الأيدى ، كما هو فى العصور الأخيرة . واشتهر ضَنُّ رؤسائهم بنشرها لدى عمومهم ، إبقاءً على زمام سيطرتهم . فيروون ماشاؤوا غير مؤاخذين ولا مناقشين . فذاع ما ذاع .

ومع ذلك فلا مغمز على مفسرينا الأقدمين فى ذلك ، طابق أسفارهم أم لا ، إذ لم يألوا جهدا فى نشر العلم وإيضاح ما بلغهم وسمعوه . إما تحسينا للظن فى رواة تلك الأنباء وأنهم لا يروون إلا الصحيح ، وإما تعويلا على مارواه الإمام أحمد والبخارىّ والترمذىّ عن عمرو ابن العاص عن رسول الله ﷺ قال : « بلغوا عنى ولو آية ، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج »[1] ورواه أبو داود أيضا بإسناد صحيح عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج » فترخصوا فى روايتها كيفما كانت ، ذهابا إلى أن القصد منها الاعتبار بالوقائع التى أحدثها الله تعالى لمن سلف لينهجوا منهج من أطاع فأثنى عليه وفاز . وينكبوا عن مهيع من عصى فحقت عليه كلمة العذاب وهلك . هذا ملحظهم رضى الله عنهم .

وقد روى عن الإمام أحمد بن حنبل أنه كان يقول : إذا روينا فى الأحكام شددنا ، وإذا روينا فى الفضائل تساهلنا ، فبالأحرى القصص . وبالجملة فلا ينكر أن فيها الواهيات بمرة ، والموضوعات ، مما استبان لمحقق المتأخرين . وقد رأيت ، ممن يدعى الفضل ، الحط من كرامة الإمام الثعلبىّ ، قدس الله سره العزيز ، لروايته الإسرائيليات . وهذا ، وايم الحق ، من جحد مزايا ذوى الفضل ومعاداة العلم . على أنه ، قدس سره ، ناقل عن غيره ، وراو ما حكاه بالأسانيد إلى أئمة الأخبار . وما ذنب مسبوق بقولٍ نقله باللفظ وعزاه لصاحبه ؟ فماذاً بك،

(١) صحيح البخارىّ فى: ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٥٠ ـ باب ماذكر عن بنى إسرائيل. عن عبدالله بن عمرو ؛ أن النبىّ ﷺ قال « بلغوا عنى ولو آية . وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج . ومن كذب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » .

الاهم! من هضيمة السلف . وقد رأيت له فى تاريخ القاضى ابن خلكان ترجمة عالية أحببت إثباتها هنا ، تعريفا بمقامه لدى الجاهل به .

قال القاضى فى حرف الهمزة : أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبىّ النيسابورىّ المفسر المشهور : كان أوحد زمانه فى علم التفسير ، وصنف التفسير الكبير الذى فاق غيره من التفاسير ، وله كتاب العرائس فى قصص الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم ، وغير ذلك . ذكره السمعانىّ ، وقال : يقال له الثعلبىّ ، والثعالبىّ ، وهو لقب له ليس بنسب ، قاله بعض العلماء .

وذكره عبدالغافر بن إسماعيل الفارسىّ فى كتاب سياق تاريخ نيسابور ، وأثنى عليه وقال: حدث عن أبى طاهر بن خزيمة والإمام أبى بكر بن مهران المقرئ ، وكان كثير الحديث ، كثير الشيوخ ، توفى سنة سبع وعشرين وأربعمائة .

وقال غيره : توفى فى المحرم سنة سبع وعشرين وأربعمائة .

وقال غيره : توفى يوم الأربعاء لسبع بقين من المحرم سنة سبع وثلاثين وأربعمائة. رحمه الله تعالى . انتهى .

والقصد أن الصالحين كانوا يتقبلون الروايات على علاتها للملاحظة المارة ، لصفاء سريرتهم . فلا ينبغى إلا تفنيد الموضوع منها ، لا الحط من مقامهم وقرض أعراضهم . كيف وقد تلقى الصحابة ومَنْ بعدهم الإسرائيليات وحكوها ، بل بعضهم اقتنى أسفارها وأدمن مطالعتها ، لما استبان له من البشائر النبوية، وتحقق تحريفهم .

روى الحافظ الذهبىّ فى تذكرة الحفاظ ، فى ترجمة عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه؛ أنه أصاب جملة من كتب أهل الكتاب وأدمن النظر فيها ورأى فيها عجائب.

وقال السيوطىّ فى الإتقان فى طبقات المفسرين : وورد عن عبد الله بن عمرو بن العاص أشياء تتعلق بالقصص وأخبار الفتن والآخرة . وما أشبهها بأن يكون مما تحمله عن أهل الكتاب .

وقال أيضا ، فى آخر الإتقان : حديث الفتون طويل جدا . يتضمن شرح قصة موسى وتفسير آيات كثيرة تتعلق به. وقد نبه الحفاظ منهم المزىّ وابن كثير على أنه موقوف من كلام ابن عباس . قال ابن كثير : وكان ابن عباس تلقاه من الإسرائيليات. انتهى .

وقد ثبت أن النبىّ ﷺ دخل كنيسة لليهود وسمع قراءة التوراة حتى أتوا على صفته .

روى الإمام أحمد عن ابن مسعود، رضى الله تعالى عنه ، قال : إن الله عز وجل ابتعث نبيه لإدخال رجل الجنة ، فدخل الكنيسة فإذا يهود ، وإذا يهودىّ يقرأ عليهم التوراة . فلما أتوا على صفة النبىّ ﷺ أمسكوا ، وفى ناحيتها رجل مريض ، فقال النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم: مالكم أمسكتم ؟ فقال المريض : إنهم أتوا على صفة نبىّ فأمسكوا . ثم جاء المريض يحبو حتى أخذ التوراة فقرأ حتى أتى على صفة النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم وأمته. فقال : هذه صفتك وصفة أمتك . أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فقال النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه : « لُوا أخاكم »(١) .

وروى الإمام أحمد أيضاً فى مسنده عن أبى صخر العقيلىّ قال: حدثنى رجل من الأعراب قال : جلبت جلوبة إلى المدينة فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . فلما فرغت من بيعتى قلت لَأَلْقَيَنَّ هذا الرجل فلأسمعنّ منه ، قال : فتلقانى بين أبى بكر وعمر يمشون ، فتبعتهم فى أقفائهم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشرًا التوراةَ يقرؤها يعزى بها نفسه على ابن له فى الموت كأحسن الفتيان وأجمله ، فقال رسول الله ﷺ : أنشدك بالذى أنزل التوراة! هل تجد فى كتابك هذا صفتى ومخرجى ؟ فقال برأسه : هكذا ، أى لا . فقال ابنه : إى والله الذى أنزل التوراة ! إنا لنجد فى كتابنا صفتك ومخرجك ، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ! فقال : أقيموا اليهودىّ عن أخيكم ، ثم وَلِىَ دفنه وحنطه وصلى عليه(٢) .

وروى الحافظ الذهبىّ فى تذكرة الحفاظ فى ترجمة عبد الله بن سلام الحبر رضى الله عنه:

---

(١) مسند الإمام أحمد . جزء أول ص ٤١٦ (طبعة الحلبىّ) ورقم ٣٩٥١ (طبعة المعارف) بتحقيق شيخنا أحمد محمد شاكر .

(٢) مسند الإمام أحمد . جزء خامس ص ٤١١ (طبعة الحلبىّ) .

عن إبراهيم بن أبي يحيى ، قال : حدثنا معاذ بن عبد الرحمن عن يوسف بن عبد الله بن سلام عن أبيه : جاء إلى النبيّ ﷺ فقال : إنى قرأت القرآن والتوراة ، فقال : اقرأ هذا ليلة وهذا ليلة . قال الذهبيّ : فهذا ـ إن صح ـ ففيه الرخصة فى تكرير التوراة وتدبرها . انتهى .

أى ليعلم المحرف فيها من سياق القرآن الكريم ، وليتبصر فيما تقوم به الحجة على حَمَلَة أسفارها ، وليزداد معرفة بمجادلتهم من معتقدهم ، ولغير ذلك .

قال الحافظ ابن كثير فى مقدمة تفسيره : غالب ما يرويه إسماعيل بن عبد الرحمن السدّى الكبير، فى تفسيره، عن هذين الرجلين ابن مسعود وابن عباس . ولكن فى بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب التى أباحها رسول الله ﷺ حيث قال: «بلغوا عنى ولو آية ، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار »[1] . رواه البخاريّ عن عبد الله بن عمرو .

ولهذا كان عبد الله بن عمرو، رضى الله عنهما ، قد أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب ، فكان يحدث منهما بما فهمه من هذا الحديث من الإذن فى ذلك ، ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد ، لا للاعتقاد . فإنها على ثلاثة أقسام :

أحدها : ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق ، فذاك صحيح .

والثانى : ما علمنا كذبه مما عندنا مما يخالفه .

والثالث : ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل ، فلا نؤمن به ولا نكذبه ، ويجوز حكايته لما تقدم. وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر دينىّ. انتهى.

فحيث جازت حكايته ، على ما قاله ، فالأولى رواية ما كان من القسم الأول أو الثالث عن نص كتبهم ، كما هو مذهب عبد الله بن عمرو، رضى الله عنهما، كما نقله ابن كثير هنا ، والذهبىّ والسيوطىّ كما تقدم .

وإنما كان الأولى ، فى رواية الإسرائيليات ، ما ذكرنا دفعاً لمناقشة بعضهم على الإسرائيليات المتداولة فى التفاسير بأنها لم ترو فى كتب الحديث المشهورة حتى تكون المرجع ،

---

(١) انظر الحاشية ص ٤١ .

ولم تؤخذ من أسفارهم حتى تتطابق معها ، فارتأى النقل عنها لذلك ، لا اعتقاداً بسلامتها من التحريف المحقق ، كلا . بل توسعاً فى باب الأخبار للاستشهاد والاعتبار . قياماً بالحجة على الخصم من معتقده ، وناهيك بذلك .

قال ابن حزم فى كتاب الملل والنحل ، بعد ما أوضح البراهين العديدة على تحريفهم وتبديلهم : إن الله تعالى كما أطلق أيديهم فى تبديل ما شاء رفعه من ذينك الكتابين ، كفّ أيديهم عما شاء إبقاءه من ذينك الكتابين ، حجة عليهم .

وممن كان يرى جواز النقل عن كتبهم ، من قدماء الشافعية ، الإمام الماوردىّ . كما تراه فى مواضع من كتابه « أعلام النبوة » .

وممن حقق هـــذا البحث الإمام برهان الدين البقاعىّ ، ثم الدمشقىّ ، فى تفسيره «المناسبات» الذى قال عنه شيخ الإسلام القاضى زكريا : « ما ألف نظيره وجدير بأن يكتب بماء الذهب » كما حكاه عنه تلميذه الإمام الهيتمىّ فى آخر فتاويه الحديثية . وهاك ما قاله البقاعىّ ، رحمه الله ، فى تفسير قوله تعالى : « وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ[1] » ، مانصه : فإن أنكر منكر الاستشهاد بالتوراة أو بالإنجيل ، وعمى عن أن الأحسن فى باب النظر أن يرد على الإنسان بما يعتقده ، تلوت عليه قول الله تعالى استشهاداً على كذب اليهود « قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »[2] ، وقوله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً »[3] فى آيات من أمثال ذلك كثيرة.

---

(١) [٢ / البقرة / ٣٤] ونصها : وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ .

(٢) [٣ / آل عمران / ٩٣] ونصها : كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ، قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

(٣) [٥ / المائدة / ٤٨] ونصها : وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ، فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ ...

وذكرته باستشهاد النبيّ ﷺ بالتوراة فى قصة الزانى[1] . وروى[2] الشيخان عن أبى سعيد رضى الله عنه أن النبيّ ﷺ قال : تكون الأرض يوم القيامة خبزة نزلًا لأهل الجنة . فأتى رجل من اليهود فقال : بارك الرحمن عليك يا أبا القاسم ، ألا أخبرك بنزل أهل الجنة يوم القيامة ؟ قال : بلى . قال : تكون الأرض خبزة . كما قال النبيّ ﷺ ، فنظر النبيّ ﷺ إلينا ثم ضحك حتى بدت نواجذه .

وقريب من ذلك حديث الجساسة[3] فى أشباهه .

---

(١) صحيح البخاريّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣ ـ سورة آل عمران ، ٦ ـ باب قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ؛ أن اليهود جاءوا إلى النبيّ ﷺ برجل منهم وامرأة قد زنيا . فقال لهم : كيف تفعلون بمن زنى منكم ؟ قالوا : نحممهما ونضربهما . فقال : لا تجدون فى التوراة الرجم ؟ فقالوا : لا نجد فيها شيئا . فقال لهم عبد الله بن سلام : كذبتم فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين . فوضع مدراسها الذى يدرّسها منهم كفه على آية الرجم . فطفق يقرأ مادون يده وما وراءها . ولا يقرأ آية الرجم. فنزع يده عن آية الرجم ، فقال : ماهذه ؟ فلما رأوا ذلك قالوا: هى آية الرجم . فأمر بهما فرُجما قريباً من حيث موضع الجنائز عند المسجد . فرأيت صاحبها يجنأ عليها يقيها الحجارة .

(٢) صحيح البخاريّ فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ٤٤ ـ باب يقبض الله الأرض :

عن أبى سعيد الخدريّ : قال النبيّ ﷺ : تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يكفأ أحدكم خبزته فى السفر نزلًا لأهل الجنة . فأتى رجل من اليهود فقال : بارك الرحمن عليك يا أبا القاسم . الا أخبرك بنزل أهل الجنة يوم القيامة ؟ قال: بلى. قال : تكون الأرض خبزة واحدة (كما قال النبيّ ﷺ) فنظر النبيّ ﷺ إلينا ثم ضحك حتى بدت نواجذه ، ثم قال : ألا أخبرك بإدامهم ؟ قال : إدامهم بالام ونون . قالوا : وما هذا ؟ قال : ثور ونون ، يأكل من زائدة كبدها سبعون ألفا .

(٣) قصة الجساسة أوردها الإمام مسلم فى صحيحه فى: ٥٢ ـ كتاب الفتن وأشراط =

هذا فيما يصدقه كتابنا ، وأما مالا يصدقه ولا يكذبه ، فقد روى البخاريّ عن عبد الله ابن عمرو، رضى الله عنهما، أن النبيّ ﷺ قال : حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ، ورواه مسلم والترمذىّ والنسائىّ عن أبى سعيد رضى الله عنه ، وهو معنى ما فى الصحيحين ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا: آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم . الآية[1]. فإن دلالة هذا على سنّية ذكر مثل ذلك أقرب من الدلالة على غيرها . ولذا أخذ كثير من الصحابة رضى الله عنهم عن أهل الكتاب.

فإن فهم أحد من الشافعية منع أئمتهم من قراءة شىء من الكتب القديمة مستنداً إلى قول الإمام أبى القاسم الرافعىّ فى شرحه : وكتب التوراة والإنجيل مما لا يحل الانتفاع به لأنهم بدلوا وغيروا وكذا قال غيره من الأصحاب. قيل له: هذا مخصوص بما علم تبديله. بدليل أن كل من قال ذلك علل بالتبديل . فدار الحكم معه .

ونص الشافعىّ ظاهر فى ذلك . قال المزنىّ عنه فى مختصره ، فى باب جامع السير : وما كان من كتبهم – أى الكفار – فيه طب وما لا مكروه فيه ، بيع . وما كان فيه شرك بطل وانتفع بأوعيته .

وقال فى الأم فى سير الواقدىّ فى باب ترجمة كتب الأعاجم ، قال الشافعىّ : وما وجد من كتبهم فهو مغنم كله ، وينبغى للإمام أن يدعو من يترجمه، فإن كان علماً من طب أو غيره لا مكروه فيه، باعه كما يبيع ماسواه من المغانم . وإن كان كتاب شرك شقّوا الكتاب فانتفعوا بأوعيته وأداته فباعها ، ولا وجه لتحريقه ولا دفنه قبل أن يعلم ما هو . انتهى .

فقوله فى الأم: « كتاب شرك » مفهم لأنه كله شرك ، ولهذا عبر المزنىّ عن ذلك بقوله: وما كان فيه شرك ، أى من أبواب الكتاب وفصوله .

= الساعة ، ٢٤ – قصة الجساسة ، حديث ١١٩ ص ٢٢٦١ (طبعة دار الإحياء) وهو حديث طويل روته فاطمة بنت قيس ، أخت الضحاك بن قيس ، عن رسول الله ﷺ .

(١) انظر الحاشية ص ٣٠ .

وأدل من ذلك قولهم فى باب الأحداث : أن حكمها فى مس المحدث حكم ما نسخت تلاوته من القرآن فى أصح الوجهين : والتعبير « بالأصح » على ما اصطلحوا عليه، يدل على أن الوجه القائل بحرمة مس المحدث وحمله لها قوىّ .

وأدل من ذلك ما ذكره محرر المذهب ، الشيخ محيي الدين النووىّ رحمه الله فى مسائل ألحقها فى آخر باب الأحداث من شرح المهذّب وأقره؛ أن المتولى قال : فإن ظن أن فيها شيئاً غير مبدل ، كره مسه . انتهى.

فكراهة المس للاحترام فرع جواز الإبقاء والانتفاع بالقراءة .

وأصرح من ذلك كله قول الشافعىّ رحمه الله : أن ما لا مكروه فيه يباع . وكذا قول البغوىّ فى تهذيبه فى آخر باب الوضوء : وكذلك لو تكلم ـ أى الجنب ـ بكلمة توافق نظم القرآن أو قرأ آية نسخت قراءتها أوقرأ التوراة والإنجيل أو ذكر الله سبحانه أو صلى على النبى ﷺ ، فجائز .

قالت عائشة رضى الله عنها : كان النبىّ ﷺ يذكر الله على كل أحيانه[1].

فإنه لا يتخيل أنه يجوز للجنب مالا يجوز للمحدث ، بل كل ما جاز للجنب قراءته من غير أمر ملجئ جاز للمحدث، ولا عكس .

وتعليله لذلك بحديث عائشة رضى الله عنها دالّ على أن ذلك ذكر لله تعالى . ولا يجوز الحمل على العموم، لا سيما إذا لوحظ قول القاضى الحسين: أنه يجوز الاستنجاء بها. لأنه مبنىّ على الوجه القائل بأن الكل مبدل . وهو ضعيف أو محمول على المبدل منهما . لأنه لا يخفى على أحد أن مسلماً ، فضلا عن عالم ، لا يقول أنه يستنجى بنحو قوله فى العشر الكلمات التى صدرت بها الألواح: قال الله جميع هذه الآيات كلها . أنا الرب إلهك الذى أصعدتك من أرض مصر من العبودية والرق لا يكونن لك آلهة غيرى. لا تعملنّ شيئا من الأصنام والتماثيل التى مما فى السماء فوق ، وفى الأرض من تحت ، ومما فى الماء أسفل الأرض . لا تسجدن لها ولا

---

(١) صحيح البخارىّ فى : ١٠ ـ كتاب الأذان ، ١٩ ـ باب هل يتتبع المؤذن فاه ههنا وههنا ؟ وقالت عائشة : كان النبىّ ﷺ يذكر الله على كل أحيانه .

تعبدنها . لأنى أنا الرب إلهك إله غيور. لا تقسم بالرب إلهك كذباً. لأن الرب لا يزكى من حلف باسمه كذباً . أكرم أباك وأمك ليطول عمرك فى الأرض التى يعطيكها الرب إلهك . لا تقتل ، لا تزن ، لا تسرق ، لا تشهد على صاحبك شهادة زور .

وقد أشبع الكلام فى المسألة شيخنا حافظ عصره أبو الفضل ابن حجر فى آخر شرحه للبخارىّ . وآخر ما حط عليه ، التفرقة بين من رسخ قدمه فى العلوم الشرعية ، فيجوز له النظر فى ذلك ، فإنه يستخرج منه ما ينتفع به المهتدون. وبين غيره فلا يجوز له ذلك. وأيده بنظر الأئمة فيها قديما وحديثاً ، والرد على أهل الكتابين بما يستخرجونه منها . فلولا جواز ذلك ما أقدموا عليه . والله الموفق .

وقد حررت هذه المسألة فى فن المرفوع من حاشيتى على شرح ألفية الشيخ زين الدين العراقىّ . فراجعه إن شئت . والله الهادى .

ثم صنفت فى ذلك تصنيفا حسنا سميته ، الأقوال القويمة فى حكم النقل من الكتب القديمة، اهـ كلام البقاعىّ الدمشقىّ رحمه الله تعالى .

وأما مسألة تحريف الكتابين، أعنى التوراة والإنجيل ، فقد نقل البخارىّ فى أواخر صحيحه فى باب قول الله تعالى « بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ » عن ابن عباس : يحرفون يزيلون ، وليس أحد يزيل لفظ كتاب من كتب الله عز وجل ، ولكن يحرفونه يتأولونه عن غير تأويله اهـ .

قال أبو الفضل ابن حجر فى شرحه : قال شيخنا ابن الملقن فى شرحه : هذا الذى قاله أحد القولين فى تفسير هذه الآية ، وهو مختاره . أى البخارىّ .

ثم قال ابن حجر : اختلف فى هذه المسألة على أقوال :

أحدها : أنها بدلت كلها . وهو مقتضى القول المحكىّ بجواز الامتهان ، وهو إفراط . وينبغى حمل إطلاق من أطلقه على الأكثر ، وإلا فهى مكابرة . والآيات والأخبار كثيرة فى أنه بقى منها أشياء كثيرة لم تبدل . من ذلك قوله تعالى: « الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِىَّ

الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ »[١] الآية - ومن ذلك قصة رجم اليهوديين وفيه وجود آية الرجم[٢] . ويؤيده قوله تعالى : « قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »[٣].

ثانيها : أن التبديل وقع ولكن فى معظمها . وأدلته كثيرة . وينبغى حمل الأول عليه.

ثالثها : وقع فى اليسير منها . ومعظمها باق على حاله . ونصره الشيخ تقىّ الدين بن تيمية فى كتابه « الرد الصحيح على من بدل دين المسيح » .

رابعها : إنما وقع التبديل والتغيير فى المعانى لا فى الألفاظ وهو المذكور هنا اه .

وبالجملة فكتب الكتابيين ، كأقوالهم ، لا يعتمد عليها كلها . لظهور الكذب والتناقض فيها إلى اليوم . ولظهور تلفيقها . فهى ككتب القصص عندنا . فيها شىء من القرآن والسنة ، ولكنه ممزوج بالأكاذيب والآراء المقتبسة من الأمم . ثم إن موافقة القرآن الكريم أو الحديث الصحيح لبعض ما فى كتبهم دون بعض ، يدل على أن الله تعالى بيّن له حق كلامهم من باطله ، وصدقه من كذبه . وهذا معنى قوله تعالى : « وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ »[٤].

قال بعضهم: لاشىء يعول عليه فى صحة بعض أقوال كتب اليهود دون بعض، بعدما طرأ عليها من الضياع والتحريف والخلط. إلا الوحى. وقد ثبتت نبوة محمد ﷺ بالدلائل الساطعة والآثار النافعة. انتهى . أى فعلى وحيه المعوّل فالحمد لله الذى وفقنا لاتباعه .

---

(١) [٧ / الأعراف / ١٥٧] ونصها : الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

(٢) انظر الحاشية رقم ١ ص ٤٦ .

(٣) انظر الحاشية رقم ٢ ص ٤٥ .

(٤) انظر الحاشية رقم ٣ ص ٤٥ .

فصل في معنى ما نقل أن للقرآن ظاهرا وباطنا

قال الشاطبيّ في الموافقات : من الناس من زعم أن للقرآن ظاهرا وباطنا ، وربما نقلوا في ذلك بعض الأحاديث والآثار . فمن الحسن ، مما أرسله عن النبيّ ﷺ ، أنه قال: ما أنزل الله آية إلا لها ظهر وبطن ، بمعنى ظاهر وباطن، وكل حرف حد وكل حد مطلع . وفسر بأن الظهر والظاهر هوظاهر التلاوة، والباطن هو الفهم عن الله لمراده ؛ لأن الله تعالى قال: « فَمَالِ هٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً »[1] . والمعنى لا يفهمون عن الله مراده من الخطاب ، ولم يرد أنهم لايفهمون نفس الكلام. كيف وهو منزل بلسانهم؟ ولكن لم يحظوا بفهم مراد الله من الكلام ، وكان هذا هو معنى ماروى عن عليّ أنه سُئل هل عندكم كتاب؟ فقال: لا، إلا كتاب الله ، أو فهم أعطيه رجل مسلم ، أو مافي هذه الصحيفة[2] . الحديث.

(١) [٤ / النساء / ٧٨] ونصها : أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ، قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، فَمَالِ هٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً .

(٢) صحيح البخاريّ في: ٩٦ ـ كتاب الاعتصام، ٥ ـ باب مايكره من التعمق والتنازع في العلم والغلوّ في الدين والبدع .

عن إبراهيم التيميّ قال: حدثني أبي قال : خطبنا عليّ رضي الله عنه على منبر من آجرّ، وعليه سيف ، فيه صحيفة معلقة . فقال : والله، ماعندنا من كتاب يقرأ إلا كتاب الله. ومافي هذه الصحيفة . فنشرها فإذا فيها : أسنان الإبل . وإذا فيها: المدينة حرم من عَيْر إلى كذا (وكذا يعني ثورا . كما جاء في روايات أخرى متعددة) فمن أحدث فيها حدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لايقبل الله منه صرفا ولاعدلا . وإذا فيه (كذا): ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم. فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. لايقبل الله منه صرفا ولاعدلا. وإذا فيها : مَن والى قوماً بغير إذن مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا .

وإليه يرجع تفسير الحسن للحديث إذ قال : الظهر هو الظاهر والباطن هو السر .

وقال تعالى : « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا »(١) . فظاهر المعنى شيء، وهم عارفون به لأنهم عرب . والمراد شيء آخر ، وهو الذى لاشك فيه أنه من عند الله . وإذا حصل التدبر لم يوجد فى القرآن اختلاف البتة. فهذا الوجه الذى من جهته يفهم الاتفاق، وينزاح الاختلاف هوالباطن المشار إليه . ولما قالوا فى الحسنة : هذا من عند الله ، وفى السيئة : هذا من عند رسول الله ، بيّن لهم أن كلا من عند الله ، وأنهم لايفقهون حديثاً، لكن بين الوجه الذى يتنزل عليه أن كلا من عندالله بقوله: « مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ . . . »(٢) الآية . وقال تعالى : « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا »(٣) فالتدبر إنما يكون لمن التفت إلى المقاصد. وذلك ظاهر أنهم أعرضوا عن مقاصد القرآن فلم يحصل منهم تدبر .

قال بعضهم : الكلام فى القرآن على ضربين : أحدها يكون برواية ، فليس يعتبر فيها إلا النقل . والآخر يقع بفهم فليس يكون إلا بلسان من الحق إظهار حكمة عن لسان العبد ، وهذا الكلام يشير إلى معنى كلام علىّ .

وحاصل هذا الكلام أن المراد بالظاهر هو المفهوم العربىّ ، والباطن هو مراد الله تعالى من كلامه وخطابه . فإن كان مراد من أطلق هذه العبارة ما فسر ، فصحيح . ولا نزاع فيه . وإن أرادوا غير ذلك فهو إثبات أمر زائد على ما كان معلوماً عند الصحابة ومن بعدهم ، فلابد من دليل قطعىّ يثبت هذه الدعوى . لأنها أصل يحكم به على تفسير الكتاب ،

(١) [٤ / النساء / ٨٢] ونصها : أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا .

(٢) [٤ / النساء / ٧٩] ونصها : مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ ، وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ، وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا، وَكَفَىٰ بِاللهِ شَهِيدًا .

(٣) [٤٧ / محمد عليه السلام / ٢٤] ونصها: أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا .

فلا يكون ظنيا . وما استدل به إنما غايته ، إذا صح سنده ، أن ينتظم في سلك المراسيل .
وإذا تقرر هذا فليرجع إلى بيانهما على التفسير المذكور بحول الله . وله أمثلة تبين معناه بإطلاق . فمن ابن عباس[١] : كان عمر يدخلني مع أصحاب النبي ﷺ . فقال له عبد الرحمن ابن عوف : أتدخله ولنا بنون مثله ؟ فقال له عمر : إنه من حيث تعلم . فسألني عن هذه الآية: « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ » فقلت: إنما هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه إياه . وقرأ السورة إلى آخرها . فقال عمر : والله ما أعلم منها إلا ما تعلم .

فظاهر هذه السورة أن الله أمر نبيه ﷺ أن يسبح بحمد الله ويستغفره إذ نصره الله وفتح عليه . وباطنها أن الله نعى إليه نفسه .

ولما نزل قوله تعالى: « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ . . . »[٢] فرح الصحابة ، وبكى عمر وقال : ما بعد الكمال إلا النقصان . مستشعراً نعيه عليه السلام . فما عاش بعدها إلا أحدا وثمانين يوماً . وقال تعالى : « مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ . . . »[٣] الآية . قال الكفار : ما بال العنكبوت والذباب يذكر في القرآن .

---

(١) انظر الحاشية رقم ٢ ص ١٥ .

(٢) [٥ / المائدة / ٣] ونصها : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ، ذَلِكُمْ فِسْقٌ ، الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ، الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ، فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٣) [٢٩ / العنكبوت / ٤١] ونصها : مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ ، اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

ماهذا الكلام لإلٍّ فنزل « إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا »[1] فأخذوا بمجرد الظاهر ، ولم ينظروا في المراد . فقال تعالى : « فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ . . . » الآية .

ويشبه مانحن فيه نظر الكفار للدنيا واعتدادهم منها بمجرد الظاهر الذي هو لهو ولعب، وظل زائل . وترك ما هو المقصود منها ؛ وهو كونها مجازًا ومعبرًا لا محل سكنى . وهذا هو باطنها على ما تقدم من التفسير .

ولما قال تعالى: « عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ »[2] نظر الكفار إلى ظاهر العدد . فقال أبوجهل، فيما روى: لايعجز كل عشر منكم أن يبطشوا برجل منهم . فبيّن الله تعالى باطن الأمر بقوله : « وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً . . . »[3] ، إلى قوله : « وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَٰذَا مَثَلًا » .

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٦] ونصها : إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ، فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَٰذَا مَثَلًا . يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ، وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ .

(٢) [٧٤ / المدثر / ٢٧ــ٣٠] ونصها: وَمَا أَدْرَاكَ مَاسَقَرُ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ .

(٣) [٧٤ / المدثر / ٣١] ونصها : وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ، كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ، وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ .

وقال: « يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ »[١] فنظروا إلى ظاهر الحياة الدنيا . وقال تعالى : « وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ . . . » .

وقال تعالى : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ . . . »[٢] الآية . لما نزل القرآن ، الذى هو الهدى للناس ورحمة للمحسنين ناظره الكافر النضر بن الحرث بأخبار فارس والجاهلية ، أو بالغناء ، فهذا هو عدم الاعتبار لباطن ما أنزل الله .

وقال تعالى فى المنافقين : « لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ . . . »[٣] وهذا عدم فقه منهم. لأن من علم أن الله هو الذى بيده ملكوت كل شيء ، وأنه هو مصرف الأمور ، فهو الفقيه . ولذلك قال تعالى : « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ».

وكذلك قوله تعالى : « صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ »[٤] لأنهم نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا .

فاعلمْ أن الله تعالى إذا نفى الفقه أو العلم عن قوم فذلك لوقوفهم مع ظاهر الأمر وعدم اعتبارهم للمراد منه . وإذا ثبت ذلك فهو لفهمهم مراد الله من خطابه ، وهو باطنه .

---

(١) [٦٣ / المنافقون / ٨] ونصها : يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ، وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ .

(٢) [٣١ / لقمان / ٦] ونصها : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ .

(٣) [٥٩ / الحشر / ١٣] ونصها: لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ .

(٤) [٩ / التوبة / ١٢٧] ونصها : وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا ، صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ .

ثم قال الشاطبى :

فصل

فكل ما كان من المعانى العربيـة التى لا ينبنى فهم القرآن إلا عليها فهو داخل تحت الظاهر . فالمسائل البيانية ، والمنازع البلاغية لا معدل بها عن ظاهر القرآن ، فإذا فهم الفرق بين ضيـِّق فى قوله تعـالى: « يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا . . . »(١) وبين ضائق فى قوله : « وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ . . . »(٢) والفرق بين النداء : « بيا أيها الذين آمنوا، ويا أيها الذين كفروا » وبين النداء « بيا أيها الناس، أو بيا بنى آدم » والفرق بين ترك العطف فى قوله : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ . . . »(٣) والعطف فى قوله : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ . . . »(٤) وكلاهما قد تقـدم عليه وصف المؤمنين . والفرق بين تركه أيضاً فى قوله : « مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا . . . »(٥) وبين الآية الأخرى :

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٢٥] ونصها: فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَاءِ ، كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ .

(٢) [١١ / هود / ١٢] ونصها: فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ، إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ .

(٣) [٢ / البقرة / ٦] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

(٤) [٣١ / لقمان / ٦] ونصها : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ .

(٥) [٢٦ / الشعراء / ١٥٤] ونصها: مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ .

« وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا »(١) . والفرق بين الرفع فى قوله : « قَالَ سَلَامٌ »(٢) والنصب فيما قبله من قوله : « قَالُوا سَلَامًا »(٢) . والفرق بين الإتيان بالفعل فى التذكر من قوله : « إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا »(٣) وبين الإتيان باسم الفاعل فى الإبصار من قوله : « فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ... » أو فهم الفرق بين إذا وإن فى قوله تعالى: « فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ . . . »(٤) وبين جاءتهم وتصبهم بالماضى مع إذا ، والمستقبل مع إن وكذلك قوله : « وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ »(٥) مع إتيانه بقوله: « فرحوا » بعد « إذا » و « يقنطون » بعد « إن » وأشباه ذلك من الأمور المعتبرة عند متأخرى أهل البيان ، فإذا حصل فهم ذلك كله على ترتيبه فى اللسان العربىّ ، فقد حصل فهم ظاهر القرآن .

ومن هنا حصل إعجاز القرآن عند القائلين بأن إعجازه بالفصاحة . فقال الله تعالى :

---

(١) [٢٦ / الشعراء / ١٨٦] ونصها : وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ .

(٢) [١١ / هود / ٦٩] ونصها : وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا ، قَالَ سَلَامٌ ، فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ .

(٣) [٧ / الأعراف / ٢٠١] ونصها: إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ .

(٤) [٧ / الأعراف / ١٣١] ونصها : فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ، أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

(٥) [١٠ / يونس/ ٢١] ونصها: وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي ءَايَاتِنَا ، قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ، إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ .

« وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ . . . »(١) الآية . وقال تعالى : « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ »(٢) وهو لائق أن يكون الإعجاز بالفصاحة لا بغيرها . إذ لم يؤتوا على هذا التقدير إلا من باب ما يستطيعون مثله فى الجملة . ولأنهم دعوا وقلوبهم لاهية عن معناه الباطن الذى هو مراد الله من إنزاله . فإذا عرفوا عجزهم عنه عرفوا صدق الآتى به وحصل الإذعان ، وهو باب التوفيق والفهم لمراد الله تعالى . وكل ما كان من المعانى التى تقتضى تحقيق المخاطب بوصف العبودية والإقرار لله بالربوبية ، فذلك هو الباطن المراد والمقصود الذى أنزل القرآن لأجله . ويتبين ذلك بالشواهد المذكورة آنفا .

ومن ذلك أنه لما نزل : « مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً . . »(٣). قال أبو الدحداح: إن الله كريم استقرض منا ماأعطانا. هذا معنى الحديث. وقالت اليهود : إن الله فقير ونحن أغنياء . ففهمُ أبو الدحداح هو الفقه وهو الباطن المراد . وفى رواية قال أبو الدحداح : يستقرضنا وهو غنىّ . فقال عليه السلام: نعم ليدخلكم الجنة . وفى الحديث قصة(٤) .

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٣] ونصها : وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

(٢) [١١ / هود / ١٣] ونصها : أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

(٣) [٥٧ / الحديد / ١١]ونصها: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ .

(٤) وهذه قصة أبى الدحداح ذكرها الإمام الحافظ ابن كثير فى تفسيره. جزء رابع ص ٣٠٧ ونصها :

قال ابن أبى حاتم : حدثنا الحسن بن عرفة . حدثنا خلف بن خليفة عن حميد الأعرج عن عبد الله بن الحارث عن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية (من ذا الذى =

وفهمُ اليهود لم يزد على مجرد القول العربىّ الظاهر ، ثم حمل استقراض الرب الغنىّ على استقراض العبد الفقير ، عافانا الله من ذلك .

من ذلك أن العبادات المأمور بها ، بل المأمورات والمنهيات كلها ، إنما طلب بها العبد شكرا لما أنعم الله به عليه . الا ترى قوله : « وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »(١) وفى الأخرى : « قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ »(٢) والشكر ضد الكفر، فالايمان وفروعه هو الشكر، فإذا دخل المكلف تحت أعباء التكليف بهذا القصد ، فهو الذى فهم المراد من الخطاب ، وحصل باطنه على التمام ، وإن هو فهم من ذلك مقتضى عصمة ماله ودمه فقط. فهذا خارج عن المقصود وواقف مع ظاهر الخطاب. فإن الله قال: « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ واحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ . »(٣) ثم قال : « فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ... »(٣) فالمنافق

= يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له) قال أبو الدحداح الأنصارىّ : يا رسول الله ، وإن الله ليريد منا القرض؟ قال: نعم ، يا أبا الدحداح . قال: أرنى يدك يارسول الله ، قال فناوله يده . قال: فإنى قد أقرضت ربى حائطى. وله حائط فيه ستمائة نخلة ، وأم الدحداح فيه وعيالها. قال فجاء أبو الدحداح فناداها : يا أم الدحداح! قالت : لبيك . قال : اخرجى فقد أقرضته ربى عز وجل . وفى رواية أنها قالت له : ربح بيعك يا أبا الدحداح . ونقلت منه متاعها وصبيانها .
وإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « كم من عذق رداح، فى الجنة لأبى الدحداح» وفى لفظ « رب نخلة مدلاة ، عروقها در وياقوت ، لأبى الدحداح فى الجنة » .

(١) [١٦ / النحل / ٧٨] ونصها: وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

(٢) [٣٢ / السجدة / ٩] ونصها : ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ، قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ .

(٣) [٩ / التوبة / ٥] ونصها : فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ، فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

إنمافهم مجرد ظاهر الأمر من أن الدخول فيما دخل فيه المسلمون موجب لتخلية سبيلهم. فعملوا على الإحراز من عوادى الدنيا، وتركوا المقصود من ذلك، وهو الذى بينه القرآن من التعبد لله والوقوف على قدم الخدمة. فإذا كانت الصلاة تشعر بإلزام الشكر، بالخضوع لله والتعظيم لأمره فمن دخلها عريّامن ذلك كيف يعد ممن فهم باطن القرآن؟ وكذلك إذا كان له مال حال عليه الحول فوجب عليه شكر النعمة ببذل اليسير من الكثير عوداً عليه بالمزيد، فوهبه عند رأس الحول فرارا من أدائها لا قصد له إلا ذلك، كيف يكون شاكرا للنعمة؟ وكذلك من يضارّ الزوجة لتنفك له من المهر على غير طيب النفس لا يعدّ عاملا بقوله تعالى: « فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ... »[1] حتى يجرى على معنى قوله تعالى: « فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا »[2].

ويجرى هنا مسائل الحيل أمثلة لهذا المعنى. لأن من فهم باطن ماخوطب به لم يحتل على أحكام الله حتى ينال منها بالتبديل والتغيير، ومن وقف مع مجرد الظاهر غير ملتفت إلى المعنى المقصود اقتحم هذه المتاهات البعيدة. وكذلك تجرى مسائل المبتدعة أمثلة أيضا. وهم الذين يتبعون ما تشابه من الكتاب ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله. كما قال الخوارج لعلىّ: إنه حكّم الخلق فى دين الله والله يقول: « إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ »[3]. وقالوا: إنه محا نفسه من إمارة المؤمنين

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٢٩] ونصها: الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ، وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ، تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ.

(٢) [٤ / النساء / ٤] ونصها: وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً، فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا.

(٣) [٦ / الأنعام / ٥٧] ونصها: قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ، مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ، إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ، يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ.
و [١٢ / يوسف / ٤٠] ونصها: مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا =

فهو إذاً أمير الكافرين. وقالوا لابن عباس: لاتناظروه فإنه ممن قال الله فيهم: « بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ »[1]. وكما زعم أهل التشبيه فى صفة البارى، حين أخذوا بظاهر قوله: « تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا »[2] « مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا »[3] «وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ»[4] «وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »[5]. وحكموا مقتضاه بالقياس على المخلوقين فأسرفوا ماشاءوا. فلو نظر الخوارج أن الله تعالى قد حكم الخلق فى دينه فى قوله: « يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ »[6].

أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ، أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ، ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ.

و [١٢ / يوسف / ٦٧] ونصها: وَقَالَ يَا بَنِىَّ لَاتَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ، وَمَا أُغْنِى عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَىْءٍ، إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ.

(١) [٤٣ / الزخرف / ٥٨] ونصها: وَقَالُوا ءَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ، مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا، بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ.

(٢) [٥٤/ القمر / ١٣ و ١٤] ونصهما: وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ.

(٣) [٣٦ / يس / ٧١] ونصها: أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ.

(٤) [٤٢ / الشورى / ١١] ونصها: فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا، يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ.

(٥) [٣٩ / الزمر / ٦٧] ونصها: وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ.

(٦) [٥ / المائدة / ٩٥] ونصها: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ، وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَاقَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ =

وقوله: « فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا »(١). لعلموا أن قوله: إن الحكم إلا لله، غير مناف لما فعله علىّ، وأنه من جملة حكم الله. فإن تحكيم الرجال يرجع به الحكم لله وحده، فكذلك ما كان مثله مما فعله علىّ. ولو نظروا إلى أن محو الاسم من أمر لا يقتضى إثباته لضده، لما قالوا إنه أمير الكافرين. وهكذا المشبهة لو حققت معنى قوله: « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ » فى الآيات المذكورة، لفهموا بواطنها، وإن الرب منزه عن سمات المخلوقين. وعلى الجملة فكل من زاغ ومال عن الصراط المستقيم، فبمقدار ما فاته من باطن القرآن فهما وعلماً. وكل من أصاب الحق وصادف الصواب فعلى مقدار ما حصل له من فهم باطنه.

مِنْكُمْ هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَاماً لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ، عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ، وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ، وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ.

(١) [٤ / النساء / ٣٥] ونصها: وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيرًا.

٨ — قاعدة فى أنه كل معنى مستنبط من القرآن غير جار على اللسان العربى فليس من علوم القرآن فى شىء

قال الشاطبىّ : كون الظاهر هو المفهوم العربىّ مجرداً، لا إشكال فيه. لأن المؤالف والمخالف اتفقوا على أنه منزل بلسان عربىّ مبين. وقال سبحانه: «وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ » ثم رد الحكاية عليهم بقوله : « لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُبِينٌ »[1] . وهذا الرد على شرط الجواب فى الجدل . لأنه أجابهم بما يعرفون من القرآن الذى هو بلسانهم . والبشر ، هنا ، حَبْر. وكان نصرانيا. فأسلم . أو سلمان، وقد كان فارسيا فأسلم . أو غيرهما ممن كان لسانه غير عربىّ باتفاق منهم . وقال تعالى : « وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ ءَأَعْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ »[2] . وقد علم أنهم لم يقولوا شيئا من ذلك. فدل على أنه عندهم عربىّ . وإذا ثبت هذا فقد كانوا فهموا معنى ألفاظه من حيث هو عربىّ فقط ، وإن لم يتفقوا على فهم المراد منه . فلا يشترط فى ظاهره زيادة على الجريان على اللسان العربىّ. فإذاً كل معنى مستنبط من القرآن ، غير جار على اللسان العربىّ، فليس من علوم القرآن فى شئ . لا مما يستفاد منه ولا مما يستفاد به . ومن ادعى فيه ذلك فهو فى دعواه مبطل .

ومن أمثلة هذا الفصل ما ادعاه من لا خلاق له من أنه مسمًّى فى القرآن. كبيان بن سمعان حيث زعم أنه المراد بقوله تعالى : «هذا بَيَانٌ لِلنَّاسِ .. »[3] الآية وهو من الترهات بمكان

---

(١) [١٦ / النحل / ١٠٣] ونصها: وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُبِينٌ .

(٢) [٤١ / فصلت / ٤٤] وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ ، ءَأَعْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ، قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِى ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ .

(٣) [٣ / آل عمران / ١٣٨] ونصها : هَـٰذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ .

مكين ، والسكوت على الجهل كان أولى به من هذا الافتراء البارد . ولو جرى له على اللسان العربى لمده الحمق من جملتهم ، ولـكنه كشف عوار نفسه من كل وجه ، عافانا الله ، وحفظ علينا العقل والدين بمنه . وإذا كان (بيانٌ) فى الآية علما له فأى معنى لقوله : «هذا بَيَانٌ لِلنَّاسِ» كما يقال هذا زيد للناس. ومثله فى الفحش من تسمى بالـكِسْف ثم زعم أنه المراد بقوله تعالى «وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً »(1). الآية . فأى معنى يكون للآية على زعمه الفاسد كما تقول : وإن يروا رجلا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم. تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا . وبيان بن سمعان : هذا هو الذى تنسب إليه البيانية من الفرق . وهو، فيما زعم ابن قتيبة، أول من قال بخلق القرآن. والـكسف هو أبو منصور الذى تنسب إليه المنصورية.

وحكى بعض العلماء أن عبيدالله الشيعى المسمى بالمهدى حين ملك أفريقية واستولى عليها، كان له صاحبان من كتامة ينتصر بهما على أمره. وكان أحدهما يسمى بنصر الله، والآخر بالفتح، وكان يقول لهما : أنتما اللذان ذكركما الله فى كتابه . فقال : «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ»(2) قالوا : وقد كان عمل ذلك فى آيات من كتاب الله تعالى ، فبدل قوله : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » . بقوله : كتامة خير أمة أخرجت للناس .

ومن كان فى عقله لا يقول مثل هذا لأن المتسميَيْن بنصر الله والفتح المذكوريْن إنما وجدا بعد مائتين من السنين من وفاة رسول الله ﷺ ، فيصير المعنى إذا مت يا محمد، ثم خلق هذان، « وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً فَسَبِّحْ . . » الآية. فأىّ تناقض وراء هذا الإفك الذى افتراه الشيعى . قاتله الله .

ومن أرباب الـكلام من ادعى جواز نـكاح الرجل منا تسع نسوة حرائر . مستدلا على

---

(1) [٥٢ / الطور / ٤٤] ونصها : وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ .

(2) [١١٠ / النصر / ١ ـ ٣] ونصها: إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا .

ذلك بقوله تعالى : « فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ... »[١] ولا يقول مثل هذا من فهم وضع العرب فى مثنى وثلاث ورباع .

ومنهم من يرى شحم الخنزير وجلده حلالا لأن الله قال : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ »[٢] فلم يحرم شيئا غير لحمه . ولفظ اللحم يتناول الشحم وغيره بخلاف العكس .

ومنهم من فسر الكرسىّ فى قوله : « وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ »[٣] بالعلم مستدلين ببيت لا يعرف . وهو :

(ولا بكرسىُّ علمَ الله مخلوق) كأنه عندهم ولا يعلم علمه. وبكرسىّ مهموز. والكرسىّ غير مهموز.

ومنهم من فسر غوَى فى قوله تعالى : « وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ »[٤] . إنه تخم من أكل الشجرة . من قول العرب غَوِىَ الفصيل يَغْوَى غوًى إذا بشم من شرب اللبن . وهو فاسد لأن غَوِىَ الفصيل فَعِل ، والذى فى القرآن على وزن فَعَل .

ومنهم من قال فى قوله : « وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ »[٥] أى ألقينا فيها . كأنه عندهم من

---

(١) [٤ / النساء / ٣] ونصها : وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا .

(٢) [٥/ المائدة / ٣] وهذا نصها : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ، ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ...

(٣) [٢ / البقرة / ٢٥٥] ونصها : ... وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ .

(٤) [٢٠ / طه / ١٢١] ونصها : فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ .

(٥) [٧ /الأعراف/ ١٧٩] ونصها: وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ =

قول الناس : ذرته الريح . وذرَاً مهموز ، وذرَا غير مهموز .

وفى قوله : « وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا »(١) ، أى فقيراً إلى رحمته . من الخلة بفتح الخاء . محتجين على ذلك بقول زهير (وإن أتاه خليل يوم مسألة) قال ابن قتيبة : أىُّ فضيلة لإبراهيم فى هذا القول ؟ أما يعلمون أن الناس فقراء إلى الله ؟ وهل « إبراهيم » فى لفظ « خليل الله » إلا كما قيل « موسى كليم الله » و « عيسى روح الله » . ويشهد له الحديث(٢): « لو كنت متخذاً خليلًا غير ربى لاتخذت أبا بكر خليلًا، إن صاحبكم خليل الله »(٣).

وهؤلاء من أهل الكلام هم النابذون للمنقولات اتباعاً للرأى. وقد أدَّاهم ذلك إلى تحريف كلام الله بما لا يشهد للفظه عربىّ ، ولا لمعناه برهان ، كما رأيت .

وإنما أكثرت من الأمثلة ، وإن كانت من الخروج عن مقصود العربية والمعنى على ما علمت ، لتكون تنبيهاً على ما وراءها مما هو مثلها، أو قريب منها .

= لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا، أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ .

(١) [٤ / النساء / ١٢٥] ونصها : وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا .

(٢) البخارىّ فى: ٦٢ ـ كتاب فضائل أصحاب النبىّ ﷺ ، ٣ ـ باب قول النبىّ ﷺ « سدوا الأبواب إلا باب أبى بكر » :

عن أبى سعيد الخدرىّ رضى الله تعالى عنه عن النبىّ ﷺ أنه قال « إن من أمنّ الناس علىّ فى صحبته وماله أبو بكر . ولو كنت متخذاً خليلًا غير ربى لاتخذت أبا بكر . ولكن أُخوّة الإسلام ومودته . لا يبقينّ فى المسجد باب إلا سُدَّ ، إلا باب أبى بكر » .

(٣) جامع الترمذىّ فى : ٤٦ ـ كتاب المناقب ، ١٥ ـ باب حدثنا محمد بن عبد الملك ابن أبى الشوارب :

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافيناه . ماخلا أبا بكر . فإن له عندنا يداً يكافئه الله به يوم القيامة . وما نفعنى مال أحد قط ما نفعنى مال أبى بكر . ولو كنت متخذاً خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا . ألا وإن صاحبكم خليل الله» .

ثم قال الشاطبيّ :

فصل

وكون الباطن هو المراد من الخطاب قد ظهر أيضاً مما تقدم فى المسألة قبلها ، ولكن يشترط فيه شرطان : أحدهما : أن يصح على مقتضى الظاهر المقرر فى لسان العرب ويجرى على المقاصد العربية . والثانى : أن يكون له شاهد نصًّا أو ظاهراً فى محل آخر يشهد لصحته من غير معارض .

فأما الأول : فظاهر من قاعدة كون القرآن عربيًّا . فإنه لو كان له فهم لا يقتضيه كلام العرب لم يوصف بكونه عربيا بإطلاق . ولأنه مفهوم يلصق بالقرآن، ليس فى ألفاظه ولا فى معانيه ما يدل عليه . وما كان كذلك فلا يصح أن ينسب إليه أصلًا إذ ليست نسبته إليه على أنه مدلوله أولى من نسبة ضده إليه ، ولا مرجح يدل على أحدهما . فإثبات أحدهما تحكّم وتقوّل على القرآن ظاهر . وعند ذلك يدخل قائله تحت إثم من قال فى كتاب الله بغير علم. والأدلة المذكورة ، فى أن القرآن عربىّ ، جارية هنا .

وأما الثانى : فلأنه إن لم يكن له شاهد فى محل آخر ، أو كان له معارض ، صار من جملة الدعاوى التى تدعى على القرآن. والدعوى المجردة غير مقبولة باتفاق العلماء . وبهذين الشرطين يتبين صحة ما تقدم إنه الباطن ، لأنهما موفران فيه ؛ بخلاف ما فسر به الباطنية ، فإنه ليس من علم الباطن ، كما أنه ليس من علم الظاهر ، فقد قالوا فى قوله تعالى : « وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ »[1] أنه الإمام ورث النبىّ علمه . وقالوا فى الجنابة : إن معناها مبادرة المستجيب بإفشاء السر إليه قبل أن ينال رتبة الاستحقاق . ومعنى الغسل تجديد العهد على من فعل ذلك. ومعنى الطهور هو التبرى والتنظف من اعتقاد كل مذهب سوى متابعة الإمام . والتيمم الأخذ من المأذون إلى أن يشاهد الداعى أو الإمام . والصيام الإمساك عن كشف السر .

---

(١) [٢٧ / النمل / ١٦] ونصها : وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ، وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَىْءٍ ، إِنَّ هٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ .

والكعبة النبيّ . والباب عليّ . والصفا هو النبيّ . والمروة عليّ . والتلبية إجابة الداعى . والطواف سبعاً هو الطواف بمحمد عليه السلام إلى تمام الأئمة السبعة . والصلوات الخمس أدلة على الأصول الأربعة وعلى الإمام . ونار إبراهيم هو غضب نمروذ لا النار الحقيقية . وذبح إسحق هو أخذ العهد عليه . وعصا موسى حجته التى تلقفت شبه السحرة . وانفلاق البحر افتراق علم موسى عليه السلام فيهم . والبحر هو العالم . وتظليل الغمام نصب موسى الإمام لإرشادهم . والمنّ علم نزل من السماء . والسلوى داع من الدعاة . والجراد والقمل والضفادع سؤالات موسى وإلزاماته التى تسلطت عليهم . وتسبيح الجبال رجال شداد فى الدين . والجن الذين ملكهم سليمان باطنية ذلك الزمان . والشياطين هم الظاهرية الذين كلفوا الأعمال الشاقة . إلى سائر مانقل من خباطهم الذى هو عين الخبال ، وضحكة السامع . نعوذ بالله من الخذلان .

قال القتبي : وكان بعض أهل الأدب يقول: ما أَشْبَهُ تفسير الروافض للقرآن إلا بتأويل رجل من أهل مكة للشعر . فإنه قال ذات يوم : ما سمعت بأكذب من بنى تميم . زعموا أن قول القائل :

بيتٌ ، زرارةُ محتبٍ بفِنائه ومجاشع وأبو الفوارس نَهْشَلُ

أنه فى رجل منهم . قيل له : فما تقول أنت فيه ؟ قال : البيت بيت الله ، وزرارة الحج . قيل : فمجاشع ؟ قال : زمزم جشمت بالماء . قيل : فأبو الفوارس ؟ قال: أبو قبيس . قيل : فنهشل ؟ قال : أشده . وصمت ساعة ثم قال : نعم نهشل مصباح الكعبة لأنه طويل أسود فذلك نهشل . انتهى ما حكاه .

ثم قال الشاطبىّ :

فصل

وقد وقعت فى القرآن تفاسير مشكلة يمكن أن تكون من هذا القبيل أو من قبيل الباطن الصحيح. وهى منسوبة لأناس من أهل العلم ، وربما نسب منها إلى السلف الصالح . فمن ذلك فواتح السور نحو : ألم ، والمص ، وحم ، ونحوها . فسرت بأشياء . منها ما يظهر جريانه على مفهوم صحيح ومنها ما ليس كذلك . فينقلون عن ابن عباس أن « ألم » أن ألف الله . ولام جبريل . وميم محمد ﷺ . وهذا ، إن صح فى النقل ، فمشكل . لأن هذا النمط من التصرف لم يثبت فى كلام العرب هكذا مطلقا . وإنما أتى مثله إذا دل عليه الدليل اللفظىّ أو الحالىّ كما قال : (قلت لها قفى فقالت قاف) وقال : (قالوا جميعا كلهم بلى فا) وقال : (لا أريد الشهر إلاأن تا) والقول فى «ألم» ليس هكذا . وأيضاً فلادليل من خارج يدل عليه. إذلو كان له دليل لاقتضت العادة نقله ، لأنه من المسائل التى تتوفر الدواعى على نقلها لو صح أنه مما يفسر ويقصد تفهيم معناه . ولما لم يثبت شىء من ذلك دل على أنه من قبيل المتشابهات. فإن ثبت له دليل يدلّ عليه ، صير إليه . وقد ذهب فريق إلى أن المراد الإشارة إلى حروف الهجاء ، وأن القرآن منزل بجنس هذه الحروف وهى العربية . وهو أقرب من الأول . كما أنه نقل أن هذه الفواتح أسرار لا يعلم تأويلها إلا الله ؛ وهو أظهر الأقوال فهى من قبيل المشابهات . وأشار جماعة إلى أن المراد بها أعدادها . تنبيهاً على مدة هذه الملة . وفى السير ما يدل على هذا المعنى . وهوقول يفتقر إلى أن العرب كانت تعهد فى استعمالها الحروف المقطعة أن تدل بها على أعدادها . وربما لا يوجد مثل هذا ، لها ، البتة . وإنما كان أصله فى اليهود حسبما ذكره أصحاب السير . فأنت ترى هذه الأقوال مشكلة إذا سبرناها بالمسبار المتقدم . وكذلك سائر الأقوال المذكورة فى الفواتح مثلها فى الإشكال وأعظم . ومع إشكالها فقد اتخذها جمع من المنتسبين إلى العلم ، بل إلى الاطلاع والكشف على حقائق الأمور ، حججا فى دعاو ادعوها على القرآن . وربما نسبوا شيئا من ذلك إلى علىّ بن أبى طالب ، وزعموا أنها

أصل العلوم ، ومنبع المكاشفات على أحوال الدنيا والآخرة . وينسبون ذلك إلى أنه مراد الله تعالى فى خطابه العرب الأمية التى لا تعرف شيئا من ذلك . وهو ، إذا سلم أنه مراد فى تلك الفواتح فى الجملة ، فما الدليل على أنه مراد على كل حال من تركيبها على وجوه ، وضرب بعضها ببعض ، ونسبتها إلى الطبائع الأربع ، وإلى أنها الفاعلة فى الوجود ، وأنها مجمل كل مفصل ، وعنصر كل موجود . ويرتبون فى ذلك ترتيبا جميعه دعاوٍ محالةٌ على الكشف والاطلاع . ودعوى الكشف ليس بدليل فى الشريعة على حال ، كما أنه لا يعد دليلا فى غيرها ، كما سيأتى بحول الله .

ثم قال الشاطبيّ :

فصل

ومن ذلك أنه نقل عن سهل بن عبد الله فى فهم القرآن أشياء مما يعد من باطنه . فقد ذكر عنه أنه قال فى قوله تعالى « فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا »(١) أى أضداداً . قال : وأكبر الأنداد النفس الأمارة بالسوء ، الطواعة إلى حظوظها ومنيها بغير هدى من الله . وهذا يشير إلى أن النفس الأمارة داخلة تحت عموم الأنداد ، حتى لو فصل لكان المعنى : فلا تجعلوا لله أنداداً لا صنما ولا شيطاناً ولا النفس ولا كذا . رهذا مشكل الظاهر جداً ، إذ كان مساق الآية ومحصول القرآن فيها يدل على أن الأنداد الأصنام أو غيرها مما كانوا يعبدون ، ولم يكونوا يعبدون أنفسهم ولا يتخذونها أرباباً. ولكن له وجه جار على الصحة ، وذلك أنه لم يقل إن هذا هو تفسير الآية ، ولكن أتى بما هو ندّ فى الاعتبار الشرعىّ الذى شهد له القرآن من جهتين :

إحداها: أن الناظر قد يأخذ من معنى الآية معنى من باب الاعتبار، فيجريه له فيما لم تنزل فيه، لأنه يجامعه فى القصد أو يقاربه ، لأن حقيقة الندّ أنه المضاد لندّه ، الجارى على مناقضته. والنفس الأمارة هذا شأنها ، لأنها تأمر صاحبها بمراعاة حظوظها ، لاهية أو صادّة عن مراعاة حقوق خالقها . وهذا هو الذى يعنى به الندّ فى نده . لأن الأصنام نصبوها لهذا المعنى بعينه. وشاهد صحة هذا الاعتبار قوله تعالى: « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ »(٢) وهم لم

(١) [٢ / البقرة / ٢٢] ونصها : الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ ، فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

(٢) [٩ / التوبة / ٣١] ونصها : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلٰهاً وَاحِدًا ، لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

يعبدوهم من دون الله ولكنهم ائتمروا بأوامرهم ، وانتهوا عما نهوهم عنه كيف كان. فما حرموا عليهم حرموه ، وما أباحوا لهم حللوه ، فقال الله تعالى : « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ » وهذا شأن المتبع لهوى نفسه .

والثانية : أن الآية: ، وإن نزلت فى أهل الأصنام ، فإن لأهل الإسلام فيها نظراً بالنسبة إليهم . ألا ترى أن عمر بن الخطاب قال لبعض من توسع فى الدنيا من أهل الإيمان : أين تذهب بكم هذه الآية « أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا »[1] ؟ وكان هو يعتبر نفسه بها. وإنما أنزلت فى الكفار لقوله: « وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ » الآية ولهذا المعنى تقرير فى العموم والخصوص . فإذا كان كذلك ، صح التنزيل بالنسبة إلى النفس الأمارة فى قوله : « فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا » والله أعلم .

---

(١) [٤٦ / الأحقاف / ٢٠] ونصها : وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ .

ثم قال الشاطبى :

فصل

ومن المنقول عن سهل أيضاً فى قوله تعالى: « وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ »(١) قال: لم يرد معنى الأكل فى الحقيقة وإنما أراد معنى مساكنة الهمة لشىء هو غيره ، أى لا تهتم بشىء هو غيرى . قال : فآدم لم يعصم من الهمة والتدبير فلحقه ما لحقه . قال : وكذلك كل من ادعى ما ليس له ، وساكن قلبه ، ناظراً إلى هوى نفسه ، لحقه الترك من الله ، مع ما جبلت عليه نفسه فيه ، إلا أن يرحمه الله فيعصمه من تدبيره ، وينصره على عدوه وعليها .

قال : وآدم لم يعصم عن مساكنة قلبه إلى تدبير نفسه للخلود لما أدخل الجنة ، لأن البلاء فى الفرع دخل عليه من أجل سكون القلب إلى ماوسوست به نفسه ، فغلب الهوى والشهوة العلمَ والعقلَ بسابق القدر ، إلى آخر ما تكلم به .

وهذا الذى ادعاه فى الآية خلاف ما ذكره الناس من أن المراد النهى عن نفس الأكل، لا عن سكون الهمة لغير الله ، وإن كان ذلك منهياً عنه أيضاً ، ولكن له وجه يجرى عليه لمن تأول ، فإن النهى إنما وقع عن القرب لا غيره ، ولم يرد النهى عن الأول تصريحاً ، فلا منافاة بين اللفظ وبين ما فسر به .

وأيضاً فلا يصح حمل النهى على نفس القرب مجرداً . إذ لا مناسبة فيه تظهر ، ولأنه لم يقل به أحد ، وإنما النهى عن معنى فى القرب . وهو إما التناول والأكل ، وإما غيره ، وهو شىء ينشأ الأكل عنه ، وذلك مساكنة الهمة ، فإنه الأصل فى تحصيل الأكل . ولاشك فى أن السكون لغير الله لطلب نفع أو دفع ، منهىّ عنه . فهذا التفسير له وجه ظاهر،

---

(١) [٢ / البقرة / ٣٥] ونصها : وَقُلْنَا يَا ءَادَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ .
و [٧ / الأعراف / ١٩] ونصها : وَيَا ءَادَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ .

فكأنه يقول: لم يقع النهى عن مجرد الأكل من حيث هو أكل ، بل عما ينشأ عنه الأكل من السكون لغير الله ، إذ لو انتهى لكان ساكناً لله وحده . فلما لم يفعل ، وسكن إلى أمرٍ فى الشجرة غرّه به الشيطان ، وذلك الخلد المدعى ، أضاف الله إليه لفظ العصيان ، ثم تاب عليه إنه هو التواب الرحيم . ومن ذلك أنه قال فى قوله تعالى : « إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ . . . »(١) الآية ـ باطن البيت قلب محمد ﷺ ، يؤمن به من أثبت الله فى قلبه التوحيد ، واقتدى بهدايته . وهذا التفسير يحتاج إلى بيان . فإن هذا المعنى لاتعرفه العرب . ولا فيه من جهتها وضع مجازىّ مناسب ، ولا يلائمه مساق بحال، فكيف هذا ؟ والعذر عنه أنه لم يقع فيه مايدل على أنه تفسير للقرآن. فزال الإشكال إذًا . وبقى النظر فى هذهالدعوى. ولابد ، إن شاء الله ، من بيانها .

ومنه قوله فى تفسير قول الله تعالى: « يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ »(٢) قال : رأس الطواغيت كلها النفس الأمارة بالسوء إذا خلا العبد معها للمعصية. وهو أيضاً من قبيل ماقبله. وإن فرض أنه تفسير فعلى ما مر فى قوله تعالى: « فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا » .

وقال فى قوله تعالى : « وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَى . . . »(٣) الآية ـ أما باطنها فهو القلب ، والجار الجنب النفس الطبيعىّ ، والصاحب بالجنب العقل المقتدى بعمل الشرع ، وابن السبيل الجوارح المطيعة لله عز وجل ، وهو من المواضع المشكلة فى كلامه .

---

(١) [٣ / آل عمران / ٩٦] ونصها : إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ .

(٢) [٤ / النساء / ٥١] ونصها : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا .

(٣) [٤ / النساء / ٣٦] ونصها : وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا.

ولغيره مثل ذلك أيضاً . وذلك أن الجارى على مفهوم كلام العرب فى هذا الخطاب ما هو الظاهر من أن المراد بالجار ذى القربى وما ذكر معه ما يفهم منه ابتداء . وغير ذلك لا يعرفه العرب. لا مَنْ آمن منهم ولا مَن كفر . والدليـل على ذلك أنه لم ينقل عن السلف الصالح من الصحابة والتابعين تفسير للقرآن يماثله أو يقاربه ، ولو كان عنـدهم معروفاً لنقل ، لأنهم كانوا أحرى بفهم ظاهر القرآن وباطنه باتفاق الأئمة، ولا يأتى آخر هذه الأمة بأهدى مما كان عليه أولها ، ولا هم أعرف بالشريعة منهم. ولا ، أيضاً ، ثَمَّ دليـل يدل على صحة التفسير . لا من مساق الآية ، فإنه ينافيه . ولا من خارج ، إذ لا دليل عليه كذلك . بل مثل هـذا أقرب إلى ما ثبت رده ونفيه عن القرآن، من كلام الباطنية ومن أشبههم .

وقال فى قوله : « صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ »[1] الصرح نفس الطبع ، والممرد الهوى. إذا كان غالباً ستر أنوار الهدى بالترك من الله تعالى العصمة لعبده .

وفى قوله : « فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا »[2] أى قلوبهم عند إقامتهم على مانهوا عنه ، وقد علموا أنهم مأمورون منهيون ، والبيوت القلوب ، فمنها عامرة بالذكر ، ومنها خراب بالغفلة عن الذكر .

وفى قوله تعالى : « فَانْظُرْ إِلَى ءَاثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا »[3] قال : حياة القلوب بالذكر .

---

(١) [٢٧ / النمل / ٤٤] ونصها : قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ، فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا ، قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ ، قَالَتْ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

(٢) [٢٧ / النمل / ٥٢] ونصها : فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

(٣) [٣٠ / الروم / ٥٠] ونصها : فَانْظُرْ إِلَى ءَاثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

وقال فى قوله تعالى: « ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ »[١] الآية - مثل الله القلب بالبحر، والجوارح بالبر. ومثله أيضاً بالأرض التى تزهى بالنبات. هذا باطنه.

وقد حمل بعضهم قوله تعالى: « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ »[٢] على أن المساجد القلوب، تمنع بالمعاصى من ذكر الله.

ونقل فى قوله تعالى: « فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ »[٣] أن باطن النعلين هو الكونان الدنيا والآخرة، فذكر عن الشبلى أن معنى: «اخلع نعليك» اخلع الكل منك تصل إلينا بالكلية.

وعن عطاء « اخلع نعليك » عن الكون، فلا تنظر إليه بعد هذا الخطاب.

وقال: النعل النفس، والواد المقدس دين المرء، أى حان وقت خلوك من نفسك، والقيام معنا بدينك، وقيل غير ذلك مما يرجع إلى معنى لا يوجد فى النقل عن السلف.

وهذا كله، إن صح نقله، خارج عما تفهمه العرب، ودعوى مالا دليل عليه فى مراد الله بكلامه.

ولقد قال الصديق[٤]: « أىّ سماء تظلنى، وأىّ أرض تقلنى، إذا قلت فى كتاب الله مالا أعلم ».

---

(١) [٣٠ / الروم / ٤١] ونصها: ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ.

(٢) [٢ [البقرة / ١١٤] ونصها: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا، أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ، لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ.

(٣) [٢٠ / طه / ١٢] ونصها: إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ، إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى.

(٤) جاء فى تفسير ابن كثير: وقال أبو عبيد القاسم بن سلّام: ثنا محمد بن يزيد عن العوّام ابن حوشب عن إبراهيم التيمىّ أن أبا بكر الصديق سئل عن قوله تعالى: وَفَاكِهَةً وَأَبًّا. فقال: أىّ سماء تظلنى وأىّ أرض تقلنى إذا قلت فى كتاب الله مالا أعلم. منقطع اهـ.

وفى الخبر[1]: من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ. وما أشبه ذلك من التحذيرات.
وإنما احتيج إلى هـذا كله لجلالة من نقل عنهم ذلك من الفضلاء، وربما ألمّ الغزالىّ بشىء منه فى الإحياء وغيره. وهو مزلة قدم لمن لم يعرف مقاصد القوم. فإن الناس، فى أمثال هذه الأشياء، بين قائلين: منهم من يصدق به ويأخذه على ظاهره ويعتقد أن ذلك هو مراد الله تعالى من كتابه، وإذا عارضه ما ينقل فى كتب التفسير على خلافه، فربما كذب به أو أشكل عليه. ومنهم من يكذب به على الإطلاق ويرى أنه تقوّل وبهتان، مثل ما تقدم من تفسير الباطنية ومن حذا حذوهم. وكلا الطريقين فيه ميل عن الإنصاف. ولابد قبل الخوض فى رفع الإشـكال من تقديم أصل مسلّم يتبين به ما جاء من هذا القبيل، وهى:

« المسألة العاشرة »

فنقول: إن الاعتبارات القرآنية الواردة على القلوب الظاهرة للبصائر، إذا صحت على كمال شروطها، فهى على ضربين:

أحدها: ما يكون أصل انفجاره من القرآن، ويتبعه سائر الموجودات، فإن الاعتبار الصحيح فى الجملة هو الذى يخرق نورُ البصيرة فيه حجبَ الأكوان من غير توقف، فإن توقف فهو غير صحيح أو غير كامل حسبما بينه أهل التحقق بالسلوك.

والثانى: يكون أصل انفجاره من الموجودات جزئيّها أو كليّها، ويتبعه الاعتبار فى القرآن.

فإن كان الأول، فذلك الاعتبار صحيح، وهو معتبر فى فهم باطن القرآن من غير إشكال، لأن فهم القرآن إنما يَرِدُ على القلوب على وفق ما نزل له القرآن، وهو الهداية التامة، على ما يليق بكل واحد من المـكلفين، وبحسب التـكاليف وأحوالها، لا بإطلاق. وإذا كانت كذلك فالمشى على طريقها مشى على الصراط المستقيم، ولأن الاعتبار القرآنىّ قلما يجده إلا من كان

---

(١) انظر الحاشية رقم ٤ ص ٩.

من أهله عملاً به على تقليد أو اجتهاد ، فلا يخرجون عند الاعتبار فيه عن حدوده ، كما لم يخرجوا فى العمل به والتخلق بأخلاقه عن حدوده. بل تنفتح لهم أبواب الفهم فيه على توازى أحكامه . ويلزم من ذلك أن يكون معتدا به ، لجريانه على مجاريه .

والشاهد على ذلك ما نقل من فهم السلف الصالح فيه ، فإنه كله جار على ما تقضى به العربية ، وما تدل عليه الأدلة الشرعية حسبما تبين قبل .

وإن كان الثانى فالتوقف عن اعتباره فى فهم باطن القرآن لازم ، وأخذه على إطلاقه فيه ممتنع ، لأنه بخلاف الأول، فلا يصح إطلاق القول باعتباره فى فهم القرآن ، فنقول : إن تلك الأنظار الباطنة فى الآيات المذكورة إذا لم يظهر جريانها على مقتضى الشروط المتقدمة فهى راجعة إلى الاعتبار غير القرآنىّ ، وهو الوجودىّ . ويصح تنزيله على معانى القرآن ، لأنه وجودىّ أيضا ، فهو مشترك من تلك الجهة ، غير خاص فلا يطالب فيه المعتبر بشاهد موافق إلا ما يطالبه المربى ، وهو أمر خاص ، وعلم منفرد بنفسه ، لا يختص بهذا الموضع ، فلذلك يوقف على محله . فكون القلب جارا ذا قربى ، والجار الجنب هو النفس الطبيعىّ ، إلى سائر ما ذكر ، يصح تنزيله اعتبارياً مطلقاً . فإن مقابلة الوجود بعضه ببعض فى هذا النمط ، صحيح وسهل جدا عند أربابه غير أنه مُغَرِّر بمن ليس براسخ أو داخل تحت إيالة راسخ . وأيضاً، فإن من ذكر عنه مثل ذلك من المعتبرين لم يصرح بأنه المعنى المقصود المخاطب به الخلق ، بل أجراه مجراه ، و سكت عن كونه هو المراد . وإن جاء شىء من ذلك وصرح صاحبه أنه هو المراد فهو من أرباب الأحوال الذين لا يفرقون بين الأعتبار القرآنىّ والوجودىّ . وأكثر ما يطرأ هذا لمن هو ، بعدُ ، فى السلوك سائر على الطريق ، لم يتحقق بمطلوبه . ولا اعتبار بقول من لم يثبت اعتبار قوله من الباطنية وغيرهم . وللغزالىّ فى مشكاة الأنوار ، وفى كتاب الشكر من الإحياء ، وفى كتاب جواهر القرآن فى الاعتبار القرآنىّ وغيره ، ما يتبين به لهذا الموضع أمثلة . فتأملها هناك والله الموفق .

ثم قال الشاطبيّ :

فصل

وللسنة فى هذا النمط مدخل. فإن كل واحد منهما قابل لذلك الاعتبار المتقدم الصحيح الشواهد ، وقابل أيضا للاعتبار الوجوديّ ، فقد فرضوا نحوه فى قوله عليه السلام « لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة »[1] إلى غير ذلك من الأحاديث . ولا فائدة فى التكرار إذا وضح طريق الوصول إلى الحق والصواب .

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٥٩ ـ كتاب بدء الخلق ، ٧ ـ باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة فى السماء ، عن أبى طلحة . ونصه : سمعت رسـول الله ﷺ يقول « لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة تماثيل » .

٩ — قاعدة فى أن الشريعة أمية، وأنه لابد فى فهمها من اتباع معهود الأميين، وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم

قال الشاطبىّ فى الموافقات : هذه الشريعة المباركة أمية ، لأن أهلها كذلك، فهو أجرى على اعتبار المصالح . ويدل على ذلك أمور .

أحدها : النصوص المتواترة اللفظ والمعنى كقوله تعالى : « هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ »[1] . وقوله : « فَـَٔامِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ . الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ »[2] . وفى الحديث : « بعثت إلى أمة أمية[3] » ، لأنهم لم يكن لهم علم بعلوم الأقدمين . والأمىّ منسوب إلى الأم وهو الباقى على أصل ولادة الأم ، لم يتعلم كتاباً ولا غيره . فهو على أصل خلقته التى ولد عليها ، وفى الحديث : « نحن أمة أمية لا نحسب

(١) [٦٢ / الجمعة / ٢] ونصها : هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٥٨] ونصها : قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ، فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .

(٣) جامع الترمذىّ فى : ٤٣ ـ كتاب أبواب القراءات ، ٩ ـ باب ماجاء أنزل القرآن على سبعة أحرف .

عن أبىّ بن كعب قال : لقى رسول الله ﷺ جبريل فقال : يا جبريل ! إنى بعثت إلى أمة أميين ، منهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذى لم يقرأ كتاباً قط . قال : يا محمد ! إن القرآن أنزل على سبعة أحرف .

ولا نكتب . الشهر هكذا وهكذا وهكذا»[١] . وقد فسر معنى الأمية فى الحديث : أى ليس لنا علم بالحساب ، ولا الكتاب، ونحوه قوله تعالى : « وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ »[٢] . وما أشبه هذا من الأدلة المبثوثة فى الكتاب والسنّة ، الدالة على أن الشريعة موضوعة على وصف الأمية . لأن أهلها كذلك .

والثانى : أن الشريعة التى بعث بها النبىّ الأمىّ إلى العرب خصوصا ، وإلى من سواهم عموما ، إما أن تكون على نسبة ما هم عليه من وصف الأمية ، أوْ لا . فإن كانت كذلك، فهو معنى كونها أمية أى منسوبة إلى الأميين . وإن لم تكن كذلك ، لزم أن تكون على غير ما عهدوا . فلم تكن لتنتزل من أنفسهم منزلة ما تعهَدُ ، وذلك خلاف ما وضع عليه الأمر فيها . فلا بد أن تكون على ما يعهدون . والعرب لم تعهد إلا ما وصفها الله به من الأمية ، فالشريعة إذًا أمية .

والثالث : أنه لو لم يكن على ما يعهدون لم يكن عندهم معجزا ، ولكانوا يخرجون عن مقتضى التعجيز بقولهم : هذا على غير ما عهدنا . إذ ليس لنا عهد بمثل هذا الكلام ، من حيث إن كلامنا معروف مفهوم عندنا ، وهذا ليس بمفهوم ولا معروف . فلم تقم الحجة عليهم به. ولذلك قال سبحانه : « وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ ، ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِىٌّ . . . »[٣] فجعل لهم الحجة على فرض كون القرآن أعجميا ،

---

(١) صحيح البخارىّ فى : ٣٠ ــ كتاب الصوم ، ١٣ ــ باب قول النبىّ ﷺ لا نكتب ولا نحسُب .

عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبىّ ﷺ أنه قال: « إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسُب ، الشهر هكذا وهكذا » يعنى مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين .

(٢) [٢٩ / العنكبوت / ٤٨] ونصها : وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ، إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ .

(٣) [٤١ / فصلت / ٤٤] ونصها : وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا =

ولما قالوا : إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ (١) . ردّ الله عليهم بقوله : « لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ ، وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُبِينٌ »(١) . لكنهم أذعنوا لظهور الحجة . فدل على أن ذلك لعلمهم به وعهدهم بمثله مع العجز عن مماثلته . وأدلة هذا المعنى كثيرة .

= فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ ، ءَأَعْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ، قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِى ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ .

(١) [١٦ / النحل / ١٠٣] ونصها : وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ ، وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُبِينٌ .

ثم قال الشاطبيّ :

فصل

واعلم أن العرب كان لها اعتناء بعلوم ذكرها الناس ، وكان لعقلائهم اعتناء بمكارم الأخلاق ، واتصاف بمحاسن شيم . فصحّحت الشريعة منها ما هو صحيح ، وزادت عليه . وأبطلت ما هو باطل . وبينت منافع ما ينفع من ذلك ، ومضار ما يضر منه . فمن علومها علم النجوم وما يختص بها من الاهتداء فى البر والبحر واختلاف الأزمان باختلاف سيرها ، وتعرّف منازل سير النيرين وما يتعلق بهذا المعنى . وهو معنى مقرر فى أثناء القرآن فى مواضع كثيرة . كقوله تعالى : « وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ »[1] . وقوله : « وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ »[2] . وقوله : « وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ[3] ۞ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ . . . »[3] الآية . وقوله : « هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ »[4] . وقوله : « وَجَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ

---

(١) [٦ / الأنعام / ٩٧] ونصها : وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

(٢) [١٦ / النحل / ١٦] ونصها : وَعَلَامَاتٍ ، وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ .

(٣) [٣٦ / يس / ٣٩ و٤٠] ونصهما: وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۞ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ .

(٤) [١٠ / يونس / ٥] ونصها: هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ، مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ، يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

ءَايَتَيْنِ ، فَمَحَوْنَا ءَايَةَ الَّيْلِ وَجَعَلْنَا ءَايَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً . . . »[(١)] الآية . وقوله : « وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ »[(٢)] . وقوله : « يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ، قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ . . . »[(٣)] وما أشبه ذلك .

ومنها علوم الأنواء ، وأوقات نزول الأمطار وإنشاء السحاب ، وهبوب الرياح المثيرة لها ، فبيَّن الشرع حقها من باطلها ، فقال تعالى: « هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ . . . »[(٤)] الآية . وقال : « أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ »[(٥)] . وقال : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً »[(٦)] . وقال : « وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ »[(٧)] .

---

(١) [١٧ / الإسراء / ١٢] ونصها: وَجَعَلْنَا الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ، فَمَحَوْنَا ءَايَةَ الَّيْلِ وَجَعَلْنَا ءَايَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ، وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً .

(٢) [٦٧ / الملك / ٥] ونصها : وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ ، وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ .

(٣) [٢ / البقرة / ١٨٩] ونصها: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ، قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ، وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى ، وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ، وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

(٤) [١٣ / الرعد / ١٢و١٣] ونصهما : هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ✡ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ .

(٥) [٥٦ / الواقعة / ٦٨و٦٩] ونصهما : أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ✡ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ .

(٦) [٧٨ / النبأ / ١٤] ونصها : وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا .

(٧) [٥٦ / الواقعة / ٨٢] ونصها : وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ .

خرّج الترمذيّ[١]: قال رسول الله ﷺ : وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ، قال: شكركم. تقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا وبنجم كذا وكذا . وفى الحديث[٢] : أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر . . . الحديث . فى الأنواء .

وفى الموطأ مما انفرد به : إذا أنشأت بحرية ثم تشاءمت فتلك عين غديقة[٣] . وقال عمر ابن الخطاب للعباس ، وهو على المنبر، والناس تحته : كم بقى من نوء الثريا ؟ فقال له العباس: بقى من نوئها كذا وكذا .

فمثل هذا مبيّن للحق من الباطل فى أمر الأنواء والأمطار . قال تعالى : « وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ . . . »[٤] الآية . وقال : « اللهُ

---

(١) جامع الترمذيّ فى: ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٥٦ ـ سورة الواقعة ، ٤ ـ حدثنا أحمد ابن منيع. عن علىّ رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ « وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون، قال ، شكركم . تقولون : مُطِرْنا بنوء كذا وكذا ونجم كذا وكذا » .

(٢) صحيح البخاريّ فى: ١٠ ـ كتاب الأذان ، ١٥٦ ـ باب يستقبل الإمام الناس إذا سلّم.
عن زيد بن خالد الجهنىّ أنه قال : صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت فى الليلة . فلما انصرف أقبل على الناس فقال : هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم . قال : أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر . فأما من قال مُطِرْنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى وكافر بالكواكب . وأما من قال : بنوء كذا وكذا فذلك كافر بى ومؤمن بالكواكب .

(٣) الموطأ فى : ١٣ ـ كتاب الاستسقاء ، ٣ ـ باب الاستمطار بالنجوم ، ٥ ـ عن مالك أنه بلغه أن رسول الله ﷺ كان يقول : إذا أنشأت بَحْرِيَّةً ، ثم تشاءمتْ ، فتلك عين غُدَيْقَةٌ .

(٤) [١٥ / الحجر / ٢٢] ونصها : وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ .

الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا »[1] إلى كثير من هذا .

ومنها علم التاريخ وأخبار الأمم الماضية . وفى القرآن من ذلك ما هو كثير . وكذلك فى السنّة . ولكن القرآن احتفل فى ذلك . وأكثره من الإخبار بالغيوب التى لم يكن للعرب بها علم ، لكنها من جنس ما كانوا ينتحلون . قال تعالى : « ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ . . . »[2] الآية . وقال تعالى : « تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا . . . »[3] وفى الحديث[4] قصة أبيهم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فى بناء البيت . وغير ذلك مما جرى .

---

(١) [٣٥ / فاطر / ٩] ونصها : وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، كَذَٰلِكَ النُّشُورُ .

(٢) [٣ / آل عمران / ٤٤] ونصها : ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ .

(٣) [١١/هود/٤٩] ونصها : تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا ، فَاصْبِرْ ، إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ .

(٤) صحيح البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٩ ـ باب يزفون ، النسلان فى المشى.

عن ابن عباس فى حديث طويل جداً . . . قال ثم إنه بدا لإبراهيم فقال لأهله : إنى مطلع تركتى . فجاء فوافق إسماعيل وراء زمزم يصلح نبلا له . فقال : يا إسماعيل إن ربك أمرنى أن أبنى له بيتاً . قال : أطع ربك . قال: إنه أمرنى أن تعيننى عليه . قال : إذَنْ أفعل ، أو كما قال .

قال : فقاما فجعل إبراهيم يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة ويقولان : ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. قال: حتى ارتفع البناء وضعف الشيخ على نقل الحجارة ، فقام على حجر المقام فجعل يناوله الحجارة ويقولان : ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم .

ومنها ما كان أكثره باطلاً أو جميعه : علم العيافة والزجر والكهانة وخط الرمل والضرب بالحصى والطيرة ، فأبطلت الشريعة من ذلك الباطلَ ، ونهت عنه . كالكهانة والزجر وخط الرمل . وأقرت الفأل . لا من جهة تطلب الغيب . فإن الكهانة والزجر كذلك . وأكثر هذه الأمور تخرّص على علم الغيب من غير دليل . فجاء النبيّ ﷺ بجهة من تعرف علم الغيب مما هو حق محض وهو الوحى والإلهام . وأبقى للناس من ذلك ، بعد موته عليه السلام ، جزءًا من النبوءة وهو الرؤيا الصالحة ، وأنموذج من غيره لبعض الخاصة وهو الإلهام والفراسة .

ومنها علم الطب : فقد كان فى العرب منه شىء ، لا على ما عند الأوائل ، بل مأخوذ من تجاريب الأميين ، غير مبنىّ على علوم الطبيعة التى يقررها الأقدمون . وعلى ذلك المساق جاء فى الشريعة ، ولكن على وجه جامع شاف قليل ، يطلع منه على كثير . فقال تعالى : « كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا . . . »[1] . وجاء فى الحديث التعريف ببعض الأدوية لبعض الأدواء ، وأبطل من ذلك ما هو باطل : كالتداوى بالخمر والرقى التى اشتملت على ما لا يجوز شرعاً .

ومنها التفنن فى علم فنون البلاغة، والخوض فى وجوه الفصاحة، والتصرف فى أساليب الكلام ، وهو أعظم منتحلاتهم ، فجاءهم بما أعجزهم من القرآن الكريم . قال تعالى : « قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا »[2] .

---

(١) [٧ / الأعراف / ٣١] ونصها: يَا بَنِي ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٨٨] ونصها : قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً .

ومنها ضرب الأمثال : « وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا الْقُرْءَانِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ »[١] إلا ضرباً واحداً ، وهو الشعر ، فإن الله نفاه وبرّأ الشريعة منه . قال تعـالى فى حكايته عن الـكفار : « وَقَالُوا أَئِنَّا لَتَارِكُوا ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ . بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ »[٢] ، أى لم يأت بشعر ، فإنه ليس بحق ، ولذلك قال : « وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِى لَهُ . . . »[٣] الآية . وبيّن معنى ذلك فى قوله تعـالى : « وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ »[٤] فظهر أن الشعر ليس مبنيًّا على أصل ، ولـكنه هيمان على غير تحصيل ، وقول لا يصدقه فعل ، وهذا مضاد لما جاءت به الشريعة إلا ما استثنى الله تعـالى . فهذا أنموذج ينبهك على ما نحن بسبيله بالنسبة إلى علوم العرب الأمية . وأما ما يرجع إلى الاتصاف بمـكارم الأخلاق ، وما ينضاف إليها ، فهو أول ماخوطبوا به ، وأكثر ما تجد ذلك فى السور المـكية من حيث كان آنس لهم ، وأجرى على ما يتمدح به عندهم ، كقوله تعـالى : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَىٰ . . . »[٥] إلى آخرها . وقوله تعـالى : « قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ

---

(١) [٣٠ / الروم / ٥٨] ونصها : وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا الْقُرْءَانِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ، وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ .

(٢) [٣٧ / الصافات / ٣٦] ونصها : وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ .

(٣) [٣٦ / يس / ٦٩] ونصها : وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِى لَهُ ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ .

(٤) [٢٦ / الشعراء / ٢٢٤ـ٢٢٦] ونصها: وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ☆ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ☆ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ .

(٥) [١٦ / النحل / ٩٠] ونصها : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْىِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .

مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا »[١] إلى انقضاء تلك الخصال . وقوله : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ »[٢] . وقوله : « قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ »[٣] إلى غير ذلك من الآيات التي في هذا المعنى ، لكن أدرج فيها ما هو أولى ، من النهي عن الإشراك والتكذيب بأمور الآخرة ، وشبه ذلك مما هو المقصود الأعظم ، وأبطل لهم ما كانوا يعدونه كرماً وأخلاقاً حسنة ، وليس كذلك . أو فيه من المفاسد ما يربى على المصالح التي توهموها ، كما قال تعالى: « إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ »[٤] ثم بين ما فيها من المفاسد، خصوصاً في الخمر والميسر من إيقاع العداوة والبغضاء ، والصد عن ذكر الله وعن الصلاة . وهذا في الفساد أعظم مما ظنوه فيها صلاحاً . لأن الخمر كانت عندهم تشجع الجبان ، وتبعث البخيل على البذل، وتنشط الكسالى. والميسر كذلك كان عندهم محموداً لما كانوا يقصدون به من

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٥١] ونصها : قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ، أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .

(٢) [٧ / الأعراف / ٣٢] ونصها : قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

(٣) [٧ / الأعراف / ٣٣] ونصها : قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

(٤) [٥ / المائدة / ٩٠] ونصها: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

إطعام الفقراء والمساكين ، والعطف على المحتاجين ، وقد قال تعالى: « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا »[١] .

والشريعة إنما هى تخلق بمكارم الأخلاق ، ولهذا قال عليه السلام : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »[٢] . إلا أن مكارم الأخلاق على ضربين :

أحدهما : ما كان مألوفا وقريبا من المعقول المقبول ، كانوا فى ابتداء الإسلام إنما خوطبوا به ثم لما رسخوا فيه . تمم لهم ما بقى ، وهو :

الضرب الثانى : وكان منه ما لا يعقل معناه من أول وهلة فأخر حتى كان من آخره تحريم الربا وما أشبه ذلك ، وجميع ذلك راجع إلى مكارم الأخلاق . وهو الذى كان معهودا عندهم على الجملة . ألا ترى أنه كان للعرب أحكام عندهم فى الجاهلية أقرها الإسلام . كما قالوا فى القراض ، وتقدير الدية وضربها على العاقلة ، وإلحاق الولد بالقافة ، والوقوف بالمشعر الحرام ، والحكم فى الخنثى ، وتوريث الولد ، للذكر مثل حظ الأنثيين ، والقسامة ، وغير ذلك مما ذكره العلماء ؟ ثم نقول : لم يكتف بذلك حتى خوطبوا بدلائل التوحيد فيما يعرفون من سماء وأرض وجبال وسحاب ونبات ، وبدلائل الآخرة والنبوة كذلك . ولما كان الباقى عندهم من شرائع الأنبياء شىء من شريعة إبراهيم عليه السلام ، أبيهم ، خوطبوا من تلك الجهة ودُعُوا إليها ، وأن ماجاء به محمد ﷺ هى تلك بعينها كقوله تعالى : « مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِى هَذَا »[٣] وقوله: « مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ

---

(١) [٢ / البقرة / ٢١٩] ونصها : يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالمَيْسِرِ ، قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا، وَيَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ .

(٢) الموطأ فى : ٤٧ ـ كتاب حسن الخلق ، ١ ـ باب ما جاء فى حسن الخلق ، ٨ ـ عن مالك أنه بلغه أن رسول الله ﷺ قال : بعثت لأتمم حسن الأخلاق .

(٣) [٢٢ / الحج / ٧٨] ونصها : وَجَاهِدُوا فِى اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ، مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ، هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ =

يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ... »[1] الآية ـ غير أنهم غيروا جملة منها وزادوا واختلفوا . فجاء تقويمها من جهة محمد ﷺ . وأخبروا بما أنعم الله عليهم مما هو لديهم وبين أيديهم ، وأخبروا عن نعيم الجنة وأصنافه بما هو معهود فى تنعماتهم فى الدنيا ، لكن مبرأً من الغوائل والآفات التى تلازم التنعيم الدنيوىّ . كقوله : « وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ... »[2] إلى آخر الآيات ـ وبيّن من مأكولات الجنة ومشروباتها ماهو معلوم عندهم . كالماء واللبن والخمر والعسل والنخيل والأعناب وسائر ماهو عندهم مألوف ، دون الجوز واللوز والتفاح والكمثرى وغير ذلك من فواكه الأرياف وبلاد العجم . بل أجمل ذلك فى لفظ الفاكهة . وقال تعالى : « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ »[3] فالقرآن كله حكمة ، وقد كانوا عارفين بالحكمة ، وكان فيهم حكماء ، فأتاهم من الحكمة بما عجزوا عن مثله . وكان فيهم أهل وعظ وتذكير ، كقس بن ساعدة وغيره . ولم يجادلهم إلا على طريقة مايعرفون من الجدل . ومن تأمل القرآن وتأمل كلام العرب فى هذه الأمور الثلاثة وجد الأمر سواء . إلا ما اختص به كلام الله من الخواص المعروفة . وسِرْ فى جميع ملابسات العرب هذا السير تجد الأمر كما تقرر . وإذا ثبت هذا وضح أن الشريعة أُمّيّة لم تخرج عما ألفته العرب .

= مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ، فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ .

(١) [٣ / آل عمران / ٦٧] ونصها : مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

(٢) [٥٦ / الواقعة / ٢٧ـ٣٠] ونصها : وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ * وَظِلٍّ مَمْدُودٍ .

(٣) [١٦ / النحل / ١٢٥] ونصها : ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ .

ثم قال الشاطبيّ :

« المسألة الرابعة »

ما تقرر من أمية الشريعة وأنها جارية على مذاهب أهلها، وهم العرب، ينبني عليه قواعد :

منها ــ أن كثيرا من الناس تجاوزوا ، على الدعوى فى القرآن ، الحدّ. فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين أو المتأخرين من علوم الطبيعيات والتعاليم والمنطق وعلم الحروف وجميع مانظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهها . وهذا ، إذا عرضناه على ما تقدم ، لم يصح .

وإلى هذا ، فإن السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن يليهم كانوا أعرف بالقرآن وبعلومه ، وما أودع فيه . ولم يبلغنا أنه تكلم أحد منهم فى شىء من هذا المدّعى ، سوى ما تقدم ، وما ثبت فيه من أحكام التكاليف وأحكام الآخرة وما يلى ذلك . ولو كان لهم فى ذلك خوض ونظر لبلغنا منه ما يدلنا على أصل المسألة . إلا أن ذلك لم يكن . فدل على أنه غير موجود عندهم . وذلك دليل على أن القرآن لم يقصد فيه تقريرٌ لشىء مما زعموا . نعم ! تضمن علوماً هى من جنس علوم العرب ، أو ما ينبنى على معهودها مما يتعجب منه أولو الألباب ، ولا تبلغه إدراكات العقول الراجحة ، دون الاهتداء بأعلامه، والاستنارة بنوره. أمّا أن فيه ما ليس من ذلك فلا ، وربما استدلوا على دعواهم بقوله تعالى : « وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ »(١) وقوله: « مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ »(٢) ونحو ذلك، وبفواتح السور ، وهى مما لم يعهد عند العرب ، وبما نقل عن الناس فيها . وربما حكى من ذلك عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وغيره أشياء .

---

(١) [١٦ / النحل / ٨٩] ونصها : وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ، وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ .

(٢) [٦ / الأنعام / ٣٨] ونصها : وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ، مَافَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ .

فأما الآيات فالمراد بها عند المفسرين ما يتعلق بحال التكليف والتعبد. أو المراد بالكتاب في قوله: « مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ » اللوح المحفوظ ، ولم يذكروا فيها ما يقتضي تضمنه لجميع العلوم النقلية والعقلية . وأما فواتح السور فقد تكلم الناس فيها بما يقتضي أن للعرب بها عهداً كعدد الجمل الذي تعرفوه من أهل الكتاب ، حسبما ذكره أصحاب السير . أو هي من المتشابهات التي لا يعلم تأويلها إلا الله تعالى ، وغير ذلك . وأما تفسيرها بما لا عهد به فلا يكون ، ولم يدعه أحد ممن تقدم ، فلا دليل فيها على ما ادعوه . وما ينقل عن علي أو غيره في هذا لا يثبت ، فليس بجائز أن يضاف إلى القرآن ما لا يقتضيه ، كما أنه لا يصح أن ينكر منه ما يقتضيه ، ويجب الاقتصار، في الاستعانة على فهمه، على كل ما يضاف علمه إلى العرب خاصة . فبه يوصل إلى علم ما أودع من الأحكام الشرعية ، فمن طلبه بغير ما هو أداة له ضل عن فهمه ، وتقول على الله ورسوله فيه ، والله أعلم وبه التوفيق .

ثم قال الشاطبىّ :

فصل

ومنها ـ أنه لابد فى فهم الشريعة من اتباع معهود الأميين، وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم . فإن كان للعرب فى لسانهم عرف مستمر ، فلا يصح العدول عنه فى فهم الشريعة. وإن لم يكن ثَمّ عرف ، فلا يصح أن يجرى فى فهمها ما لا تعرفه . وهـذا جارٍ فى المعانى والألفاظ والأساليب . مثال ذلك : أن معهود العرب أن لا ترى الألفاظ تعبداً عند محافظتها على المعانى ، وإن كانت تراعيها أيضاً ، فليس أحد الأمرين عنـدها بملتزم ، بل قد تبنى على أحدهما مرّة ، وعلى الآخر أخرى ، ولا يكون ذلك قادحاً فى صحة كلامها واستقامته . والدليل على ذلك أشياء :

أحدها : خروجها فى كثير من كلامها على أحكام القوانين المطّردة، والضوابط المستمرة، وجريانها فى كثير من منثورها على طريق منظومها ، وإن لم يكن بها حاجة ، وتركها لما هو أولى فى مرامها . ولا يعد ذلك قليلًا فى كلامها ، ولا ضعيفاً ، بل هو كثير قوىّ ، وإن كان غيره أكثر منه .

والثانى : أن من شأنها الاستغناء ببعض الألفاظ عما يرادفها أو يقاربها ، ولا يعدّ ذلك اختلافاً ولا اضطراباً إذا كان المعنى المقصود على استقامة . والـكافى من ذلك نزول القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف . وفى هـذا المعنى من الأحاديث وكلام السلف العارفين بالقرآن كثير . وقد استمر أهل القرآت على أن يعملوا بالروايات التى صحت عندهم ، مما وافق المصحف ، وأنهم فى ذلك قارئون للقرآن من غير شك ولا إشـكال ، وإن كانت بين القراءتين مايعده الناظر ببادى الرأى اختلافاً فى المعنى ، لأن معنى الـكلام من أوله إلى آخره على استقامة ، لا تفاوت فيـه ، بحسب مقصود الخطاب : كمالك وملك ، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يخادعون إلا أنفسهم . لنبوئنهم من الجنـة غرفاً لنبوينهم من الجنة غرفاً .

إلى كثير من هذا ، لأن جميع ذلك لا تفاوت فيه بحسب فهم ما أريد من الخطاب ، وهذا كان عادة العرب . ألا ترى ما حكى ابن جنّى عن عيسى بن عمر ، وحكى عن غيره أيضاً ، قال : سمعت ذا الرمة ينشد :

وظاهر لها من يابس الشخت واستعن　　عليها الصبا واجعل يديك لها سترا

فقلت : أنشدتني : من بائس ، فقال : يابس وبائس واحد . فأنت ترى ذا الرمة لم يعبأ بالاختلاف بين البوس واليبس ، لمّا كان موضع البيت قائماً على الوجهين ، وصواباً على كلتا الطريقتين . وقد قال فى رواية أبى العباس الأحول : البوس واليبس واحد . يعنى بحسب قصد الكلام ، لا بحسب تفسير اللغة . وعن أحمد بن يحيي ، قال : أنشدنى ابن الأعرابىّ :

وموضع زير لا أريد مبيته　　كأنى به من شدة الروع آنس

فقال له شيخ من أصحابه : ليس هكذا ، أنشدتنا « وموضع ضيق » فقال : سبحان الله! تصحبنا منذ كذا وكذا ، ولا تعلم أن الزير والضيق واحد . وقد جاءت أشعارهم على روايات مختلفة ، وبألفاظ متباينة ، يعلم من مجموعها أنهم ما كانوا يلتزمون لفظاً واحداً على الخصوص ، بحيث يعد مرادفه أو مقاربه عيباً أو ضعفاً . إلا فى مواضع مخصوصة لا يكون ما سواها من المواضع محمولًا عليها ، وإنما معهودها الغالب ما تقدم .

والثالث : أنها قد تهمل بعض أحكام اللفظ ، وإن كانت تعتبره على الجملة ، كما استقبحوا العطف على الضمير المرفوع المتصل مطلقاً ولم يفرقوا بين ما له لفظ ، وما ليس له لفظ ، فقبح « قمت وزيد » ، كما قبح « قام وزيد » وجمعوا فى الردف بين عمود ويعود ، من غير استكراه . وواو عمود أقوى فى المد . وجمعوا بين سعيد وعمود مع اختلافهما ، وأشباه ذلك من الأحكام اللطيفة التى تقتضيها الألفاظ فى قياسها النظرىّ ، لكنها تهملها وتُوليها جانب الإعراض ، وما ذاك إلا لعدم تعمقها فى تنقيح لسانها .

والرابع : أن الممدوح من كلام العرب ، عند أرباب العربية ، ما كان بعيداً عن تكلف الاصطناع . ولذلك ، إذا اشتغل الشاعر العربىّ بالتنقيح اختلف فى الأخذ عنه . فقد كان

الأصمعيّ يعيب الحطيئة . واعتذر عن ذلك بأن قال : وجدت شعره كله جيداً ، فدلنى على أنه كان يصنعه ، وليس هكذا الشاعر المطبوع . إنما الشاعر المطبوع الذى يرمى بالكلام على عواهنه ، جيده ورديه . وما قاله هو الباب المنتهج ، والطريق المهيع عند أهل اللسان . وعلى الجملة فالأدلة على هذا المعنى كثيرة ، ومن زاول كلام العرب وقف من هذا على علم . وإذا كان كذلك ، فلا يستقيم للمتكلم فى كتاب الله أو سنة رسول الله أن يتكلف فيهما فوق ما يسعه لسان العرب ، وليكن شأنه الاعتناء بما شأنه أن تعتنى العرب به ، والوقوف عند ما حدث .

ثم قال الشاطبيّ :

فصل

ومنها ـ أنه إنما يصح فى مسلك الأفهام والفهم، ما يكون عاماً لجميع العرب ، فلا يتكلف فيه فوق مايقدرون عليه ، بحسب الألفاظ والمعانى . فإن الناس فى الفهم وتأتى التكليف فيه ، ليسوا على وزان واحد ولا متقارب . إلا أنهم يتقاربون فى الأمور الجمهوريّة وما والاها . وعلى ذلك جرت مصالحهم فى الدنيا . ولم يكونوا بحيث يتعمقون فى كل مهم ، ولا فى أعمالهم إلا بمقدار ما لا يخل بمقاصدهم . اللهم إلا أن يقصدوا أمراً خاصًّا ، لأناس خاصة . فذاك كالكنايات الغامضة ، والرموز البعيدة التى تخفى عن الجمهور ، ولا تخفى عمن قصد بها . وإلا كان خارجاً عن حكم معهودها . فكذلك يلزم أن ينزل فهم الكتاب والسنة بحيث تكون معانيه مشتركة لجميع العرب ، ولذلك أنزل القرآن على سبعة أحرف ، واشتركت فيه اللغات ، حتى كانت قبائل العرب تفهمه . وأيضاً فمقتضاه من التكليف لايخرج عن هذا النمط . لأن الضعيف ليس كالقويّ ، ولا الصغير كالكبير، ولا الأنثى كالذكر ، بل كل له حد ينتهى إليه فى العبارة الجارية . فأخذوا بما يشترك الجمهور فى القدرة عليه ، وألزموا ذلك من طريقهم بالحجة القائمة والموعظة الحسنة ، ونحو ذلك . ولو شاء الله لألزمهم ما لا يطيقون ، ولكلفهم بغير قيام حجة ، ولا إتيانٍ ببرهان ، ولا وعظ ولا تذكير ، ولطوّقهم فهم ما لا يفهم ، وعلم ما لا يعلم ، فلا حجر عليه فى ذلك ، فإن حجة الملك قائمة « قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ »(١) لكن الله سبحانه خاطبهم من حيث عهدوا ، وكلفهم من حيث لهم القدرة على ما به كلفوا، وَغَدَوْا فى أثناء ذلك بما يستقيم به منآدهم ، ويقوى به ضعيفهم ، وتنتهض به عزائمهم ، من الوعد تارة ، والوعيد أخرى ، والموعظة الحسنة أخرى ، وبيان مجارى العادات فيمن سلف

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٩] ونصها : قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ .

من الأمم الماضية ، والقرون الخالية ، إلى غير ذلك ممـا فى معناه . حتى يعلموا أنهم لم ينفردوا بهذا الأمر دون الخلق الماضين ، بل هم مشتركون فى مقتضاه ، ولا يكونون مشتركين إلا فيما لهم مُنّة على تحمله . وزادهم تخفيفاً دون الأولين ، وأجرى فوقهم فضـلًا من الله ونعمة ، والله عليم حكيم. وقد خرّج الترمذىّ، وصححه عن أبىّ بن كعب،قال[1]: لقى رسول الله ﷺ جبريل فقـال : يا جبريل ! إنى بعثت إلى أمة أميين ، منهم العجوز والشيخ الـكبير والغلام والجارية والرجل الذى لم يقرأ كتاباً قط ، قال : يا محمد ! إن القرآن أنزل على سبعة أحرف .

فالحاصل أن الواجب فى هذا المقام إجراء الفهم فى الشريعة على وزان الاشتراك الجمهورىّ الذى يسع الأميين ، كما يسع غيرهم .

---

(١) انظر الحاشية رقم ٣ ص ٨٠ .

ثم قال الشاطبىّ :

فصل

ومنها ـ أن يكون الاعتناء بالمعانى المبثوثة فى الخطاب هو المقصود الأعظم ، بناء على أن العرب إنما كانت عنايتها بالمعانى ، وإنما أصلحت الألفاظ من أجلها . وهذا الأصل معلوم عند أهل العربية . فاللفظ إنما هو وسيلة إلى تحصيل المعنى المراد ، والمعنى هو المقصود . ولا أيضاً كل المعانى . فإن المعنى الإفرادىّ قد لا يعبأ به إذا كان المعنى التركيبىّ مفهوماً دونه . كما لم يعبأ ذو الرمة ببائس ولا يابس ، اتـكالًا منه على أن حاصل المعنى مفهوم . وأبين من هـذا ما فى جامع الإسماعيلىّ المخرج على صحيح البخارىّ عن أنس بن مالك ، أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قرأ[1] « فاكهة وأبًّا » قال : ما الأبُّ ؟ ثم قال : ما كلفنا هـذا . أو قال : ما أمرنا بهذا . وفيه أيضاً عن أنس أن رجلًا سأل عمر بن الخطاب عن قوله[1] : « فاكهة وأبًّا » ما الأبّ ؟ فقال عمر : نهينا عن التعمق والتكلف . ومن المشهور[2] تأديبه لضبيع

---

(١) جاء فى تفسير ابن كثير ما يأتى :

وقال أبو عبيد أيضاً : عن حميد عن أنس أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر (وفاكهة وأبًّا) فقال : هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأبُّ ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال : إن هـذا لهو التكلف يا عمر .

وقال محمد بن سعد : ثنا سليمان بن حرب ثنا حماد بن زيد عن ثابت عن أنس قال : كنا عند عمر بن الخطاب رضى الله عنـه ، وفى ظهر قميصه أربع رقاع . فقرأ (وفاكهة وأبًّا) فقال : فما الأبّ ؟ ثم قال : هو التـكلف ، فما عليك أن لا تدريه ؟

(٢) جاء فى مسند الدارمىّ ، بالباب الثانى عشر من المقدمة ـ باب كراهية الفتيا ـ ما يأتى :
أخبرنا أبو النعمان ، ثنا حماد بن زيد ، ثنا يزيد بن حازم عن سليمان بن يسار أن رجـلا يقال له صبيغ قدم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن . فأرسل إليه عمر ، وقد أعدّ له =

حين كان يكثر السؤال عن المرسلات والعاصفات ونحوها. وظاهر من هذا كله أنه إنما نهى عنه لأن المعنى التركيبيّ معلوم على الجملة، ولا ينبنى على فهم هذه الأشياء حكم تكليفىّ، فرأى أن الاشتغال به عن غيره، مما هو أهم منه، تكلف. ولهذا أصلٌ فى الشريعة صحيح، نبَّهَ عليه قوله تعالى: « لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ . . . »[1] إلى آخر الآية. فلو كان فهم اللفظ الإفرادىّ يتوقف عليه فهمُ التركيبىّ لم يكن تكلفاً، بل هو

= عراجين النخل. فقال: من أنت؟ قال: عبد الله صبيغ. فأخذ عمر عرجونا من تلك العراجين فضربه، وقال: أنا عبد الله عمر. فجعل له ضرباً حتى دمَّى رأسه. فقال: يا أمير المؤمنين! حسبك. قد ذهب الذى كنت أجد فى رأسى.

وفيه أيضاً: أخبرنا عبد الله بن صالح. حدثنى الليث. أخبرنى ابن عجلان عن نافع مولى عبدالله أن صبيغاً العراقىّ جعل يسأل عن أشياء من القرآن فى أجناد المسلمين حتى قدم مصر. فبعث به عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب. فلما أتاه الرسول بالكتاب فقرأه فقال: أين الرجل؟ فقال: فى الرَّحْل. فقال عمر: أبصرْ أن يكون ذهب فتصيبك منى به العقوبة الموجعة. فأتاه فقال عمر: تسأل محدَثةً؟ فأرسل إلى رطائب من جريد فضربه بها حتى ترك ظهره دبرة. ثم تركه حتى برَأ. ثم عاد له. ثم تركه حتى برأ. فدعا به ليعود له قال فقال صبيغ: إن كنت تريد قتلى فاقتلنى قتلا جميلا، وإن كنت تريد أن تداوينى، فقد، والله، برأتُ. فأذن له إلى أرضه، وكتب إلى أبى موسى الأشعرىّ أن لا يجالسه أحد من المسلمين. فاشتد ذلك على الرجل. فكتب أبو موسى إلى عمر أنه قد حسنت توبته. فكتب عمر أن يأذن للناس بمجالسته.

(١) [٢ / البقرة / ١٧٧] ونصها: لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِى الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا، وَالصَّابِرِينَ فِى الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ.

مضطر إليه . كما روى عن عمر نفسه فى قوله تعالى : « أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ »(١) فإنه سأل عنه على المنبر . فقال له رجل من هذيل : التخوف عندنا التنقص . ثم أنشده :

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ مِنْهَا تَامِكاً قَرِدًا كما تَخَوَّفَ عُودَ النَّبْعَةِ السَّفَنُ(٢)

فقال عمر : أيها الناس! تمسكوا بديوان شعركم فى جاهليتكم ، فإن فيه تفسير كتابكم. فليس بين الخبرين تعارض . لأن هذا توقف فهم معنى الآية عليه ، بخلاف الأول . فإذا كان الأمر هكذا فاللازم الاعتناء بفهم معنى الخطاب ، لأنه المقصود والمراد . وعليه ينبنى الخطاب ابتداءً . وكثيراً ما يُغْفَل هذا النظر بالنسبة للكتاب والسنة ، فتلتمس غرائبه ومعانيه على غير الوجه الذى ينبغى ، فتستبهم على الملتمس ، وتستعجم على من لم يفهم مقاصد العرب ، فيكون عمله فى غير معمل ، ومشيه على غير طريق . والله الواقى برحمته .

---

(١) [١٦ / النحل / ٤٧] ونصها : أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ .

(٢) جاء فى الأمالى ، ج ٢ ص ١١٢ ما يأتى :

قال أبو علىّ : التامك : المرتفع من السنام . والقَرِدُ : المتلبد بعضه على بعض . والسَّفَنُ: المبرد .

وقال شارح شواهد الكشاف: يصف ناقة أثَّر الرحل فى سنامها وتنقص منها كما ينقص السفن من العود .

فصل

فى أن بيـان الصحابة حجة إذا أجمعوا

قال الشاطبىّ فى الموافقات : بيان رسول الله ﷺ بيان صحيح لا إشـكال فى صحته . لأنه لذلك بعث . قال تعـالى : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »(١) ولا خلاف فيه . وأما بيان الصحابة ، فإن أجمعوا على ما بينوه ، فلا إشـكال فى صحته أيضاً . كما أجمعوا على الغسل من التقاء الختانين المبيّن لقوله تعالى : «وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا»(٢) وإن لم يجمعوا عليه ، فهل يكون بيانهم حجة أم لا ؟ هذا فيه نظر وتفصيل، ولـكنهم بترجح الاعتماد عليهم فى البيان من وجهين :

أحدها : معرفتهم باللسان العربىّ ، فإنهم عرب فصحاء ، لم تتغير ألسنتهم ، ولم تنزل عن رتبتها العليا فصاحتُهُمْ ، فهم أعرف فى فهم الـكتاب والسنة من غيرهم ، فإذا جاء عنهم قول أو عمل واقع موقع البيان ، صح اعتماده من هذه الجهة .

والثانى : مباشرتهم للوقائع والنوازل ، وتنزيل الوحى بالـكتاب والسنة ، فهم أقعد فى فهم القرائن الحالية ، وأعرف بأسباب التنزيل ، ويدركون ما لا يدركه غيرهم بسبب ذلك . والشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، فمتى جاء عنهم تقييد بعض المطلقات ، أو تخصيص بعض العمومات ، فالعمل عليه صواب .

هذا ، إن لم ينقل عن أحد منهم خلاف فى المسألة . فإن خالف بعضهم، فالمسألة اجتهادية.

---

(١) [١٦ / النحل / ٤٤] ونصها : بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ، وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ .

(٢) [٥ / المائدة / ٦] ونصها: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ، وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا . . .

مثاله قوله عليه السلام : لا يزال النـاس بخير ما عجلوا الفطر[١] ، فهذا التعجيل يحتمل أن يقصد به إيقاعه قبـل الصلاة ، ويحتمل أن لا . فـكان عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان يصليان المغرب قبل أن يفطرا . ثم يفطران بعد الصلاة ، بياناً أن هـذا التعجيل لايلزم أن يكون قبل الصلاة ، بل إذا كان بعد الصلاة فهو تعجيل أيضاً ، وأن التأخير الذى يفعله أهل المشرق شيء آخر ، داخل فى التعمق المنهىّ عنه ، وكذلك ذكر عن اليهود أنهم يؤخرون الإفطار فندب المسلمون إلىالتعجيل. وكذلك قال عليه السلام : لاتصوموا حتى تروا الهلال، ولا تفطروا حتى تروه[٢] ، احتمل أن تـكون الرؤية مقيدة بالأكثر ، وهو أن يرى بعد غروب الشمس . فبيّن عثمان أن ذلك غير لازم ، فرأى الهلال فى خلافته قبل الغروب ، فلم يفطر حتى أمسى وغابت الشمس .

وتأمل . فعادة مالك بن أنس فى موطئه وغيره الإتيـان بالآثار عن الصحابة . مبيناً بها السنن ، وما يعمل به منها ، وما لا يعمل به . وما يقيّد به مطلقاتها . وهو دأبه ومذهبه لما تقدم ذكره .

ومما بَيَّنَ كلامُهم اللغةَ أيضاً. كما نقل مالك فى دلوك الشمس وغسقالليل كلام ابنعمر وابن عباس، وفى معنى السعى عن عمر بن الخطاب أعنى قوله تعالى : « فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِاللهِ

---

(١) سنن أبى داود فى : ١٤ ـ كتاب الصوم ، ٢٠ ـ باب مايستحب من تعجيلالفطر ح ٣٥٣ ، ونصه :

عن أبى هريرة عن النبىّ ﷺ قال : « لا يزال الدين ظاهرا ما عجّل الناس الفطر ، لأن اليهود والنصارى يؤخرونه » .

(٢) صحيح البخارىّ فى : ٣٠ ـ كتاب الصوم ، ١١ ـ باب قول النبىّ ﷺ إذا رأيتم الهلال ... الخ ونصه :

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ ذكر رمضان فقال « لاتصوموا حتى تروا الهلال ولا تفطروا حتى تروه . فإن غم عليكم فاقدروا له » .

وَذَرُوا الْبَيْعَ »[١] . وفى معنى الأخوة أن السنة قضت أن الأخوة اثنان فصاعدا . كما تبين بكلامهم معنى الكتاب والسنة .

لايقال: إنهذا المذهب راجع إلىتقليد الصحابىّ، وقد عرفت مافيه من النزاع والخلاف. لأنا نقول: نعم. هو تقليد ، ولكنه راجع إلى مالا يمكن الاجتهاد فيه على وجهه ، إلا لهم، لما تقدم من أنهم عرب ، وفرق بين من هو عربىّ الأصل والنحلة وبين من تعرّب : (غلب التطبع شيمةُ المطبوع) وأنهم شاهدوا من أسباب التكاليف وقرائن أحوالها ما لم يشاهد مَن بعدهم . ونقلُ قرائن الأحوال على ما هو عليه كالمتعذر ، فلابد من القول بأن فهمهم فى الشريعة أتم وأحرى بالتقديم . فإذا جاء فى القرآن أو فى السنة من بيانهم ما هو موضوع موضع التفسير ، بحيث لو فرضنا عدمه ، لم يمكن تنزيل النص عليه على وجهه ، انحتم الحكم بإعمال ذلك البيان ، لما ذكر ، ولما جاء فى السنة من اتباعهم والجريان على سننهم . كما جاء فى قوله عليه السلام : عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ[٢] ، وغير ذلك من الأحاديث فإنها عاضدة بهذا المعنى فى الجملة . أما

---

(١) [٦٢/ الجمعة / ٩] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

(٢) سنن أبى داود فى : ٣٩ ـ كتاب السنّة ، ٥ ـ باب فى لزوم السنة ، ح ٤٦٠٧

ونصه :

عن العرباض : صلّى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم . ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب . فقال قائل: يا رسول الله ! كأن هذه موعظة مودّع، فماذا تعهد إلينا ؟ فقال « أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبداً حبشياً . فإنه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافاً كثيراً . فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء المهديين الراشدين . تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ . وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة » .

إذا علم أن الوضع موضع اجتهاد لا يفتقر إلى ذينك الأمرين فَهُمْ وَمَن سواهم فيه شَرَع ، سواء . كمسألة العَوْل والوضوء من النوم، وكثير من مسائل الربا التى قال فيها عمر بن الخطاب: مات رسول الله ﷺ ولم يبين لنا آية الربا . فدعوا الربا والريبة . أو كما قال .

فمثل هذه المسائل موضع اجتهاد للجميع ، لا يختص به الصحابة دون غيرهم من المجتهدين. وفيه خلاف بين العلماء أيضاً . فإن منهم من يجعل قول الصحابى ورأيه حجة يرجع إليها ويعمل عليها من غير نظر، كالأحاديث والاجتهادات النبوية . وهو مذكور فى كتب الأصول. فلا يحتاج إلى ذكره ههنا .

فصل

فى أن كل حكاية فى القرآن لم يقع لها ردّ فهى صحيحة

قال الشاطبىّ : كل حكاية وقعت فى القرآن ، فلا يخلو أن يقع قبلها أو بعدها ، وهو الأكثر ، ردٌّ لها أوْ لَا ، فإن وقع رد فلا إشكال فى بطلان ذلك المحكىّ وكذبه . وإن لم يقع معها رد ، فذلك دليل على صحة المحكىّ وصدقه .

أما الأول فظاهر ولا يحتاج إلى برهان . ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: « إِذْ قَالُوا مَاأَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَىْءٍ »(١) فأعقب بقوله : « قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ ... »(١) الآية . وقال: « وَجَعَلُوا لِلهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا ...»(٢) الآية ، فوقع التنكيت على افتراء مازعموا بقوله: « بِزَعْمِهِمْ »وبقوله: «سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ »(٢) وقالوا«هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ »(٣) إلى تمامه. وردّ بقوله:«سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »(٣)

---

(١) [٦ / الأنعام / ٩١] ونصها : وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَىْءٍ ، قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ ، تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا، وَعُلِّمْتُمْ مَالَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ، قُلِ اللهُ ، ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٣٦] ونصها : وَجَعَلُوا لِلهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا، فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللهِ ، وَمَا كَانَ لِلهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ.

(٣) [٦ / الأنعام / ١٣٨] ونصها : وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ ، سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

ثم قال : « وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَـٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ . . . »(١) الآية ، فنبه على فساده بقوله : « سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ »(١) زيادة على ذلك . وقال تعالى : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ »(٢) فرد عليهم بقوله : « فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا »(٢) ثم قال : « وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ . . . »(٣) الآية. فرد بقوله : « قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ . . . »(٣) الآية . ثم قال : « وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا »(٤) ثم قال تعالى : « انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا »(٥) وقال تعالى : « وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَـٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ۞ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَـٰهًا وَاحِدًا »(٦)

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٣٩] ونصها : وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَـٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ، سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ، إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٤] ونصها : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ، فَقَدْ جَاءُو ظُلْمًا وَزُورًا .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ٥و٦] ونصهما: وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۞ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا .

(٤) [٢٥ / الفرقان / ٨] ونصها: أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ، وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا .

(٥) [٢٥ / الفرقان / ٩] ونصها : انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا .

(٦) [٣٨ / ص / ٤ ـ ٨] ونصها : وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ، وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَـٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ۞ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَـٰهًا وَاحِدًا ، إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۞ وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ ءَالِهَتِكُمْ ، إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۞ =

إلى قوله : « ءَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا » ثم رد عليهم بقوله : « بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي » إلى آخر ما هنالك . وقال : « وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا »(١) ثم ردّ عليهم بأوجه كثيرة ثبتت فى أثناء القرآن كقوله : « بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ »(٢) وقوله : « بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ »(٣) وقوله : « سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ . . . »(٤) الآية ، وقوله : « تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ »(٣) إلى آخره وأشباه ذلك .

ومن قرأ القرآن وأحضره فى ذهنه عرف هذا بيُسْرٍ .

وأما الثانى ـ نظاهر أيضاً . ولكن الدليل على صحته من نفس الحكاية وإقرارها ، فإن القرآن سمى فرقاناً وهدًى وبرهاناً وبياناً وتبياناً لكل شيء ، وهو حجة الله على الخلق ، على الجملة والتفصيل ، والإطلاق والعموم . وهذا المعنى يأبى أن يُحكى فيه ماليس بحق ، ثم لا ينبَّه عليه .

= مَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ * أَءُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ، بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي ، بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ .

(١) [٢ / البقرة / ١١٦] ونصها: وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا، سُبْحَانَهُ ، بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ .

(٢) [٢١ / الأنبياء / ٢٦] نصها : وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ، بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ .

(٣) [١٠ / يونس / ٦٨] ونصها : قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا، سُبْحَانَهُ ، هُوَ الْغَنِيُّ ، لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهٰذَا ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

(٤) [١٩ / مريم / ٨٨ ـ ٩٥] ونصها : وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا ءَاتِي الرَّحْمٰنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا.

وأيضاً فإن جميع ما يحكى فيه من شرائع الأولين وأحكامهم ولم ينبه على إفسادهم وافترائهم فيه ، فهو حق يجعل عمدة ، عند طائفة ، فى شريعتنا . ويمنعه قوم ، لا من جهة قدح فيه، ولكن من جهة أمر خارج عن ذلك . فقد اتفقوا على أنه حق وصدق كشريعتنا. ولايفترق مابينهما إلا بحكم النسخ فقط ، ولو نبه على أمر فيه لكان فى حكم التنبيه على الأول، كقوله تعالى : « وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ... »(١) الآية ، وقوله : « يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ . . . »(٢) الآية ، وكذلك قوله تعالى: « مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ »(٣) فصار هذا من النمط الأول .

ومن أمثلة هذا القسم جميع ما حكى عن المتقدمين من الأمم السالفة مما كان حقًّا . كحكايته عن الأنبياء والأولياء . ومنه قصة ذى القرنين ، وقصة الخضر مع موسى عليه السلام ، وقصة أصحاب الكهف . وأشباه ذلك .

---

(١) [٢ / البقرة / ٧٥] ونصها : أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

(٢) [٥ / المائدة / ٤١] ونصها : يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا ، سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ، يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ، وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا ، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ، لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

(٣) [٤/النساء/٤٦] ونصها: مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِنْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا .

ثم قال الشاطبىّ :

فصل

وَلِاطِّراد هذا الأصل اعتمده النظار . فقد استدل جماعة من الأصوليين على أن الكفار مخاطبون بالفروع بقوله تعالى: «قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۞ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ...»(١) الآية ، إذ لو كان قولهم باطلًا لَرُدَّ عند حكايته . واستدل على أن أصحاب الكهف سبعة وثامنهم كلبهم بأن الله تعالى لما حكى من قولهم إنهم ثلاثة رابعهم كلبهم وإنهم خمسة سادسهم كلبهم ، أعقب ذلك بقوله : « رَجْمًا بِالْغَيْبِ »(٢) ، أى ليس لهم دليل ولا علم غير اتباع الظن . ورجم الظنون لا يغنى من الحق شيئاً ؛ ولما حكى قولهم سبعة وثامنهم كلبهم لم يتبعه بإبطالٍ ، بل قال : « قُلْ رَبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ »(٢) دلَّ المساقُ على صحته دون القولين الأولين . وروى عن ابن عباس أنه كان يقول : أنا من ذلك القليل الذى يعلمهم . ورأيت منقولاً عن سهل بن عبد الله أنه سئل عن قول إبراهيم عليه السلام : « رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ »(٣) فقيل له : أكان شاكّا حين سأل ربه أن يريه آية ؟ فقال: لا ، وإنما كان طلب زيادة إيمان إلى إيمان . ألا تراه قال: «أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ»(٣)

---

(١) [٧٤/المدثر/٤٣و٤٤] ونصهما : قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۞ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ .

(٢) [١٨ / الكهف / ٢٢] ونصها: سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ ، وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ، قُلْ رَبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ، فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِنْهُمْ أَحَدًا .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٦٠] ونصها: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ، قَالَ أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ ، قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ، قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

فلو علم منه شكا لأظهر ذلك . فصح أن الطمأنينة كانت على معنى الزيادة فى الإيمان . بخلاف ما حكى الله عن قوم من الأعراب فى قوله : « قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا »[1] فإن الله تعالى رد عليهم بقوله : « قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ »[1] .

ومن تتبع مجارى الحكايات فى القرآن ، عرف مداخلها وما هو منها حق مما هو باطل. فقد قال تعالى : « إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ »[2] إلى آخرها ، فإن هذه الحكاية ممزوجة الحق بالباطل ، فظاهرها حق وباطنها كذب ، من حيث كان إخباراً عن المعتقد ، وهو غير مطابق ، فقال تعالى : « وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ »[2] تصحيحاً لظاهر القول . وقال: « وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ » إبطالاً لما قصدوا فيه . وقال تعالى: « وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »[3] الآية ، وسبب نزولها ما خرجه الترمذىّ ، وصححه عن ابن عباس ، قال[4] : مر يهودىّ

---

(١) [٤٩ / الحجرات / ١٤] ونصها : قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ، قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ، وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٢) [٦٣ / المنافقون / ١] ونصها: إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ .

(٣) [٣٩ / الزمر / ٦٧] ونصها : وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

(٤) جامع الترمذىّ عن ابن عباس فى : ٤٤ ــ كتاب التفسير ، ٣٩ ــ سورة الزمر ، ٤ ــ حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن ...

والرواية الأخرى أخرجها البخارىّ فى صحيحه فى: ٩٧ ــ كتاب التوحيد ، ١٩ ــ باب قول الله تعالى لما خلقت بيدىّ ، عن عبد الله بن مسعود .

بالنبيّ ﷺ ، فقال له النبيّ ﷺ : حـدثنا يا يهوديّ ! فقال : كيف تقول يا أبا القاسم إذا وضع الله السموات على ذه والأرضين على ذه والماء على ذه والجبال على ذه وسائر الخلق على ذه (وأشار الراوى بخنصره أولًا ثم تابع حتى بلغ الإبهام) فأنزل الله « وما قدروا الله حق قدره » . وفى رواية أخرى : جاء يهوديّ إلى النبيّ ﷺ فقال : يا محمـد ! إن الله يمسك السموات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والجبال على إصبع ، والخلائق على إصبع ، ثم يقول : أنا الملك ! فضحك النبيّ ﷺ حتى بدت نواجذه . قال : « وما قدروا الله حق قدره » . وفى رواية فضحك النبيّ ﷺ تعجباً وتصديقاً . والحديث الأول كأنه مفسر لهذا، وبمعناه يتبين معنى قوله : « وما قدروا الله حق قدره » فإن الآية بينت أن كلام اليهوديّ حق فى الجملة ، وذلك قوله : « والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه » وأشارت إلى أنه لم يتأدب مع الربوبية وذلك ـ والله أعلم ـ لأنه أشار إلى معنى الأصابع بأصابع نفسه ، وذلك مخالف للتنزيه للبارى سبحانه ، فقال : « وما قدروا الله حق قدره » .

وقال تعـالى : « وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّـبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ »(١) أى يسمع الحق والباطل، فرد الله عليهم فيما هو باطل وأحق الحق، فقال : «قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَـكُمْ»(١) الآية ، ولمـا قصدوا الأذيّةَ بذلك الـكلام قال تعالى : « وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »(١) . وقال تعـالى : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَـكُمُ اللهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ »(٢) فهذا منهم امتناع عن الإنفاق بحجة، قصدهم فيها الاستهزاء ، فرد عليهم بقوله : « إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ »(٢)

---

(١) [٩ / التوبة / ٦١] ونصها : وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّـبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ، قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَـكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْـكُمْ، وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

(٢) [٣٦ / يس / ٤٧] ونصها: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَـكُمُ اللهُ قَالَ الَّذِينَ كَـفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ .

لأن ذلك حَيْد عن امتثال الأمر . وجواب « أنفقوا » أن يقال: « نعم أوْ لا » وهو الامتثال أو العصيان . فلما رجعوا إلى الاحتجاج على الامتناع بالمشيئة المطلقة التى لا تعارض ، انقلب عليهم من حيث لم يعرفوا . إذ حاصلهم أنهم اعترضوا على المشيئة المطلقة بالمشيئة المطلقة ، لأن الله شاء أن يكلفهم الإنفاق ، فكأنهم قالوا : كيف يشاء الطلبَ منا ، ولو شاء أن يطعمهم لأطعمهم ، وهذا عين الضلال فى نفس الحجة . وقال تعالى : « وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ »(1) إلى قوله : « وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً » فقوله: « فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ »(1) تقرير لإصابته عليه السلام — فى ذلك ، الحكم — ، وإيماء إلى خلاف ذلك فى داود عليه السلام ، لكن لما كان المجتهد معذوراً مأجوراً بعد بذله الوسع ، قال : « وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً »(1) وهذا من البيان الخفىّ فيما نحن فيه .

قال الحسن: والله ! لولا ماذكر الله من أمر هذين الرجلين لرأيت أن القضاة قد هلكوا. فإنه أثنى على هذا بعلمه ، وعذر هذا باجتهاده . والنمط هنا يتسع ، ويكفى منه ما ذكر ، وبالله التوفيق .

---

(1) [٢١ / الأنبياء / ٧٨و٧٩] ونصهما: وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ✡ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ، وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ، وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ، وَكُنَّا فَاعِلِينَ .

ثم اعلم أن قصص القرآن الكريم لا يراد بها سرد تاريخ الأمم أوالأشخاص ، وإنما هى عبرة للناس. كما قال تعالى فى سورة هود ، بعدما ذكر موجزاً من سيرة الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم : « وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ .. »(١) الخ ، ولذلك لاتذكر الوقائع والحوادث بالترتيب ، ولا تستقصى فيذكر منها الطمّ والرمّ ، ويؤتى فيها بالجرّة وأُذن الجرة ، كما فى بعض الكتب، التى تسميها الملل الأخرى مقدسة . وللعبرة وجوه كثيرة . وفى تلك القصص فوائد عظيمة ، وأفضل الفوائد وأهم العبر فيها التنبيه على سنن الله تعالى فى الاجتماع البشرىّ ، وتأثير أعمال الخير والشر فى الحياة الإنسانية . وقد نبه الله تعالى على ذلك فى مواضع من كتابه كقوله : « وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ »(٢) . وقوله : « سُنَّةَ اللهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ »(٣) . يذكر أمثال هـــذا بعد بيان أحوال الأمم فى غمط الحق والإعراض عنه ، والغرور بما أوتوا ، ونحو ذلك . فالآية الأولى جاءت فى سياق الكلام عن المعرضين عن الحق لايلوون عليــه ولا ينظرون فى أدلته لانهماكهم فى ترفهم وسرفهم ، وجمودهم على عاداتهم وتقاليدهم . والآية الثانية : جاءت فى سياق محاجّة الكافرين والتذكير بما كان من شأنهم مع الأنبياء ، وبَعْدَ الأمر فى السير فى الأرض والنظر فى عاقبة الأمم القوية ذات القوة والآثار فى الأرض ، وكيف هلكوا بعدما دعوا إلى الحق والتهذيب فلم يستجيبوا ، لما صرفهم من الغرور بمـا كانوا فيه ، ولم ينفعهم إيمانهم عند ما نزل بهم بأس الله وحَلّ بهم عذاب التفريط والاسترسال فى الكفر وآثاره السوءى . وليس المراد ، بنفى كون قصص القرآن تاريخاً، أنَّ التاريخ شىء باطل ضارّ ينزه القرآن عنه. كلا . إن قصصه شذور من التاريخ تعلم الناس كيف ينتفعون بالتاريخ .

---

(١) [١١ / هود / ١٢٠] ونصها : وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ، وَجَاءَكَ فِى هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ .

(٢) [١٥ / الحجر / ١٣] ونصها : لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ .

(٣) [٤٠ / غافر/ ٨٥] ونصها : فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ، سُنَّةَ اللهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِ ، وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ .

فمثل ما فى القرآن من التاريخ البشرىّ كمثل ما فيـه من التاريخ الطبيعىّ من أحوال الحيوان والنبات والجماد ، ومثل ما فيه من الـكلام فى الفلَك . يراد بذلك كله التوجيه إلى العبرة والاستدلال على قدرة الصانع وحكمته ؛ لا تفصيل مسائل العلوم الطبيعية والفلـكية التى مكن الله البشر من الوقوف عليها بالبحث والنظر والتجربة ، وهَدَاهُمْ إلى ذلك بالفطرة وبالوحى معاً .

١٠ — قاعدة الترغيب والترهيب فى التنزيل الكريم :

قال الشاطبيّ : إذا ورد فى القرآن الترغيب ، قارنه الترهيب فى لواحقه أو سوابقه أو قرائنه . وبالعكس . وكذلك الترجية مع التخويف وما يرجع إلى هذا المعنى، مثله . ومنه ذكر أهل الجنة يقارنه ذكر أهل النار وبالعكس . لأن فى ذكر أهل الجنة بأعمالهم ترجية. وفى ذكر أهل النار بأعمالهم تخويفاً . فهو راجع إلى الترجية والتخويف . ويدل على هذه الجملة عرض الآيات على النظر . فأنت ترى أن الله جعل الحمد فاتحة كتابه وقد وقع فيه « اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ »[١] إلى آخرها . فجىء بذكر الفريقين . ثم بدئت سورة البقرة بذكرها أيضاً . فقيل : « هُدًى لِلْمُتَّقِينَ » . ثم قال : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ »[٢] ثم ذُكِر بأثرهم المنافقون . وهم صنف من الكفار . فلما تم ذلك أعقب بالأمر بالتقوى ثم بالتخويف بالنار ، وبعده بالترجية . فقال : « فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ »[٣] إلى قوله : « وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا » الآية ثم قال : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا »[٤] الآية . ثم ذكر فى قصة آدم مثل هذا . ولما ذُكِّرَ بنو إسرائيل بنعم الله عليهم

(١) [١ / الفاتحة / ٦] ونصها : اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ .

(٢) [٢ / البقرة / ٦] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٤] ونصها : فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ، أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ .

(٤) [٢ / البقرة / ٢٦] ونصها : إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ، فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا . يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ، وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ .

ثم اعتدائهم وكفرهم ، قيل : « إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا »(١) إلى قوله « هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » . ثم ذكر تفاصيل ذلك الاعتداء إلى أن ختم بقوله : « وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ »(٢) . وهذا تخويف . ثم قال : « وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ »(٣) الآية وهو ترجية . ثم شرع فى ذكر ما كان من شأن المخالفين فى تحويل القبلة ثم قال : « بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ »(٤) الآية . ثم ذكر من شأنهم « الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ »(٥) . ثم ذكر قصة إبراهيم عليه السلام وبنيه . وذكر فى أثنائها التخويف

---

(١) [٢ / البقرة / ٦٢] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ، إلى آخر الآية رقم ٨١ .

(٢) [٢ / البقرة / ١٠٢] ونصها : وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ، وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ، فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ، وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ، وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

(٣) [٢ / البقرة / ١٠٣] ونصها : وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

(٤) [٢ / البقرة / ١١٢] ونصها: بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

(٥) [٢ / البقرة / ١٢١] ونصها : الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ .

والترجية . وختمها بمثل ذلك . ولا يطول عليك زمان إنجاز الوعد فى هـذا الاقتران ، فقد يكون بينهما أشياء معترضة فى أثناء المقصود ، والرجوع بعدُ إلى ماتقرر . وقال تعالى فى سورة الأنعام ، وهى فى المكيات نظير سورة البقرة فى المدنيات: « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ » إلى قوله : « ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ »(١) . وذكر البراهين التامة ثم أعقبها بكفرهم وتخويفهم بسببه ، إلى أن قال : « كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ »(٢) فأقسم بكتب الرحمة على إنفاذ الوعيد على من خالف . وذلك يعطى التخويف تصريحاً ، والترجية ضمناً . ثم قال : « إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ »(٣) فهذا تخويف ، وقال: «مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ»(٤) الآية. وهذا ترجية، وكذا قوله : « وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ »(٥) الآية . ثم مضى فى ذكر التخويف حتى قال: «وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ»(٦). ثم قال: « إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ

---

(١) [٦ / الأنعام / ١] ونصها : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ، ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٢] ونصها : قُلْ لِمَنْ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، قُلْ لِلَّهِ ، كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ، لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ، الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

(٣) [٦ / الأنعام / ١٥] ونصها : قُلْ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .

(٤) [٦ / الأنعام / ١٦] ونصها : مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ، وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ .

(٥) [٦ / الأنعام / ١٧] ونصها : وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ .

(٦) [٦ / الأنعام / ٣٢] ونصها : وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ، وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

الَّذِينَ يَسْمَعُونَ »(١) ونظيره قوله: «وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ»(٢) الآية . ثم ذكر مايليق بالموطن إلى أن قال: « وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ »(٣) الآية .

واجْرِ فى النظر على هذا الترتيب يَلُحْ لك وجه الأصل المنبه عليه . ولولا الإطالة لبسط فى ذلك كثير .

---

(١) [٦ / الأنعام / ٣٦] ونصها: إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ . وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ .

(٢) [٦ / الأنعام / ٣٩] ونصها : وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ، مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

(٣) [٦ / الأنعام / ٤٨] ونصها : وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

ثم قال الشاطبىّ :

فصل

وقد يغلب أحد الطرفين بحسب المواطن ومقتضيات الأحوال . فَيَرِدُ التخويف ويتسع مجاله . لكنه لا يخلو من الترجية . كما فى سورة الأنعام . فإنها جاءت مقررة للخلق ومنكرة على من كفر بالله واخترع من تلقاء نفسه ما لا سلطان له عليه ، وصدّ عن سبيله ، وأنكر ما لا ينكر ، ولدّ فيه وخاصم . وهذا المعنى يقتضى تأكيد التخويف من إطالة التأنيب والتعنيف . فكثرت مقدماته ولواحقه . ولم يخل ، مع ذلك ، من طرف الترجية . لأنهم بذلك مدعوون إلى الحق . وقد تقدم الدعاء . وإنما هو مزيد تكرار ، إعذاراً وإنذاراً . ومواطن الاغترار يطلب فيها التخويف أكثر من طلب الترجية . لأن درء المفاسد آكد . وترد الترجية أيضا ويتسع مجالها . وذلك فى مواطن القنوط ومظنته . كما فى قوله تعالى : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً »[1] الآية . فإن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا وزنوا وأكثروا . فأتوا محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم فقالوا : إن الذى تقول وتدعو إليه لَحَسَن ، لو تخبرنا : أنَّ لما عملنا كفارة . فنزلت. فهذا موطن خوف يخاف منه القنوط . فجىء فيه

---

(١) [٣٩ / الزمر / ٥٣] ونصها : قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .

جاء فى صحيح البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣٩ ـ سورة الزمر ، ١ ـ باب قوله: يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم .

عن ابن عباس رضى الله عنهما: أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا وزنوا وأكثروا . فأتوا محمداً ﷺ فقالوا : إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة. فنزل : وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ . ونزلت: قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ .

بالترجية غالبة . ومثل ذلك الآية الأخرى : « وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ »[1] . وانظر فى سببها فى الترمذىّ والنسائىّ وغيرهما .

ولما كان جانب الإخلال من العباد أغلب ، كان جانب التخويف أغلب . وذلك فى مظانه الخاصة ، لا على الإطلاق . فإنه إذا لم يكن هنالك مظنة هذا ولا هـذا أتى الأمر معتدلا . فإن قيل : هذا لا يطرد . فقد ينفرد أحد الأمرين فلا يؤتى معه بالآخر ، فيأتى التخويف من غير ترجية، وبالعكس . ألا ترى قوله تعالى : « وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ »[2] إلى آخرها ، فإنها كلها تخويف . وقوله : « كَلَّا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ »[3] إلى آخر السورة. وقوله : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ »[4] إلى آخر السورة .

---

(١) [١١ / هود / ١١٤] ونصها : وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ ، إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ، ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ .

(٢) [١٠٤ / الهمزة / ١ـ٩] ونصها : وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ❊ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ❊ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ❊ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ❊ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ❊ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ❊ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ❊ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ ❊ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ .

(٣) [٩٦/ العلق/ ٦ـ١٩] ونصها: كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ ❊ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ ❊ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ❊ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ❊ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ❊ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ❊ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ❊ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ❊ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ❊ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ❊ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ❊ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ❊ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ❊ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ .

(٤) [١٠٥ / الفيل / ١ـ٥] ونصها: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ❊ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ❊ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ❊ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ❊ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ .

ومن الآيات قوله : « إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ » إلى قوله : « فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا »(١) . وفى الطرف الآخر قوله تعالى: «وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ»(٢) إلى آخرها . وقوله تعالى : « أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ »(٣) إلى آخرها .

ومن الآيات قوله تعالى : « وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ »(٤) الآية .

وروى أبو عبيد عن ابن عباس أنه التقى هو وعبد الله بن عمرو . فقال ابن عباس : أى آية أرجى فى كتاب الله ؟ فقال عبد الله : قوله : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ »(٥) الآية . فقال ابن عباس : لكن قول الله :

---

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٥٧و٥٨] ونصهما : إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا * وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا .

(٢) [٩٣/ الضحى/ ١ـ١١] ونصها: وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ .

(٣) [٩٤ / الشرح / ١ـ٨] ونصها : أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ * فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ .

(٤) [٢٤ / النور/ ٢٢] ونصها: وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ، أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٥) [٣٩ / الزمر / ٥٣] ونصها : قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ، قَالَ أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي »(١).

قال ابن عباس : فرضِيَ منه بقوله : بلىٰ .

قال : فهذا لما يعترض فى الصدور مما يوسوس به الشيطان .

وعن ابن مسعود قال : فى القرآن آيتان ما قرأهما عبد مسلم عند ذنب إلا غفر الله له . وفسَّر ذلك أُبَىُّ بن كعب بقوله تعالى : « وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ »(٢) إلى آخر الآية . وقوله : « وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا »(٣) .

وعن ابن مسعود : إن فى النساء خمس آيات ما يسرنى أن لى بها الدنيا وما فيها . ولقد علمت أن العلماء إذا مروا بها ما يعرفونها : قوله : « إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ »(٤) الآية . وقوله : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ »(٥) الآية . وقوله « إِنَّ اللَّهَ

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٦٠] ونصها: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ، قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ، قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ، قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

(٢) [٣ / آل عمران / ١٣٥] ونصها: وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

(٣) [٤ / النساء / ١١٠] ونصها: وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا .

(٤) [٤ / النساء / ٣١] ونصها : إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا .

(٥) [٤ / النساء / ٤٠] ونصها : إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَإِنْ تَكُ =

لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ »[١] الآية. وقوله : « وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُكَ »[٢] الآية . وقوله : « وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا »[٣] .

وأشياء من هذا القبيل كثيرة إذا تتبعت وجدت . فالقاعدة لا تطرد وإنما الذى يقال : إن كل موطن له ما يناسبه ، ولكل مقام مقال ، وهو الذى يطرد فى علم البيان .

أما هـذا التخصيص فلا . فالجواب : أن ما اعترض به غير صادّ عن سبيل ماتقدم . وعنه جوابان : إجمالىّ وتفصيلىّ . فالإجمالىّ : أن يقال : إن الأمر العام والقانون الشائع هو ما تقدم فلا تنقضه الأفراد الجزئية الأقلية . لأن الكلية إذا كانت أكثرية فى الوضعيات انعقدت كلية ، واعتمدت فى الحكم بها . وعليها شاءت الأمور العادية الجارية فى الوجود . ولاشك أن ما اعترض به من ذلك قليل . يدل عليه الاستقراء . فليس بقادح فيما تَأَصَّلَ . وأماالتفصيلىّ ، فإن قوله «وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ » قضية عَيْنٍ فى رجل معيّن من الكفار، بسبب أمر معيّن من همزه النبىّ عليه السلام وعيبه إياه . فهو إخبار عن جزائه على ذلك العمل القبيح . لا أنه أجرى مجرى التخويف . فليس مما نحن فيه . وهـذا الوجه جار فى قوله : « إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ ۞ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ » .

= حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا .

(١) [٤ / النساء / ٤٨] ونصها : إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا .

(٢) [٤ / النساء / ٦٤] ونصها : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا .

(٣) [٤ / النساء/ ١١٠] ونصها: وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا .

وقوله: « إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ »(١) الآيتين، جارٍ على ماذكر. وكذلك سورة والضحى(٢).

وقوله: « أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ »(٣)، غير ما نحن فيه. بل هو أمر من الله للنبىّ عليه السلام بالشكر لأجل ما أعطاه من المنح.

وقوله: « أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ »(٤)، قضية عيْن لأبى بكر الصديق ؓ نفّس بها من كربه فيما أصابه بسبب الإفك المتقوّل على بنته عائشة. فجاء هذا الكلام كالتأنيس له والحضّ على إتمام مكارم الأخلاق وإدامتها، بالإنفاق على قريبه المتصف بالمسكنة والهجرة. ولم يكن ذلك واجباً على أبى بكر. ولكن أحبَّ الله له معالى الأخلاق.

وقوله: « لَا تَقْنَطُوا »(٥)، وما ذكر معها فى المذاكرة المتقدمة، ليس مقصودهم، بذكر ذلك، النقضَ على ما نحن فيه، بل النظر فى معانى آياتٍ على استقلالها. ألا ترى أن

---

(١) [٩ / التوبة / ٦١] ونصها: وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ، قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ، وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

(٢) [٩٣/ الضحى/ ١ـ١١] ونصها: وَالضُّحَىٰ ۞ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۞ مَاوَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۞ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۞ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۞ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۞ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۞ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۞ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۞ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۞ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ.

(٣) [٩٤ / الشرح / ١] ونصها: أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ.

(٤) [٢٤ / النور / ٢٢] ونصها: وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِى سَبِيلِ اللهِ، وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا، أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

(٥) [٣٩ / الزمر / ٥٣] ونصها: قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.

قوله : « لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ » ، أعقب بقوله : « وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ »[1] الآية . وفى هذا تخويف عظيم مهيج للفرار من وقوعه . وما تقدم من السبب فى نزول الآية يبين المراد ، وأن قوله : لاتقنطوا، رافع لما تخوفوه من عدم الغفران لما سلف .

وقوله : « رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ »[2] نظر فى معنى آية فى الجملة ، وما يستنبط منها . وإلا فقوله : أَوَلَمْ تُؤْمِنْ، تقرير فيه إشارة إلى التخويف أن لا يكون مؤمنا . فلما قال: بَلَىٰ . حصل المقصود .

وقوله : «وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً »[3]، كقوله : «لَاتَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ»[4] .

وقوله : « وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ »[5] داخل تحت أصلنا . لأنه جاء بعد قوله : « وَلَاتَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا »[6]. « وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ »

(١) [٣٩ / الزمر / ٥٤] ونصها : وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٦٠] ونصها: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ، قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ، قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي، قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

(٣) [٣ / آل عمران / ١٣٥] ونصها : وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَافَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

(٤) [٣٩ / الزمر / ٥٣] ونصها : قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .

(٥) [٤ / النساء / ١١٠] ونصها : وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيمًا .

(٦) [٤ / النساء / ١٠٥] ونصها: إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ =

إلى قوله : « فَمَنْ يُجَادِلُ اللهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا »(١) .

وقوله « إِنْ تَجْتَنِبُوا »(٢) آتٍ بعد الوعيد على الكبائر فى أول السورة إلى هنالك . كأكل مال اليتيم والحيف فى الوصية وغيرهما . فذلك مما يرجى به تقدم التخويف .

وأما قوله : « إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ »(٣)، فقد أعقب بقوله: يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا ، الآية . وتقدم قبلها قوله : الَّذِينَ يَبْخَلُونَ ، إلى قوله :عَذَابًا مُهِينًا . بل قوله : إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، جمع التخويف مع الترجية .

وكذلك قوله : « وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ . . . »(٤) الآية . تقدم قبلها وأتى بعدها تخويف عظيم . فهو مما نحن فيه .

وقوله : « إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ... »(٥) الآية ، جامع للتخويف والترجية

= بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ ، وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا .

(١) [٤ / النساء / ١٠٧ ـ ١٠٩] ونصها : وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ ، إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا * يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ ، وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا * هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا .

(٢) [٤ / النساء / ٣١] ونصها : إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا .

(٣) [٤ / النساء / ٤٠] ونصها : إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا .

(٤) [٤ / النساء / ٦٤] ونصها : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا .

(٥) [٤ / النساء / ٤٨] ونصها : إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ

من حيث قيد غفران ما سوى الشرك بالمشيئة . ولم يرد ابن مسعود بقوله : ما يسرنى أن لى بها الدنيا وما فيها، أنها آيات ترجية خاصة . بل مراده ، والله أعلم ، أنها كليات فى الشريعة محكمات . قد احتوت على علم كثير ، وأحاطت بقواعد عظيمة فى الدين . ولذلك قال : ولقد علمت أن العلماء إذا مروا بها ما يعرفونها .

وإذا ثبت هـذا ، فجميع ما تقدم جارٍ على أن لـكل موطن ما يناسبه إنزال القرآن ، إجراؤه على البشارة والنذارة . وهو مقصوده الأصلىّ ، لاأنّهُ أنزل لأحد الطرفين دون الآخر. وهو المطلوب . وبالله التوفيق .

ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاء ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْـتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا .

ثم قال الشاطبيّ :

فصل

ومن هنا يتصور للعباد أن يكونوا دائرين بين الخوف والرجاء . لأن حقيقة الإيمان دائرة بينهما . وقد دل على ذلك الكتاب العزيز على الخصوص . فقال: « إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ » إلى قوله : « وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ »[١] . وقال : « إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ »[٢] . وقال : « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ »[٣] . وهـذا على الجملة . فإن غلب عليه طرف الانحلال والمخالفة ، فجانبُ الخوف عليه أقرب . وإن غلب عليـه طرف التشديد والاحتياط فجانبُ الرجاء إليه أقرب . وبهذا كان عليه السلام يؤدب أصحابه .

ولما غلب على قوم جانب الخوف قيـل لهم : « يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ . . . »[٤] الآية . وغلب على قوم جانب الإهمال فى بعض الأمور

---

(١) [٢٣/ المؤمنون/ ٥٧-٦٠] ونصها: إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ .

(٢) [٢ / البقرة / ٢١٨] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٣) [١٧ / الإسراء / ٥٧] ونصها : أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا .

(٤) [٣٩ / الزمر / ٥٣] ونصها : قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ =

فخُوِّفوا وعُوقبوا . كقوله : « إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَة . . . »[1] الآية .

فإذا ثبت هذا من ترتيب القرآن ومعانى آياته ، فعلى المكلف العمل على وفق ذلك التأديب .

= لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٥٧] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً .

فصل

فى أن الأحكام فى التنزيل أكثرها كلية

ولذا احتيج فى الاستنباط منه إلى السنة

قال الشاطبىّ : تعريف القرآن بالأحكام الشرعية أكثره كلّىّ لا جزئىّ . وحيث جاء جزئيًّا فمأخذه على الكلية، إما بالاعتبار أو بمعنى الأصل إلا ما خصه الدليل . مثل خصائص النبىّ صلى الله عليه وسلم . ويدل على هذا المعنى ، بعد الاستقراء المعتبر ، أنه محتاج إلى كثير من البيان. فإن السنة ، على كثرتها وكثرة مسائلها، إنما هى بيان للكتاب. كما سيأتى شرحه إن شاء الله تعالى . وقد قال الله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »[1] . وفى الحديث[2] : ما من الأنبياء نبىّ إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلىّ . فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة .

وإنما الذى أعطى القرآن . وأما السنة فبيان له . وإذا كان كذلك فالقرآن على اختصاره جامع . ولا يكون جامعاً إلا والمجموع فيه أمور كليات . لأن الشريعة تمت بتمام نزوله لقوله تعالى : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ »[3] الآية . وأنت تعلم أن الصلاة والزكاة والجهاد

---

(١) [١٦ / النحل / ٤٤] ونصها : بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ، وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى صحيحه فى : ٦٦ ـ كتاب فضائل القرآن ، ١ ـ باب كيف نزول الوحى ، عن أبى هريرة عن النبىّ ﷺ .

(٣) [٥ / المائدة / ٣] ونصها : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ، ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ، الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ، الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ

وأشباه ذلك لم يتبين جميع أحكامها فى القرآن. إنما بينتها السنة. وكذلك العاديات من الأنكحة والعقود والقصاص والحدود وغيرها. وأيضاً فإذا نظرنا إلى رجوع الشريعة إلى كلياتها المعنوية وجدناها قد تضمنها القرآن على الكمال، وهى الضروريات والحاجيات والتحسينيات ومكمل كل واحد منها . وهذا كله ظاهر أيضاً. فالخارج من الأدلة عن الكتاب هو السنة والإجماع والقياس . وجميع ذلك إنما نشأ عن القرآن .

وقد عد الناس قوله تعالى: « لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ »(١) متضمناً للقياس.

وقوله : « وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ »(٢) متضمناً للسنة .

وقوله : « وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ »(٣) متضمناً للإجماع .

وهذا أهم ما يكون . وفى الصحيح عن ابن مسعود قال : لعن الله الواشمات والمستوشمات(٤) الخ . فبلغ ذلك امرأة من بنى أسد يقال لها أم يعقوب وكانت تقرأ القرآن

= دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ، فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(١) [٤ / النساء / ١٠٥] ونصها : إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ ، وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً .

(٢) [٥٩ / الحشر / ٧] ونصها : مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ، وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ، وَاتَّقُوا اللهَ ، إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

(٣) [٤ / النساء / ١١٥] ونصها : وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ، وَسَاءَتْ مَصِيراً .

(٤) أخرجه البخاريّ فى صحيحه فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥٩ ـ سورة الحشر ، ٤ ـ باب وما آتاكم الرسول فخذوه :

عن عبد الله قال : لعن الله الواشمات والموتشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن =

فأتته فقالت : ما حديث بلغنى عنك؟ أنك لعنت كذا وكذا ؟ فذكرته . فقال عبد الله: ومالى لاألعن من لعن رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، وهو فى كتاب الله؟ فقالت المرأة : لقد قرأت ما بين لوحى المصحف فما وجدته . فقال : لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه. قال الله عز وجل : وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ، الحديث . وعبد الله من العالمين بالقرآن .

= المغيّرات خلق الله . فبلغ ذلك امرأة من بنى أسد ، يقال لها أم يعقوب . فجاءت فقالت : إنه بلغنى أنك لعنت كيت وكيت . فقال : وما لى لا ألعن من لعن رسولُ الله ﷺ ، ومَنْ هو فى كتاب الله ؟ فقالت : لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول . قال : لئن كنتِ قرأتيه لقد وجدتيه . أما قرأت : وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا؟ قالت : بلى . قال: فإنه قد نهى عنه . قالت: فإنى أرى أهلك يفعلونه . قال: فاذهبى فانظرى . فذهبت فنظرت فلم تر من حاجتها شيئاً . فقال : لو كانت كذلك ما جامَعَتْنَا .

ثم قال الشاطبىّ :

فصل

فعلى هذا لا ينبغى فى الاستنباط من القرآن الاقتصار عليه دون النظر فى شرحه وبيانه ، وهو السنة . لأنه إذا كان كليا وفيه أمور جلية ، كما فى شأن الصلاة والزكاة والحج والصوم ونحوها ، فلا محيص عن النظر فى بيانه . وبعد ذلك ينظر فى تفسير السلف الصالح له ، إن أعوزته السنة . فإنهم أعرف به من غيرهم . وإلا فمطلق الفهم العربىّ لمن حصله يكفى فيما أعوز من ذلك . والله أعلم .

ثم قال الشاطبيّ :

فصل

القرآن فيـه بيان كل شيء على ذلك الترتيب المتقدم . فالعالم به على التحقيق عالم بجملة الشريعة لايعوزه منها شيء. والدليل على ذلك أمور : منها النصوص القرآنية فى قوله: « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ »[(١)] الآية. وقوله: «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ»[(٢)] وقوله : « مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ »[(٣)] . وقوله : « إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ »[(٤)] يعنى الطريقة المستقيمة. ولو لم يكمل فيه جميع معانيها لما صح إطلاق هذا المعنى عليه حقيقة . وأشباه ذلك من الآيات الدالة على أنه هدى وشفاء لما فى الصدور . ولا يكون شفاء لجميع ما فى الصدور إلا وفيه تبيان كل شيء . ومنها ماجاء فى الأحاديث والآثار المؤذنة بذلك كقوله عليه السلام[(٥)] : إن هذا القرآن حبل الله وهو النور المبين ، والشفاء النافع،

---

(١) انظر ص ١٣١ هامش رقم ٣ .

(٢) [١٦ / النحل / ٨٩] ونصها : وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ، وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ .

(٣) [٦ / الأنعـام / ٣٨] ونصها : وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ، مَافَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ .

(٤) [١٧/ الإسراء / ٩] ونصها: إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا .

(٥) أخرجه الدارمىّ فى سننه فى : ٢٣ ـ كتاب فضائل القرآن ، ١ ـ باب فضل من قرأ القرآن ، عن أبى الأحوص عن عبدالله قال : إن هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته ما استطعتم . إن هذا القرآن حبل الله ، والنور المبين والشفاء النافع . عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه . لا يزيغ فيستعتب ولا يعوجّ فيقوّم . ولا تنقضى عجائبه ولا يخلق =

عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن تبعه، لايعوج فيقوم، ولا يزيغ فيستعتب، ولا تنقضي عجائبه، ولايخلق على كثرة الرد الخ . فكونه حبل الله بإطلاق، والشفاء النافع، إلى تمامه، دليل على كمال الأمر فيه . ونحو هذا في حديث عليّ عن النبيّ عليه السلام(١) .

وعن ابن مسعود؛ أن كل مؤدب يحب أن يؤتى أدبه . وأن أدب الله القرآن . وسئلت عائشة(٢) عن خلق رسول الله ﷺ فقالت : كان خلقه القرآن . وصدق ذلك قوله : وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ(٣). وعن قتادة : ماجالس القرآنَ أحد إلا فارقه بزيادة أونقصان. ثم قرأ: وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا(٤).

= على كثرة الرد . فاتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات . أما إني لا أقول : ألم ، ولكن ألف ولام وميم .

(١) أخرجه الدارمي ، أيضاً ، في سننه في الباب السابق . ونصه : عن الحارث قال : دخلت المسجد فإذا أناس يخوضون في أحاديث . فدخلت على عليّ فقلت : ألا ترى أن ناساً يخوضون في الأحاديث في المسجد ؟ فقال : قد فعلوها ؟ قلت : نعم . قال : أما أني سمعت رسول الله ﷺ يقول « ستكون فتن » . قلت : وما المخرج منها ؟ قال « كتاب الله ، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم . هو الفصل ليس بالهزل . هو الذي من تركه من جبار قصمه الله . ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله . فهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم. وهو الذي لاتزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء . ولا يخلق عن كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه . وهو الذي لم ينته الجن إذ سمعته أن قالوا: إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا . هو الذي من قال به صدق ، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أُجر ، ومن دُعي إليه هُدِيَ إلى صراط مستقيم .

(٢) أخرجه مسلم في : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ح ١٣٩ عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت : فإن خلق نبيّ الله ﷺ كان القران .

(٣) [٦٨ / القلم / ٤] .

(٤) [١٧ / الإسراء / ٨٢] .

وعن محمد بن كعب القرظيّ في قول الله تعالى : إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ[١] . قال : هوالقرآن . ليس كلهم رأى النبيّ ﷺ . وفي الحديث[٢] : يؤم الناسَ أقرؤهم لكتاب الله. وما ذاك إلا أنه أعلم بأحكام الله. فالعالم بالقرآن عالم بجملة الشريعة . وعن عائشة أن من قرأ القرآن فليس فوقه أحد . وعن عبد الله قال : إذا أردتم العلم فأثيروا القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين . وعن عبد الله بن عمر قال : من جمع القرآن فقد حمل أمراً عظيماً ، وقد أدرجت النبوة بين جنبيه ، إلا أنه لا يوحى إليه . وفي رواية عنه : من قرأ القرآن فقد اضطربت النبوة بين جنبيه . وما ذاك إلا أنه جامع لمعاني النبوة. وأشباه هذا مما يدل على هذا المعنى . ومنها التجربة وهو أنه لا أحد من العلماء لجأ إلى القرآن في مسألة إلا وجد لها فيه أصلا . وأقرب الطوائف من إعواز المسائل النازلة أهل الظواهر الذين ينكرون القياس . ولم يثبت عنهم أنهم عجزوا عن الدليل في مسألة من المسائل . وقال ابن حزم الظاهريّ : كل أبواب الفقه ليس منها باب إلا وله أصل في الكتاب والسنة، نعلمه والحمد لله . حاشى القراض فما وجدنا له أصلا فيهما البتة . إلى آخر ما قال .

وأنت تعلم أن القراض نوع من أنواع الإجارة. وأصل الإجارة في القرآن ثابت. وبَيَّن ذلك إقراره عليه السلام وعمل الصحابة به .

ولقائل أن يقول: إن هذا غير صحيح. لما ثبت في الشريعة من المسائل والقواعد غير الموجودة في القرآن، وإنما وجدت في السنة. ويصدق ذلك ما في الصحيح من قوله عليه السلام[٣]: لا ألفينّ

(١) [٣ / آل عمران / ١٩٣] ونصها : رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ.

(٢) أخرجه البخاريّ في صحيحه في : ١٠ ـ كتاب الأذان ، ٥٤ ـ باب إمامة العبد والمولى ، لقول النبيّ ﷺ : يؤمهم أقرؤهم لكتاب الله .

(٣) أخرجه أبو داود في سننه في : ٣٩ ـ كتاب السنّة ، ٥ ـ باب في لزوم السنة ، ح ٤٦٠٥ .

أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمرى، مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول : لا ندرى. ماوجدنا فى كتاب الله اتبعناه . وهذا ذم ومعناه اعتماد السنة أيضا. ويصححه قول الله تعالى : « فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ »(١) الآية . قال ميمون بن مهران : الرد إلى الله، إلى كتابه. والرد إلى الرسول ، إذا كان حيا . فلما قبضه الله ، فالرد إلى سنته . ومثله «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً»(٢) الآية .

يقال إن السنة يؤخذ بها على أنها بيان لكتاب الله لقوله : « لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »(٣) وهو جمع بين الأدلة .

لأنا نقول : إن كانت السنة بيانا للكتاب ، ففى أحد قسميها . فالقسم الآخر زيادة على حكم الكتاب، كتحريم نكاح المرأة على عمتها أو على خالتها. وتحريم الحمر الأهلية وكل ذى ناب من السباع. وقيل(٤) لعلىّ بن أبى طالب: هل عندكم كتاب؟ قال: لا. إلا كتاب الله أو فهم أعطيه رجل مسلم أو ما فى هذه الصحيفة. قال قلت: وما فى هذه الصحيفة؟ قال: العقل وفكاك الأسير وأن لا يقتل مسلم بكافر . وهذا، وإن كان فيه دليل على أنه لا شيء عندهم إلا كتاب الله، ففيه دليل على أن عندهم ماليس فى كتاب الله. وهو خلاف ما أصلت .

والجواب عن ذلك مذكور فى الدليل الثانى وهو السنة بحول الله .

---

(١) [٤ / النساء / ٥٩] ونصها: يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا .

(٢) [٣٣ / الأحزاب / ٣٦] ونصها : وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا .

(٣) [١٦ / النحل / ٤٤] ونصها : بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ، وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ .

(٤) أخرجه البخارىّ فى صحيحه فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ٣٩ ـ باب كتابة العلم .

ومن نوادر الاستدلال القرآنيّ ما نقل عن عليّ أنه قال: الحمل ستة أشهر. انتزاعا من قوله تعالى: «وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا»(١) مع قوله: «وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ»(٢). واستنباط مالك بن أنس أن من سب الصحابة فلاحظّ له في الفيء من قوله: «وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا»(٣) الآية. وقول من قال: الولد لا يملك. من قوله: «وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ»(٤). وقول ابن العربيّ: إن الإنسان قبل أن يكون علقة لا يسمى إنسانا. من قوله «خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ»(٥). واستدلال منذر ابن سعيد على أن العربيّ غير مطبوع على العربية بقوله: «وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا»(٦) وأغرب ذلك استدلال ابن الفخار القرطبيّ على أن الإيماء

---

(١) [٤٦ / الأحقاف / ١٥] ونصها: وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا، وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا، حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي، إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

(٢) [٣١ / لقمان / ١٤] ونصها: وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ.

(٣) [٥٩ / الحشر / ١٠] ونصها: وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ.

(٤) [٢١ / الأنبياء / ٢٦] ونصها: وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ، بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ.

(٥) [٩٦ / العلق / ٢].

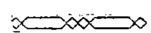
(٦) [١٦ / النحل / ٧٨] ونصها: وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ.

بالرؤوس إلى جانب عند الإبابة، والإيماء بها سفلا عند الإجابة، أولى مما يفعله المشارقة من خلاف ذلك، بقوله تعالى: « لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ »(١) الآية .

وكان أبو بكر الشبلىّ الصوفىّ إذا لبس شيئاً خرق فيه موضعا. فقال له ابن مجاهد : أين فى العلم إفساد ما ينتفع به ؟ فقال : « فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ »(٢) .

ثم قال الشبلىّ : أين فى القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه ؟ فسكت ابن مجاهد وقال له: قل . قال : قوله : « وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ »(٣) الآية .

واستدل بعضهم على منع سماع المرأة بقوله تعالى: «وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ»(٤) الآية . وفى بعض هذه الاستدلالات نظر .



(١) [٦٣/ المنافقون/ ٥] ونصها : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ .

(٢) [٣٨ / ص / ٣٣] ونصها : رُدُّوهَا عَلَيَّ ، فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ.

(٣) [٥/ المائدة/ ١٨] ونصها: وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ، قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ، بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَلِلهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ .

(٤) [٧ / الأعراف / ١٤٣] ونصها : وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ، قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَٰكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ، فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ .

ثم قال الشاطبي :

فصل

وعلى هذا لابد فى كل مسألة، يراد تحصيل علمها على أكمل الوجوه ،أن يلتفت إلى أصلها فى القرآن . فإن وجدت منصوصاً على عينها أو ذكر نوعها أو جنسها فذاك . وإلا فمراتب النظر فيها متعددة . وقد تقدم أن كل دليل شرعى فإما مقطوع به أو راجع إلى مقطوع به. وأعلى مراجع المقطوع به القرآن الكريم . فهو أول مرجوع إليه . أما إذا لم يرد فى المسألة إلا العمل خاصة فيكفى الرجوع فيها إلى السنة المنقولة بالآحاد . كما يكفى الرجوع فيها إلى قول المجتهد. وهو أضعف. وإنما يرجع فيها إلى أصلها فى الكتاب لافتقاره إلى ذلك فى جملها أصلًا يرجع إليه ، أو ديناً يدان الله به ، فلا يكتفى بمجرد تلقيها من أخبار الآحاد كما تقدم .

فصل

فى أقسام العلوم المضافة إلى القرآن

قال الشاطبىّ : العلوم المضافة إلى القرآن تنقسم على أقسام :

قسم هو كالأداة لفهمه واستخراج ما فيه من الفوائد والمعين على معرفة مراد الله تعالى منه . كعلوم اللغة العربية التى لابد منها وعلم القراآت والناسخ والمنسوخ وقواعد أصول الفقه وما أشبه ذلك . فهذا لا نظر فيه هنا . ولكن قد يدعى فيما ليس بوسيلة أنه وسيلة إلى فهم القرآن وأنه مطلوب كطلب ما هو وسيلة بالحقيقة . فإن علم العربية أو علم الناسخ والمنسوخ وعلم الأسباب وعلم المكىّ والمدنىّ وعلم القراآت وعلم أصول الفقه معلوم عند جميع العلماء أنها معينة على فهم القرآن . وأما غير ذلك فقد يعده بعض الناس وسيلة أيضاً . ولا يكون كذلك . كما تقدم فى حكاية الرازىّ فى جعل علم الهيئة وسيلة إلى فهم قوله تعالى : « أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ »(1) . وزعم ابن رشد الحكيم فى كتابه الذى سماه بـ(فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال) أن علوم الفلسفة مطلوبة. إذ لا يفهم المقصود من الشريعة على الحقيقة إلا بها .

ولو قال قائل : إن الأمر بالضد مما قال لما بَعُد فى المعارضة . وشاهد ما بين الخصمين شأن السلف الصالح فى تلك العلوم . هل كانوا آخذين فيها أم كانوا تاركين لها أو غافلين عنها ؟ مع القطع. بتحققهم بفهم القرآن . يشهد لهم بذلك النبىّ ﷺ والجم الغفير . فلينظر امرؤ أين يضع قدمه .

وثَمَّ أنواع أخر يعرفها من زاول هذه الأمور ولا ينبئك مثل خبير . فأبو حامد ممن قتل هذه الأمور خبرة وصرح فيها بالبيان الشافى فى مواضع من كتبه .

وقسم هو مأخوذ من جملته، من حيث هو كلام، لا من حيث هو خطاب بأمر أو نهى أو غيرهما ،

---

(1) [٥٠ / ق / ٦] .

بل من جهة ماهو هو. وذلك مافيه من دلالة النبوة. وهو كونه معجزة لرسول الله ﷺ. فإن هذا المعنى ليس مأخوذا من تفاصيل القرآن كما تؤخذ منه الأحكام الشرعية. إذ لم تنص آياته وسوره على ذلك مثل نصها على الأحكام بالأمر والنهي وغيرها. وإنما فيه التنبيه على التعجيز أن يأتوا بسورة مثله. وذلك لايختص به شيء من القرآن دون شيء، ولاسورة دون سورة، ولانمط منه دون آخر. بل ماهيته هي المعجزة له حسبما نبه عليه قوله عليه السلام[1]: «ما من الأنبياء نبيّ إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر. وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إليّ. فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة» فهو بهيأته التي أنزله الله عليها دال على صدق الرسول عليه السلام. وفيها عجز الفصحاء اللسن والخصماء اللدّ عن الإتيان بما يماثله أو يدانيه. ووجه كونه معجزا لا يحتاج إلى تقريره في هذا الموضع. لأنه كيما تصور الإعجاز به، فماهيته هي الدالة على ذلك. فإلى أيّ نحوٍ منه ملتَ دلّك على صدق رسول الله ﷺ. فهذا القسم أيضا لا نظر فيه هنا وموضعه كتب الكلام.

وقسم هو مأخود من عادة الله تعالى في إنزاله وخطاب الخلق به ومعاملته لهم بالرفق والحسنى، من جعله عربيا يدخل تحت نيل أفهامهم مع أنه المنزه القديم. وكونه تنزل لهم بالتقريب والملاطفة والتعليم في نفس المعاملة به قبل النظر إلى ما حواه من المعارف والخيرات. وهذا نظر خارج عما تضمنه القرآن من العلوم. ويتبين صحة الأصل المذكور في كتاب الاجتهاد. وهو أصل التخلق بصفات الله والاقتداء بأفعاله. ويشتمل على أنواع من القواعد الأصلية والفوائد الفرعية والمحاسن الأدبية. فلنذكر منها أمثلة يستعان بها في فهم المراد. فمن ذلك عدم المؤاخذة قبل الإنذار. وَدَلَّ على ذلك إخباره تعالى عن نفسه بقوله: «وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا»[2] فجرت عادته في خلقه إن لا يؤاخذ بالمخالفة إلا بعد إرسال الرسل. فإذا قامت الحجة عليهم، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. ولكل جزاء مثله.

---

(١) انظر الحاشية رقم ٢ ص ١٣١.

(٢) [١٧ / الإسراء / ١٥] ونصها: مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ، وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا.

ومنها الإبلاغ فى إقامة الحجة على ما خاطب به الخلق . فإنه تعالى أنزل القرآن برهانا فى نفسه على صحة ما فيه. وزاد على يدى رسوله عليه السلام من المعجزات ما فيه بعض الكفاية .

ومنها ترك الأخذ من أول مرة بالذنب ، والحلم عن تعجيل المعاندين بالعذاب ، مع تماديهم على الإباية والجحود ، بعد وضوح البرهان ، وإن استعجلوا به .

ومنها تحسين العبارة بالكناية ونحوها فى المواطن التى يحتاج فيها إلى ذكر ما يستحيى من ذكره فى عادتنا . كقوله تعالى « أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ »[1] . « وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ »[2] . وقوله « كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ »[3] . حتى إذا

---

(١) [٤ / النساء / ٤٣] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا ، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا .

و [٥ / المائدة / ٦] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ، وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ، مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

(٢) [٦٦ / التحريم / ١٢] ونصها : وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ .

(٣) [٥ / المائدة / ٧٥] ونصها : مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ، انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ .

وضح السبيل في مقطع الحق، وحضر وقت التصريح بما ينبغي التصريح به، فلابد منه . وإليه الإشارة بقوله : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا »[1] . « وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ »[2] .

ومنها التأني في الأمور والجري على مجرى التثبت والأخذ بالاحتياط، وهو المعهود في حقنا فلقد أنزل القرآن على رسول الله ﷺ نجوماً في عشرين سنة . حتى قال الكفار : «لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً»[3] . فقال الله : « كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ» . وقال: « وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا »[4] . وفي هذه المدة كان الإنذار يترادف والصراط يستوي بالنسبة إلى كل وجهة وإلى كل محتاج إليه .

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٦] ونصها : إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ، فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا . يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ، وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ .

(٢) [٣٣/ الأحزاب/ ٥٣] ونصها: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ، إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ ، وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ، وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ، وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا ، إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ٣٢] ونصها : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ، كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ، وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا .

(٤) [١٧ / الإسراء / ١٠٦] .

وحين أبى مَن أبى من الدخول فى الإسلام بعد عشر سنين أو أكثر ، بدأوا بالتغليظ بالدعاء . فشرع الجهاد لكن على تدريج أيضاً. حكمةً بالغة وترتيباً يقتضيه العدل والإحسان. حتى إذا كمل الدين ودخل الناس فيه أفواجاً ولم يبق لقائلٍ ما يقول ، قبض الله نبيه إليه ، وقد بانت الحجة ووضحت المحجة واشتد أسّ الدين وقوى عضده بأنصار الله . فلله الحمد كثيراً على ذلك .

ومنها كيفية تأدب العباد إذا قصدوا باب رب الأرباب بالتضرع والدعاء . فقد بَيَّن مساق القرآن آدابا استُقرئت منه . وإن لم ينص عليها بالعبارة ، فقد أغنت إشارة التقرير عن التصريح بالتعبير . فأنت ترى أن نداء الله للعباد لم يأت فى القرآن ، فى الغالب ، إلا بـ(يا)، المشيرة إلى بُعد المنادَى . لأن صاحب النداء منزه عن مداناة العباد ، موصوف بالتعالى عنهم والاستغناء . فإذا قرر نداء العباد للرب أتى بأمور تستدعى قرب الإجابة . منها إسقاط حرف النداء المشير إلى قرب المنادَى وأنه حاضر مع المنادِى غير غافل عنه، فدل على استشعار الراغب هذا المعنى إذ لم يأت فى الغالب إلا : ربنا ربنا كقوله : « رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا »[1] « رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا »[2]، «رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى»[3]، «رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِى الْمَوْتَى»[4].

ومنها : كثرة مجيء النداء باسم الرب المقتضى للقيام بأمور العباد وإصلاحها . فكان العبد متعلقا بمن شأنه التربية والرفق والإحسان قائلًا : يامن هو المصلح لشؤوننا على الإطلاق

(١) [٢ / البقرة / ٢٨٦] ونصها : لَا يُكَلِّفُ اللّٰهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ، رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ، رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ، وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ، أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ .

(٢) [٢ / البقرة / ١٢٧] ونصها : رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

(٣) [٣ / آل عمران / ٣٥] ونصها : إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّى ، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

(٤) [٢ / البقرة / ٢٦٠] انظر الحاشية رقم ٣ ص ١١٠ .

أَتِمَّ لنا ذلك بكذا . وهو مقتضى ما يدعو به . وإنما أتى (اللهم) في مواضع قليلة ، ولمعانٍ اقتضتها الأحوال .

ومنها : تقديم الوسيلة بين يدى الطلب كقوله : « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ . اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ »(١) الآية « رَبَّنَا إِنَّنَا ءَامَنَّا »(٢) « رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ »(٣) « رَبَّنَا مَاخَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ »(٤)، «رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً »(٥) الآية . « رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ » إلى قوله : « وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا »(٦)، « وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا »(٧) إلى غير ذلك من الآداب التي تؤخذ من مجرد التقرير .

---

(١) [١ / الفاتحة / ٥و٦] .

(٢) [٣ / آل عمران / ١٦] ونصها : الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ .

(٣) [٣ / آل عمران / ٥٣] ونصها : رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ .

(٤) [٣ / آل عمران / ١٩١] ونصها : الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَاخَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ .

(٥) [١٠ / يونس / ٨٨] ونصها : وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ، رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ .

(٦) [٧١ / نوح / ٢١] ونصها : قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا .

(٧) [٢ / البقرة / ١٢٧] ونصها : وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

والحاصل أن القرآن احتوى ، من هـذا النوع ، من الفوائد والمحاسن التى تقتضيها القواعد الشرعية ، على كثير يشهدبها شاهد الاعتبار، ويصححها نصوص الآيات والأخبار.

وقسم هو المقصود الأول بالذكر، وهو الذى نبه عليه العلماء وعرفوه مأخوذاً من نصوص الكتاب، منطوقها ومفهومها، على حسب ماأداه اللسان العربىّ فيه . وذلك أنه محتو من العلوم على ثلاثة أجناس هى المقصود الأول :

أحدها ـ معرفة المتوجَّه إليه وهو الله المعبود ، سبحانه .

والثانى ـ معرفة كيفية التوجه إليه .

والثالث ـ معرفة مآل العبد ليخاف الله به ويرجوه .

وهذه الأجناس الثلاثة داخلة تحت جنس واحد هو المقصود الذى عبر عنه قوله تعالى : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ »(١) فالعبادة هى المطلوب الأول . غير أنه لا يمكن إلا بمعرفة المعبود . إذ المجهول لا يُتَوَجَّه إليه ولا يُقصد بعبادة ولا بغيرها . فإذا عرف ، ومن جملة المعرفة به أنه آمرٌ وناهٍ وطالبٌ للعباد بقيامهم بحقه ، توجه الطلب . إلا أنه لا يتأتى دون معرفة كيفية التعبد، فجىء بالجنس الثانى . ولما كانت النفوس من شأنها طلب النتائج والمآلات ، وكان مآل الأعمال عائداً على العاملين بحسب ما كان منهم من طاعة أو معصية ، وانجرّ ، مع ذلك ، التبشيرُ والإنذارُ فى ذكرها ـ أتى بالجنس الثالث موضحا لهذا الطرف ، وأن الدنيا ليست بدار إقامة، وإنما الإقامة فى الدار الآخرة .

فالأول ـ يدخل تحته علم الذات والصفات والأفعال . ويتعلق بالنظر فى الصفات أو فى الأفعال، النظرُ فى النبوءات لأنها الوسائط بين المعبود والعباد، وفى كل أصل ثبت للدين علميا كان أو عمليا . ويتكمل بتقرير البراهين والمحاجة لمن جادل من خصماء المبطلين .

والثانى ـ يشتمل على التعريف بأنواع التعبدات من العبادات والعادات والمعاملات وما يتبع كل واحد منها من المكملات. وهى أنواع فروض الكفايات . وجامعها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والنظر فيمن يقوم به .

(١) [٥١ / الذاريات / ٥٦] .

والثالث - يدخل فى ضمنه النظر فى ثلاثة مواطن : الموت ومايليه ، ويوم القيامة ومايحويه، والمنزل الذى يستقر فيه . ومكمل هذا الجنس الترغيب والترهيب . ومنه الإخبار عن الناجين والهالكين وأحوالهم وما أداهم إليه حاصل أعمالهم . وإذا تقرر هذا تلخص من مجموع العلوم الحاصلة فى القرآن اثنا عشر علماً . وقد حصرها الغزالى فى ستة أقسام : ثلاثة منها هى السوابق والأصول المهمة . وثلاثة هى توابع ومتممة .

فأما الثلاثة - فهى تعريف المدعو إليه، وهو شرح معرفة الله تعالى، ويشتمل على معرفة الذات والصفات والأفعال وتعريف طريق السلوك إلى الله تعالى على الصراط المستقيم، وذلك بالتحلية بالأخلاق الحميدة والتزكية عن الأخلاق الذميمة وتعريف الحال عند الوصول إليه . ويشتمل على ذكر حالى النعم (النعيم) والعذاب، ومايتقدم ذلك من أحوال القيامة .

وأما الثلاثة الأخر - فهى تعريف أحوال المجيبين للدعوة . وذلك قصص الأنبياء والأولياء. وسره الترغيب. وأحوال الناكبين. وذلك قصص أعداء الله. وسره الترهيب. والتعريف بمحاجة الكفار بعد حكاية أقوالهم الزائغة. وتشتمل على ذكر الله بما ينزه عنه ، وذكر النبى عليه السلام بمالا يليق به . وادكار عاقبة الطاعة والمعصية . وسره فى جنبة الباطل التحذير والإفضاح، وفى جنبة الحق التثبيت والإيضاح . والتعريف بعمارة منازل الطريق وكيفية أخذ الأهبة والزاد. ومعناه محصول ما ذكره الفقهاء فى العبادات والعادات والمعاملات والجنايات .

وهذه الأقسام الستة تتشعب إلى عشرة ، وهى : ذكر الذات ، والصفات ، والأفعال ، والمعاد ، والصراط المستقيم ، وهو جانب التحلية والتزكية ، وأحوال الأنبياء ، والأولياء ، والأعداء ، ومحاجة الكفار، وحدود الأحكام .

فصل

«فى أن المدنىّ من السور منزل فى الفهم على المكىّ»

قال الشاطبىّ : المدنىّ من السور ينبغى أن يكون منزلا فى الفهم على المكىّ ، وكذلك المكىّ بعضه مع بعض . والمدنىّ بعضه مع بعض . على حسب ترتيبه فى التنزيل . وإلا لم يصح . والدليل على ذلك أن معنى الخطاب المدنىّ ، فى الغالب ، مبنىّ على المكىّ . كما أن المتأخر من كل واحد منهما مبنىّ على متقدمه . دل على ذلك الاستقراء . وذلك إنما يكون ببيان مجمل، أو تخصيص عموم، أو تقييد مطلق، أو تفصيل مالم يفصل ، أوتكميل مالم يظهر تكميله . وأول شاهد على هذا أصل الشريعة : فإنها جاءت متممة لمكارم الأخلاق ومُصْلحة لما أُفْسِدَ قبلُ من ملة إبراهيم عليه السلام . ويليه تنزيل سورة الأنعام . فإنها نزلت مبينة لقواعد العقائد وأصول الدين . وقد خرّج العلماء منها قواعد التوحيد التى صنف فيها المتكلمون من أول إثبات واجب الوجود إلى إثبات الإمامة . هذا ما قالوا . وإذانظرت بالنظر المسوق فى هذا الكتاب تبين به ، من قرب ، بيانُ القواعد الشرعية الكلية التى إذا انخرم منها كلىّ واحد انخرم نظام الشريعة ، أو نقص منها أصل كلىّ .

ثم لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة كان من أول مانزل عليه سورة البقرة ، وهى التى قررت قواعد التقوى المبنية على قواعد سورة الأنعام . فإنها بينت من أقسام أفعال المكلفين جملتها ، وإن تَبَيَّن فى غيرها تفاصيل لها . كالعبادات التى هى قواعد الإسلام . والعادات من أصل المأكول والمشروب وغيرها . والمعاملات من البيوع والأنكحة وما دار بها . والجنايات من أحكام الدماء ومايليها . وأيضا ، فإن حفظ الدين فيها وحفظ النفس والعقل والنسل والمال مضمن فيها . وما خرج عن المقرر فيها فبحكم التكميل . فغيرها من السور المدنية المتأخرة عنها مبنىّ عليها ، كما كان غير الأنعام ، من المكىّ المتأخر عنها ، مبنيا عليها . وإذا تنزلتَ إلى سائرالسور بعضها مع بعض فى الترتيب وجدتها كذلك حذو القذة بالقذة . فلا يغيبَنّ على الناظر فى الكتاب هذا المعنى فإنه من أسرار علوم التفسير . وعلى حسب المعرفة به تحصل له المعرفة بكلام ربه سبحانه .

ثم قال الشاطبىّ :

فصل

وللسنة هنا مدخل لأنها مبينة للكتاب . فلا تقع فى التفسير إلا على وفقه . وبحسب المعرفة بالتقديم والتأخير يحصل بيان الناسخ من المنسوخ فى الحديث. كما يتبين ذلك فى القرآن أيضا . ويقع فى الأحاديث أشياء تقررت قبل تقرير كثير من المشروعات. فيأتى فيها إطلاقات أوعمومات ربما أوهمت ففهم منها مايفهم منها لو وردت بعد تقرير تلك المشروعات . كحديث[(١)] « من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة » . أو حديث[(٢)] « ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، صدقا من قلبه ، إلا حرمه الله على النار ». وفى المعنى أحاديث كثيرة وقع من أجلها الخلاف بين الأمة فيمن عصى الله من أهل الشهادتين . فذهبت المرجئة إلى القول بمقتضى هذه الظواهر على الإطلاق . وكأن ما عارضها مؤول عند هؤلاء . وذهب أهل السنة والجماعة إلى خلاف ما قالوه حسبما هو مذكور فى كتبهم. وتأولوا هذه الظواهر. ومن جملة ذلك أن طائفة من السلف قالوا : إن هذه الأحاديث منزلة على الحالة الأولى للمسلمين. وذلك قبل أن تنزل الفرائض والأمر والنهى . ومعلوم أن من مات فى ذلك الوقت ولم يصلّ أولم يصم ، مثلاً ، وفعل ما هو محرم فى الشرع ـ لا حرج عليه . لأنه لم يكلف بشىء من ذلك بعدُ . فلم يضيع من أمر إسلامه شيئا . كما أن من مات والخمر فى جوفه قبل أن تحرم فلا حرج عليه، لقوله تعالى : « لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ »[(٣)] الآية . وكذلك من مات قبل أن تحوّل القبلة نحو الكعبة ، لا حرج عليه

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، ح ٤٣ عن عثمان.

(٢) أخرجه البخارىّ فى صحيحه فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ٤٩ ـ باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا ، عن أنس بن مالك .

(٣) [٥ / المائدة / ٩٣] ونصها : لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا ، وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

فى صلاته إلى بيت المقدس . لقوله تعالى : « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ » [1] .
إلى أشياء من هذا القبيل فيها بيان لما نحن فيه ، وتصريح بأن اعتبار الترتيب فى النزول
مفيد فى فهم الكتاب والسنة .

---

(١) [٢ / البقرة / ١٤٣] ونصها : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ، وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِى كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ، وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ .

فصل

فى الاعتدال فى التفسير

قال الشاطبىّ : ربما أخذ تفسير القرآن على التوسط والاعتدال . وعليه أكثر السلف المتقدمين . بل ذلك شأنهم وبه كانوا أفقه الناس فيه ، وأعلم العلماء بمقاصده وبواطنه . وربما أخذ على أحد الطرفيْن الخارجيْن عن الاعتدال ، إما على الإفراط وإما على التفريط * وكلا طرفى قصد الأمور ذميم * فالذين أخذوه على التفريط قصروا فى فهم اللسان الذى به جاء ، وهو العربية ، فما قاموا فى تفهم معانيه ، ولا فهموا . كما تقدم عن الباطنية وغيرها . ولا إشكال فى اطّراح التعويل على هؤلاء . والذين أخذوه على الإفراط أيضاً قصروا فى فهم معانيه من جهة أخرى . وقد تقدم فى كتاب المقاصد بيان أن الشريعة أمية . وأن ما لم يكن معهوداً عند العرب فلا يعتبر فيها . ومرّ فيه أنها لا تقصد التدقيقات فى كلامها . ولا تعتبر ألفاظها كل الاعتبار إلا من جهة ما تؤدى المعانى المركبة . فما وراء ذلك ، إن كان مقصوداً لها ، فبالقصد الثانى . ومن جهة ما هو مُعِين على إدراك المعنى المقصود . كالمجاز والاستعارة والكناية . وإذا كان كذلك فربما لا يحتاج فيه إلى فكر . فإن احتاج الناظر فيه إلى فكر خرج عن نمط الحُسْن إلى نمط القُبْح والتكلف . وذلك ليس من كلام العرب . فكذلك لايليق بالقرآن من باب الأوْلى . وأيضاً ، فإنه حائل بين الإنسان وبين المقصود من الخطاب من التفهم لمعناه ثم التعبد بمقتضاه . وذلك أنه إعذار وإنذار وتبشير وتحذير وردٌّ إلى الصراط المستقيم . فكم بَيْنَ من فهم معناه ورأى أنه مقصود العبارة فَدَاخَلَهُ من خوفِ الوعيد ورجاءِ الموعود ما صار به مشمِّرًا عن ساعد الجد والاجتهاد ، باذلا غاية الطاقة فى الموافقات ، هارباً بالكلية عن المخالفات — وبين من أخذ فى تحسين الإيراد والاشتغال بمآخذ العبارة ومدارجها ، وَلِمَ اختلفت مع مرادفتها مع أن المعنى واحد .

وتفريع التجنيس ، ومحاسن الألفاظ ، والمعنى المقصود فى الخطاب ، بمعزل عن النظر فيه .

كل عاقل يعلم أن مقصود الخطاب ليس هو التفقه فى العبارة ، بل التفقه فى المعبر عنه ، وما المراد به . هذا لا يرتاب فيه عاقل . ولا يصح أن يقال : إن التمكن فى التفقه فى الألفاظ والعبارات وسيلة إلى التفقه فى المعانى ، بإجماع العلماء . فكيف يصح إنكار مالا يمكن إنكاره؟ ولأن الاشتغال بالوسيلة والقيام بالفرض الواجب فيها ، دون الاشتغال بالمعنى المقصود ، لاينكر فى الجملة . وإلّا لزم ذم علم العربية بجميع أصنافه . وليس كذلك باتفاق العلماء . لأنا نقول : ما ذكرته فى السؤال لا ينكر بإطلاق . كيف ؟ وبالعربية فهمنا عن الله تعالى مراده من كتابه . وإنما المنكر الخروج فى ذلك إلى حد الإفراط الذى يُشَكُّ فى كونه مراد المتكلم . أو يظن أنه غير مراد . أو يقطع به فيه . لأن العرب لم يفهم منها قصد مثله فى كلامها . ولم يشتغل بالتفقه فيها سلف هذه الأمة . فما يؤمننا من سؤال الله تعالى لنا يوم القيامة: من أين فهمتم عنى أنى قصدت التجنيس الفلانىّ بما أنزلت من قولى: « وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً »[1] ، أو قولى « قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُمْ مِنَ القَالِينَ »[2] ؟

فإن فى دعوى مثل هذا على القرآن ، وأنه مقصود للمتكلم به، خطراً . بل هو راجع إلى معنى قوله تعالى : « إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ »[3] وإلى أنه قول فى كتاب الله بالرأى . وذلك بخلاف الكناية فى قوله تعالى : « أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ »[4] وقوله :

---

(١) [١٨ / الكهف / ١٠٤] ونصها : الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً .

(٢) [٢٦ / الشعراء / ١٦٨] .

(٣) [٢٤ / النور / ١٥] .

(٤) [٤ / النساء / ٤٣] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُباً إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا ، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ =

« كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ »(١) وما أشبه ذلك . فإنه شائع فى كلام العرب ، مفهوم من مساق الكلام ، معلوم اعتباره عند أهل اللسان ضرورة . والتجنيس ونحوه ليس كذلك . وفرق ما بينهما خدمة المعنى المراد وعدمه . إذ ليس فى التجنيس ذلك . والشاهد على ذلك ندوره فى العرب الأجلاف البوّالين على أعقابهم . (كما قال أبو عبيدة) ، ومن كان نحوهم . وشهرة الكناية وغيرها . ولا تكاد تجد ما هو نحو التجنيس إلا فى كلام المولدين ومن لا يحتج به. فالحاصل أن لكل علم عدلا ، وطرفا إفراط وتفريط . والطرفان هما المذمومان . والوسط هو المحمود .

= تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا .

و [٥ / المائدة / ٦] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ، وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ، مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

(١) [٥ / المائدة / ٧٥] ونصها : مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ، انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ .

ثم قال الشاطبىّ :

فصل

إذا تعين أن العدل فى الوسط فمأخذ الوسط ربما كان مجهولا . والإحالة على مجهول لافائدة فيه . فلابد من ضابط يعوّل عليه فى مأخذ الفهم . والقول فى ذلك ، والله المستعان . إن المساقات تختلف باختلاف الأحوال والأوقات والنوازل. وهذا معلوم فى علم المعانى والبيان. فالذى يكون على بالٍ من المستمع المتفهم الالتفاتُ إلى أول الكلام وآخره بحسب القضية وما اقتضاه الحال فيها . لا ينظر فى أولها دون آخرها ولا فى آخرها دون أولها . فإن القضية ، وإن اشتملت على جمل ، فبعضها متعلق بالبعض . لأنها قضية واحدة نازلة فى شىء واحد . فلا محيص للمتفهم عن رد آخر الكلام على أوله ، وأوله على آخره . وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع فى فهم المكلف . فإن فرّق النظر ، فى أجزائه فلا يتوصل به إلى مراده . فلا يصح الاقتصار فى النظر على بعض أجزاء الكلام دون بعض إلا فى موطن واحد . وهو النظر فى فهم الظاهر بحسب اللسان العربىّ وما يقتضيه . لا بحسب مقصود المتكلم . فإذا صح له الظاهر على العربية رجع إلى نفس الكلام . فعمّا قريب يبدو له منه المعنى المراد . فعليه بالتعبد به . وقد يعينه على هذا المقصد النظر فى أسباب التنزيل فإنها تبين كثيرا من المواضع التى يختلف مغزاها على الناظر . غير أن الكلام المنظور فيه ، تارة يكون واحدا بكل اعتبار ، بمعنى أنه أنزل فى قضية واحدة ، طالت أو قصرت . وعليه أكثر سور المفصل . وتارة يكون متعددا فى الاعتبار ، بمعنى أنه أنزل فى قضايا متعددة كسورة البقرة وآل عمران والنساء واقرأ باسم ربك وأشباهها . ولا علينا أنزلت السورة بكمالها دفعة واحدة ، أم نزلت شيئاً بعد شىء . ولكن هذا القسم له اعتباران : اعتبار من جهة تعدد القضايا فتكون كل قضية مختصة بنظرها . ومن هنالك يلتمس الفقه على وجه ظاهر لا كلام فيه ، ويشترك مع هذا الاعتبار القسم الأول . فلا فرق بينهما فى التماس العلم والفقه . واعتبار من جهة النظم الذى وجدنا عليه السورة . إذ هو ترتيب بالوحى لا مدخل فيه لآراء الرجال،

ويشترك معه أيضا القسم الأول. لأنه نظم أُلقى بالوحى ، وكلاهما لا يلتمس منه فقه على وجه ظاهر . وإنما يلتمس منه ظهور بعض أوجه الإعجاز . وبعض مسائل نبه عليها فى المسألة السابقة قبل . وجميع ذلك لابد فيه من النظر فى أول الكلام وآخره بحسب تلك الاعتبارات. فاعتبارجهة النظم، مثلاً ، فى السورة لا يتم به فائدة إلا بعد استيفاء جميعها بالنظر . فالاقتصار على بعضهافيه غير مفيدٍ غايةَ المقصود . كما أن الاقتصار على بعض الآية فى استفادة حكم ما، لا يفيد إلا بعد كمال النظر فى جميعها . فسورة البقرة مثلاً كلام واحد باعتبار النظم . واحتوت على أنواع من الكلام بحسب مابث فيها : منها ماهو كالمقدمات والتمهيدات بين يدى الأمر المطلوب . ومنها ماهو كالمؤكد والمتمم . ومنها ماهو المقصود فى الإنزال . وذلك تقرير الأحكام على تفاصيل الأبواب .

ومنها : الخواتم العائدة على ماقبلها بالتأكيد والتثبيت وما أشبه ذلك . ولا بد من تمثيل شىء من هذه الأقسام . فبه يبين ما تقدم .

فقوله تعالى : « يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ »(1) إلى قوله : « كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ » . كلام واحد وإن نزل فى أوقات شتى . وحاصله بيان الصيام وأحكامه وكيفية آدابه وقضائه وسائر ما يتعلق به من الجلائل التى لا بد منها ، ولا ينبنى إلا عليها .

ثم جاء قوله : «وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ »(2) الآية. كلاما آخر، بيّن أحكاما أخر .

---

(1) [٢ / البقرة / ١٨٣] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .

(2) [٢ / البقرة / ١٨٨] ونصها : وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

وقوله : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ »(١) . وانتهى الـكلام على قول طائفة . وعند أخرى أن قوله : « وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ »(١) . الآية ، من تمام مسألة الأهلة . وإن انجرّ معه شىء آخر . كما انجرّ على القولين معاً تذكير وتقديم لأحكام الحج فى قوله : « قُلْ هِىَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ » .

وقوله تعالى « إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ »(٢) . نازلة فى قضية واحدة .

وسورة اقرأ نازلة فى قضيتين : الأولى إلى قوله : « عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ »(٣) . والأخرى ما بقى إلى آخر السورة .

وسورة المؤمنين نازلة فى قضية واحدة وإن اشتملت على معان كثيرة فإنها من المـكيات.

وغالب المـكىّ أنه مقرر لثلاثة معان . أصلها معنى واحد . وهو الدعاء إلى عبادة الله تعالى : أحدها تقرير الوحدانية لله الواحد الحق . غير أنه يأتى على وجوه ، كنفى الشريك بإطلاق. أو نفيه بقيدِ ما ادعاه الـكفار فى وقائع مختلفة من كونه مقرِّبا إلى الله زلفى ، أو كونه ولدا أو غير ذلك من أنواع الدعاوى الفاسدة .

والثانى : تقرير النبوة للنبىّ محمد وأنه رسول الله إليهم جميعاً ، صادق فيما جاء به من عند الله . إلا أنه وارد على وجوه أيضا : كإثبات كونه رسولا حقا ، ونفى ما ادعوه عليه من أنه كاذب أو ساحر أو مجنون أو يعلّمه بشر ، أو ما أشبه ذلك من كفرهم وعنادهم .

والثالث : إثبات أمر البعث والدار الآخرة ، وإنه حق لا ريب فيه، بالأدلة الواضحة

---

(١) [٢ / البقرة / ١٨٩] ونصها : يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ، قُلْ هِىَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ، وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ ، وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

(٢) [١٠٨ / الـكوثر / ١ـ٣] ونصها : إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ .

(٣) [٩٦ / العلق / ٥] .

والرد على من أنكر ذلك بكل وجه يمكن الكافر إنكاره به . فرد بكل وجه يلزم الحجة ويبكت الخصم ويوضح الأمر .

فهذه المعانى الثلاثة هى التى اشتمل عليها المنزل من القرآن بمكة . فى عامة الأمر . وما ظهر ببادى الرأى خروجه عنها، فراجع إليها فى محصول الأمر . ويتبع ذلك الترغيب والترهيب والأمثال والقصص وذكر الجنة والنار ووصف يوم القيامة وأشباه ذلك .

فإذا تقرر هذا وعدنا الى النظر فى سورة المؤمنين مثلا ، وجدنا فيها المعانى الثلاثة على أوضح الوجوه. إلا أنه غلب على نسقها ذكر إنكار الكفار للنبوءة التى هى المدخل للمعنيين الباقيين. وإنهم إنما أنكروا ذلك بوصف البشرية ، ترفعا منهم أن يرسل إليهم من هو مثلهم أو ينال هذه الرتبة غيرهم ، إن كانت . فجاءت السورة تبين وصف البشرية وما تنازعوا فيه منها . وبأى وجه تكون على أكمل وجوهها ، حتى تستحق الاصطفاء والاجتباء من الله تعالى ، فافتتحت السورة بثلاث جمل: إحداها ، وهى الآكد فى المقام ، بيان الأوصاف المكتسبة للعبد . التى إذا اتصف بها رفعه الله وأكرمه . وذلك قوله «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ » إلى قوله : « هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[١] » والثانية بيان أصل التكوين للإنسان وتطويره الذى حصل له ، جاريا على مجارى الاعتبار والاختيار . بحيث لا يجد الطاعن ، إلى من هذا حاله ، سبيلا . والثالثة . بيان وجوه الإمداد له من خارج بما يليق به فى التربية والرفق والإعانة على إقامة الحياة . وإن ذلك له بتسخير السماوات والأرض ومابينهما. وكفى بهذا تشريفا وتكريما. ثم ذكرت قصص من تقدم مع أنبيائهم واستهزائهم بهم بأمور . منها كونهم من البشر . ففى

(١) [٢٣ / المؤمنون / ١ ـ ١١] ونصها : قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۞ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۞ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۞ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۞ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۞ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

قصة نوح مع قومه قولهم: « مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ »[1]. ثم أجمل ذكر قوم آخرين أرسل فيهم رسولا منهم، أى من البشر، لا من الملائكة: « فَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ »[2] الآية «وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ »[3] . ثم قالوا : « إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا »[4] أى هو من البشر . ثم قال تعالى : « ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ، كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ »[5] فقوله « رسولها » مشيراً إلى أن المراد رسولها الذى تعرفه منها . ثم ذكر موسى وهٰرون وردّ فرعون وملئه بقولهم : « أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا »[6] الخ . هذا كله حكاية عن الكفار الذين غضوا من رتبة النبوءة بوصف البشرية ، تسلية لمحمد عليه السلام. ثم بيّن أن وصف البشرية للأنبياء لاغضّ فيه، وأن جميع الرسل إنما كانوا من البشر،

---

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٢٤] ونصها : فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ءَابَائِنَا الْأَوَّلِينَ .

(٢) [٢٣/ المؤمنون/ ٣٣] ونصها : وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ .

(٣) [٢٣ / المؤمنون / ٣٤] .

(٤) [٢٣ / المؤمنون / ٣٨] ونصها : إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ .

(٥) [٢٣ / المؤمنون / ٤٤] ونصها : ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ، كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ، فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ .

(٦) [٢٣ / المؤمنون / ٤٧] ونصها : فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ .

يأكلون ويشربون ، كجميع الناس ، والاختصاص أمر آخر من الله تعالى . فقال بعد تقرير رسالة موسى : « وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ءَايَةً »(١) وكانا مع ذلك يأكلان ويشربان . ثم قال : « يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ »(٢) أى هـذا من نعم الله عليكم ، والعملُ الصالحُ شكرُ تلك النعم ، ومشرِّف للعامل به. فهو الذى يوجب التخصيص، لاالأعمال السيئة. وقوله : « وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِـــدَةً »(٣) إشارة إلى التماثل بينهم وأنهم جميعاً مصطفَوْن من البشر . ثم ختم هذا المعنى بنحوٍ مما به بدأ فقال: « إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ » إلى قوله : « وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ »(٤) .

وإذا تأمل هـذا النمط من أول السورة إلى هنا ، فهم أن ما ذكر من المعنى هو المقصود مضافاً إلى المعنى الآخر. وهو أنهم إنما قالوا ذلك وغضوا من الرسل بوصف البشرية استكباراً من أشرافهم وعُتُوًّا على الله ورسوله . فإن الجملة الأولى من أول السورة تشعر بخـلاف الاستكبار وهو التعبد لله بتلك الوجوه المذكورة . والجملة الثانية مؤذنة بأن الإنسان منقول فى أطوار العدم وغاية الضعف . فإن التارات السبع أتت عليه . وهى كلها ضعف إلى ضعف.

---

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٥٠] ونصها : وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ءَايَةً وَءَاوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ .

(٢) [٢٣ / المؤمنون / ٥١] ونصها : يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ، إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ .

(٣) [٢٣ / المؤمنون / ٥٢] ونصها: وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ .

(٤) [٢٣ / المؤمنون / ٥٧ ـ ٦١] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ .

وأصله العدم . فلا يليق، بمن هذه صفته، الاستكبار . والجملة الثالثة مشعرة بالاحتياج إلى تلك الأشياء والافتقار إليها . ولولا خلقها لم يكن للإنسان بقاء بحكم المادة الجارية . فلا يليق بالفقير الاستكبار على من هو مثله فى النشأة والخلق . فهذا كله كالتنكيت عليهم. والله أعلم.

ثم ذكر القصص فى قوم نوح « فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ »(١) والملأ هم الأشراف ، وكذلك فيمن بعدهم « وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ »(٢) الآية . وفى قصة موسى: « أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ »(٣) ومثل هذا الوصف يدل على أنهم، لشرفهم فى قومهم، قالوا هذا الكلام .

ثم قوله : « فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ »(٤) إلى قوله : « لَا يَشْعُرُونَ » رجوع إلى وصف أشراف قريش وأنهم إنما تشرفوا بالمال والبنين . فرد عليهم بأن الذى يجب له الشرف من كان على هذا الوصف، وهو قوله:«إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ»(٥) ثم رجعت الآيات إلى وصفهم فى ترفهم وحال مآلهم وذكر النعم عليهم والبراهين على صحة النبوءة، وأن ما قال عن الله حقٌّ من إثبات الوحدانية ونفى الشريك وأمور الدار الآخرة للمطيعين والعاصين ، حسبما اقتضاه الحال والوصف للفريقين . فهذا النظر ، إذا اعتبر كليا

---

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٢٤] ونصها : فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ .

(٢) [٢٣ / المؤمنون / ٣٣] ونصها: وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ .

(٣) [٢٣ / المؤمنون / ٤٧] ونصها : فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ .

(٤) [٢٣ / المؤمنون / ٥٤] .

(٥) [٢٣ / المؤمنون / ٥٧] .

فى السورة ، وجد على أتم من هذا الوصف . لكن على منهاجه وطريقه . ومن أراد الاعتبار فى سائر سور القرآن فالباب مفتوح . والتوفيق بيد الله .

فسورة المؤمنين قصة واحدة فى شىء واحد .

وبالجملة، فحيث ذكر قصص الأنبياء ، عليهم السلام ، كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى وهرون ، فإنما ذلك تسلية لمحمد عليه السلام وتثبيت لفؤاده . لما كان يلقى من عناد الكفار وتكذيبهم له على أنواع مختلفة . فتذكر القصة على النحو الذى يقع له مثله . وبذلك اختلف مساق القصة الواحدة بحسب اختلاف الأحوال . والجميع حق واقع لا إشكال فى صحته .

وعلى حذو ما تقدم من الأمثلة يحتذى فى النظر فى القرآن لمن أراد فهم القرآن ، والله المستعان .

فصل

فيما جاء من إعمال الرأى فى القرآن الكريم

قال الشاطبىّ : إعمال الرأى فى القرآن جاء ذمه وجاء أيضاً ما يقتضى إعماله . وحسبك من ذلك ما نقل عن الصدّيق . فإنه نقل عنه أنه قال ، وقد سئل فى شىء من القرآن : أىّ سماء تظلنى وأىّ أرض تقلنى إن أنا قلت فى كتاب الله مالا أعلم[1] ؟ وربما روى فيه : إذا قلت فى كتاب الله برأيى. ثم سئل عن الكلالة المذكورة فى القرآن فقال : أقول فيها برأيى. فإن كان صواباً فمن الله ، وإن كان خطأ فمنى ومن الشيطان : الكلالة كذا وكذا .

فهذان قولان اقتضيا إعمال الرأى وتركه فى القرآن، وهما لا يجتمعان.

والقول فيه : أن الرأى ضربان: أحدها جارٍ على موافقة كلام العرب وموافقة الكتاب والسنة ، فهذا لايمكن إهمال مثله لعالم بهما ، لأمور :

أحدها : أن الكتاب لابد من القول فيه ببيان معنى واستنباط حكمٍ وتفسير لفظٍ وفهم مرادٍ . ولم يأت جميع ذلك عمن تقدم . فإما أن يتوقف دون ذلك فتتعطل الأحكام كلها أو أكثرها ، وذلك غير ممكن . فلابد من القول فيه بما يليق .

والثانى : أنه لو كان كذلك للزم أن يكون الرسول ﷺ مبيِّناً ذلك كله بالتوقيف . فلا يكون لأحد فيه نظر ولا قول . والمعلوم أنه عليه السلام لم يفعل ذلك . فدل على أنه لم يكلَّف به على ذلك الوجه . بل بيّن منه مالا يُوصَل إلى علمه إلا به . وترك كثيراً مما يدركه أرباب الاجتهاد باجتهادهم . فلم يلزم فى جميع تفسير القرآن التوقيف .

والثالث : أن الصحابة كانوا أوْلَى بهذا الاحتياط من غيرهم . وقد علم أنهم فسروا القرآن على مافهموا . ومن جهتهم بَلَغَنَا تفسيرُ معناه . والتوقيف ينافى هذا . فإطلاق القول بالتوقيف والمنع من الرأى ، لا يصح .

---

(١) انظر ص ٧٦ حاشية رقم ٤ .

والرابع : أن هذا الفرض لايمكن . لأن النظر فى القرآن من جهتين : من جهة الأمور الشرعية ، فقد يسلم القول بالتوقيف فيه وترك الرأى والنظر جدلا . ومن جهة المآخذ العربية ، وهذا لايمكن فيه التوقيف . وإلا لزم ذلك فى السلف الأولين . وهو باطل . فاللازم عنه مثله . وبالجملة فهو أوضح من إطناب فيه .

وأما الرأى غير الجارى على موافقة العربية أو الجارى على الأدلة الشرعية ، فهذا هو الرأى المذموم من غير إشكال . كما كان مذموماً فى القياس أيضاً . لأنه تقوّل على الله بغير برهان . فيرجع إلى الكذب على الله تعالى . وفى هذا القسم جاء من التشديد فى القول بالرأى فى القرآن ما جاء . كما روى عن ابن مسعود : ستجدون أقواماً يدعونكم إلى كتاب الله وقد نبذوه وراء ظهورهم . فعليكم بالعلم . وإياكم التبدع . وإياكم والتنطع . وعليكم بالعتيق . وعن عمر بن الخطاب : إنما أخاف عليكم رجلين : رجل يتأول القرآن على غير تأويله، ورجل ينافس الملك على أخيه . وعن عمر أيضا : ما أخاف على هذه الأمة من مؤمن ينهاه إيمانه . ولا من فاسق بيّنٍ فسقه، ولكنى أخاف عليها رجلا قد قرأ القرآن حتى أذلقه بلسانه ثم تأوله على غير تأويله . والذى ذكر عن أبى بكر الصديق أنه سئل عن قوله : «وَفَاكِهَةً وَأَبًّا» فقال : أىّ سماء تظلنى .. الحديث . وسأل رجل ابن عباس عن يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ؟ فقال له ابن عباس : فما يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ؟ فقال الرجل : إنما سألتك لتحدثنى . فقال ابن عباس : هما يومان ذكرها الله فى كتابه، الله أعلم بهما. نكره أن نقول فى كتاب الله مالا نعلم . وعن سعيد بن المسيّب أنه كان إذا سئل عن شىء من القرآن قال : أنا لا أقول فى القرآن شيئا . وسأله رجل عن آية ؟ فقال : لا تسألنى عن القرآن وسل عنه من يزعم أنه لا يخفى عليه شىء منه (يعنى عكرمة) .

وكأن هذا الكلام مشعر بالإنكار على من يزعم ذلك .

وقال ابن سيرين : سألت عبيدة عن شىء من القرآن ؟ فقال : اتق الله وعليك بالسداد. فقد ذهب الذين يعلمون فيم أُنزل القرآن .

وعن مسروق قال : اتقوا التفسير فإنما هو الرواية عن الله .

وعن إبراهيم قال : كان أصحابنا يتقون التفسير ويهابونه .

وعن هشام بن عروة قال : ما سمعت أبى تأول آية من كتاب الله .

وإنما هذا كله توقٍ وتحرز أن يقع الناظر فيه فى الرأى المذموم والقول فيه من غير تثبت.

وقد نقل عن الأصمعى، وجلالته فى معرفة كلام العرب معلومة . أنه لم يفسر قط آية من كتاب الله . وإذا سئل عن ذلك لم يجب . (انظر الحكاية عنه فى الكامل)

ثم قال الشاطبى : فالذى يستفاد من هذا الموضع أشياء . منها : التحفظ من القول فى كتاب الله تعالى إلا على بينة . فإن الناس، فى العلم بالأدوات المحتاج إليها فى التفسير، على ثلاث طبقات .

إحداها : من بلغ فى ذلك مبلغ الراسخين كالصحابة والتابعين ومن يليهم . وهؤلاء قالوا مع التوقى والتحفظ والهيبة والخوف من الهجوم . فنحن أولى بذلك منهم إن ظننَّا بأنفسنا أنا فى العلم والفهم مثلهم . وهيهات .

والثانية : من علم من نفسه أنه لم يبلغ مبالغهم ولا داناهم . فهذا طرف لا إشكال فى تحريم ذلك عليه .

والثالثة : من شك فى بلوغه مبلغ أهل الإجتهاد، أوظن ذلك فى بعض علومه دون بعض . فهذا أيضا داخل تحت حكم المنع من القول فيه . لأن الأصل عدم العلم. فعندما يبقى له شك أو تردد فى الدخول مدخل العلماء الراسخين، فانسحاب الحكم الأول عليه باقٍ بلا إشكال. وكل أحد فقيه نفسه فى هذا المجال . وربما تعدى بعض أصحاب هذه الطبقة طوره، فحسّن ظنه بنفسه، ودخل فى الكلام فيه مع الراسخين . ومن هنا افترقت الفرق، وتباينت النحل، وظهر فى تفسير القرآن الخلل .

ومنها : أن من ترك النظر فى القرآن، واعتمد فى ذلك على من تقدمه ، ووكل إليه النظر فيه ، غير ملوم . وله فى ذلك سعة . إلا فيما لابد منه، وعلى حكم الضرورة . فإن النظر فيه

يشبه النظر فى القياس . وما زال السلف الصالح يتحرجون من القياس فيما لا نص فيه . وكذلك وجدناهم فى القول فى القرآن . فإن المحظور فيهما واحد . وهو خوف التقوّل على الله . بل القول فى القرآن أشد . فإن القياس يرجع إلى نظر الناظر . والقول فى القرآن يرجع إلى أن الله أراد كذا أو عنى كذا، بكلامه المنزل. وهذا عظيم الخطر.

ومنها أن يكون على بال من الناظر، والمفسر، والمتكلم عليه، أن مايقوله تقصيد منه للمتكلم. والقرآن كلام الله . فهو يقول بلسان بيانه : هذا مراد الله من هذا الكلام . فليتثبت أن يسأله الله تعالى: من أين قلت عنى هذا ؟ فلا يصح له ذلك إلا ببيان الشواهد . وإلا ، فمجرد الاحتمال يكفى بأن يقول : يحتمل أن يكون المعنى كذا وكذا . بناء أيضاً على صحة تلك الاحتمالات فى صلب العلم . وإلّا ، فالاحتمالات التى لا ترجع إلى أصل غير معتبرة . فعلى كل تقدير، لابد فى كل قول ، يجزم به أو يحتمل ، من شاهد يشهد لأصله . وإلا كان باطلاً . ودخل صاحبه تحت أهل الرأى المذموم ، والله أعلم .

فصل

فى أن الأدلة الشرعية لاتنافى قضايا العقول

قال الشاطبىّ : الأدلة الشرعية لا تنافى قضايا العقول ، والدليل على ذلك من وجوه :

أحدها : أنها لو نافتها لم تكن أدلة للعباد على حكم شرعىّ ولا غيره ، لكنها أدلة باتفاق العقلاء ، فدلّ أنها جارية على قضايا العقول . وبيان ذلك أن الأدلة إنما نصبت فى الشريعة لتتلقاها عقول المكلفين، حتى يعملوا بمقتضاها من الدخول تحت أحكام التكليف ، ولو نافتها لم تتلقها ، فضلًا أن تعمل بمقتضاها . وهذا معنى كونها خارجة عن حكم الأدلة . ويستوى ، فى هذا ، الأدلةُ المنصوبة على الأحكام الإلٰهية وعلى الأحكام التكليفية .

والثانى : أنها لو نافتها لكان التكليف بمقتضاها تكليفاً بما لا يطاق . وذلك من جهة التكليف بتصديق ما لا يصدقه العقل ، ولا يتصوره . بل يتصور خلافه ويصدقه . فإذا كان كذلك امتنع على العقل التصديق ، ضرورة . وقد فرضنا ورود التكليف المنافى التصديق، وهو معنى تكليف مالا يطاق . وهو باطل حسبما هو مذكور فى الأصول .

والثالث : أن مورد التكليف هو العقل . وذلك ثابت قطعاً بالاستقراء التام . حتى إذا فقد ارتفع التكليف رأساً . وعُدّ فاقده كالبهيمة المهملة . وهذا واضح فى اعتبار تصديق العقل بالأدلة فى لزوم التكليف . فلو جاءت على خلاف ما يقتضيه لكان لزوم التكليف على العاقل أشد من لزومه على المعتوه والصبىّ والنائم . إذ لا عقل لهؤلاء يصدق أو لا يصدق . بخلاف العاقل الذى يأتيه مالا يمكن تصديقه به . ولما كان التكليف ساقطاً عن هؤلاء، لزم أن يكون ساقطاً عن العقلاء أيضاً . وذلك مناف لوضع الشريعة . فكان ما يؤدى إليه باطلًا .

والرابع : أنه لو كان كذلك لكان الكفار أولى من ردّ الشريعة به . لأنهم كانوا فى غاية الحرص على ردّ ما جاء به رسول الله ﷺ . حتى كانوا يفترون عليه وعليها . فتارة يقولون ساحر . وتارة مجنون . وتارة يكذبونه . كما كانوا يقولون فى القرآن : سحر ، وشعر،

وافتراء ، وإنما يعلمه بشر ، وأساطير الأولين . بل كان أولى ما يقولون: إن هـذا لا يعقل ، أو هو مخالف للعقول أو ما أشبه ذلك . فلما لم يكن من ذلك شيء ، دلّ على أنهم عقلوا ما فيه وعرفوا جريانه على مقتضى العقول. إلا أنهم أَبَوْا من اتباعه لأمور أخر ، حتى كان من أمرهم ما كان . ولم يعترضه أحد بهذا المدّعى . فـكان قاطعاً فى نفيه عنه .

والخامس : إن الإستقراء دل على جريانها على مقتضى العقول بحيث تصدقها العقول الراجحة ، وتنقاد لها طائعةً أو كارهةً . ولا كلام فى عناد معاند ولا فى تجاهل متعامٍ . وهو المعنى بكونها جارية على مقتضى العقول ، لا أن العقول حاكمة عليها ولا محسّنة فيها ولا مقبحة . وبسط هذا الوجه مذكور فى كتاب المقاصد فى بيان قصد الشارع فى وضع الشريعة للإفهام . فإن قيل: هذه دعوى عريضة يصدّ عن القول بها غيرُ ما وجهٍ :

أحدها : أن فى القرآن ما لا يعقل معناه أصلًا . كفواتح السور . فإن الناس قالوا : إن فى القرآن مايعرفه الجمهور ، وفيه مالا يعرفه إلا العرب ، وفيه مالا يعرفه إلا العلماء بالشريعة ، وفيه ما لا يعرفه إلا الله . فأين جريان هذا القسم على مقتضى العقول ؟

والثانى : أن فى الشريعة متشابهات لا يعلمهن كثير من الناس أو لايعلمها إلا الله تعالى . كالمتشابهات الفروعية ، وكالمتشابهات الأصولية . ولا معنى لاشتباهها إلا أنها تتشابه على العقول فلا تفهمها أصلًا . ولا يفهمها إلا القليل . والمعظم مصدودون عن فهمها . فـكيف يطلق القول بجريانها على فهم العقول .

والثالث : أن فيها أشياء اختلفت على العقول حتى تفرّق النـاس بها فِرَقًا وتحزّبوا أحزاباً . وصار « كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ »[1] فقالوا فيها أقوالًا كلٌّ على مقـدار عقله ودينه . فمنهم من غلب عليـه هواه حتى أدّاه ذلك إلى الهلـكة . كنصارى نجران حين اتبعوا، فى القول بالتثليث، قولَ الله تعالى : فعلنا ، وقضينا ، وخلقنا . ثم بعدهم من أهل الانتماء

(١) [٣٠ / الروم / ٣٢] ونصها : مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ، كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ .

إلى الإسلام الطاعنين على الشريعة بالتناقض والاختلاف . ثم يليهم سائر الفرق الذين أخبر بهم رسول الله ﷺ . وكل ذلك ناشىء عن خطاب يَزِلّ به العقل . كما هو الواقع . فلو كانت الأدلة جارية على تعقلات العقول، لما وقع فى الاعتياد هذا الاختلاف . فلما وقع فُهِمَ أنه من جهة ماله خروج عن المعقول ، ولو بوجهٍ ما .

فالجواب عن الأول : إن فواتح السور ، للناس فى تفسيرها مقال . بناء على أنه مما يعلمه العلماء . وإن قلنا : إنه مما لا يعلمه العلماء البتة ، فليس مما يتعلق به تكليف على حال . فإذا خرج عن ذلك ، خرج عن كونه دليلا على شيء من الأعمال . فليس مما نحن فيه. وإن سلم ، فالقسم، الذى لايعلمه إلا الله تعالى فى الشريعة، نادر ، والنادر لا حكم له ، ولا تنخرم به الكلية المستدل عليها أيضاً ، لأنه مما لا يهتدى العقل إلى فهمه ، وليس كلامنا فيه . إنما الكلام على مايؤدى مفهوماً ، لكن على خلاف المعقول . وفواتح السور خارجة عن ذلك ، لأنا نقطع أنها لو بينت لنا معانيها لم تكن إلا على مقتضى العقول ، وهو المطلوب .

وعن الثانى : إن المتشابهات ليست مما تُعارض مقتضيات العقول وإن توهم بعض الناس فيها ذلك ، لأن من توهم فيها ذلك فبناء على اتباع هواه . كما نصت عليه الآية قوله تعالى : « فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَاتَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ»(١) لا أنه بناء على أمر صحيح . فإنه إن كان كذلك فالتأويل فيه راجع إلى معقول موافق لا إلى مخالف . وإن فرض أنها مما لا يعلمها أحد إلا الله ، فالعقول عنها مصدودة لأمر خارجىّ ، لا لمخالفته لها . وهذا كما يأتى فى الجملة الواحدة ، فكذلك يأتى فى الكلام المحتوى على جمل كثيرة وأخبارٍ بمعان كثيرة ، ربما يتوهم القاصرُ النظر، فيها الاختلافَ . وكذلك الأعجمىّ

---

(١) [٣ / آل عمران / ٧] ونصها : هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ . وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ .

الطبع الذي يظن بنفسه العلم بما ينظر فيه وهو جاهل به . ومن هنا كان احتجاج نصارى نجران في التثليث ، ودعوى الملحدين، على القرآن والسنة، التناقضَ والمخالفةَ للعقول . وضمّوا إلى ذلك جهلهم بحكم التشريع ، فخاضوا حين لم يؤذن لهم في الخوض ، وفيما لم يجز لهم الخوض فيه ، فتاهوا . فإن القرآن والسنة ، لمّا كانا عربيين ، لم يكن لينظر فيهما إلا عربيّ . كما أنَّ مَنْ لم يعرف مقاصدهما ، لم يحلّ له أن يتكلم فيهما . إذ لا يصح له نظر حتى يكون عالماً بهما . فإنه إذا كان كذلك لم يختلف عليه شيء من الشريعة . ولذلك مثال يتبين به المقصود وهو : إن نافع بن الأزرق سأل ابن عباس ، فقال له : إني أجد في القرآن أشياءَ تختلف عليّ ، فقال : « فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ »[١] ، « وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ »[٢] ، « وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثاً »[٣] ، « رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ . . . »[٤] فقد كتموا في هذه الآية . وقال : « بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا . . . » إلى قوله : « وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا »[٥] فذكر خلق

---

(١) [٢٣ / المؤمنون / ١٠١] ونصها : فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ .

(٢) [٣٧ / الصافات / ٢٧] ونصها : وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ .

(٣) [٤ / النساء / ٤٢] ونصها : يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثاً .

(٤) [٦ / الأنعام / ٢٣] ونصها : ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ .

(٥) [٧٩ / النازعات / ٢٧ ـ ٣٠] ونصها : ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ ، بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا .

السماء قبل خلق الأرض . ثم قال : « أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ .. »[١] إلى أن قال: « ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ »الآية فذكر فى هذه خلق الأرض قبل خلق السماء وقال: «وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا»[٢]، عَزِيزًا حَكِيمًا[٣]، سَمِيعًا بَصِيرًا . . . »[٤] فكأنه كان ثم مضى ؟

فقال ابن عباس : لا أنساب بينهم فى النفخة الأولى « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ »[٥] . فلا أنساب عند ذلك ولا يتساءلون. ثم فى النفخة الآخرة : وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون .

وأما قوله : مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ . وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا . فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم. فقال المشركون : تعالوا نقول ما كنا مشركين. فختم على أفواههم فتنطق أيديهم . فعند ذلك عرف أن الله لا يُكتم حديثا . وعنده يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض .

---

(١) [٤١ / فصلت / ٩ ـ ١١] ونصها : قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ، ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ، قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ .

(٢) [٤ / النساء / ٩٦] ونصها : دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا .

(٣) [٤ / النساء / ١٥٨] ونصها : بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا.

(٤) [٤ / النساء / ١٣٤] ونصها : مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا .

(٥) [٣٩ / الزمر / ٦٨] ونصها : وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ .

وخلق الأرض فى يومين ثم خلق السماء ثم استوى إلى السماء فسواهن فى يومين آخرين، ثم دحا الأرض ، أى أخرج الماء والمرعى ، وخلق الجبال والآكام وما بينهما فى يومين . فخُلِقت الأرض وما فيها من شىء فى أربعة أيام . وخُلِقت السموات فى يومين .

وكان الله غفورا رحيما . سمى نفسه ذلك وذلك قوله : أى لم أزل كذلك فإن الله لم يرد شيئا إلا أصاب به الذى أراد . فلا يختلف عليك القرآن ، فإن كلًّا من عند الله .

هذا تمام ماقال فى الجواب . وهو يبين أن جميع ذلك معقول إذا نزّل منزلته، وأُتِىَ من بابه.

وهكذا سائر ماذكر الطاعنون ، وما أشكل على الطالبين ، وما وقف فيه الراسخون، « وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً[1] » .

وقد ألّف الناس فى رفع التناقض والاختلاف عن القرآن والسنة، كثيراً ، فمن تشوف إلى البسط ومدّ الباع وشفاء الغليل طلبه فى مظانه .

---

(١) [٤ / النساء / ٨٢] ونصها : أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ ، وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيرًا .

فصل

فى أن رتبة السنة التأخر عن الـكتاب ، وأنها تفصيل مجمله وقاضية عليه

قال الشاطبىّ : رتبة السنة التأخر عن الـكتاب فى الاعتبار ، والدليل على ذلك أمور :

أحدها : أن الـكتاب مقطوع به والسنة مظنونة . والقطع فيها إنما يصح فى الجملة لا فى التفصيل . بخلاف الـكتاب فإنه مقطوع به فى الجملة والتفصيل . والمقطوع به مقدم على المظنون . فلزم من ذلك تقديم الـكتاب على السنة .

والثانى : أن السنة إما بيان للـكتاب أو زيادة على ذلك . فإن كان بياناً فهو ثان على الوجه المبين فى الاعتبار . إذ يلزم من سقوط المبيّن سقوط البيان ، ولا يلزم من سقوط البيان سقوط المبين . وما شأنه هذا فهو أولى فى التقدم . وإن لم يكن بياناً فلا يعتبر إلا بعد أن لا يوجد فى الـكتاب . وذلك دليل على تقدم اعتبار الـكتاب .

والثالث : ما دل على ذلك من الأخبار والآثار . كحديث معاذ[1] : بم تحـكم ؟ قال: بكتاب الله. قال : فإن لم تجد ؟ قال : بسنة رسول الله . قال : فإن لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيى

---

(١) أخرجه أبوداود فى : ٢٣ ـ كتاب الأقضية ، ١١ ـ باب اجتهاد الرأى فى القضاء ، ح ٣٥٩٢ .

عن أناس من أهل حمص ، من أصحاب معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يبعث معاذًا إلى اليمن قال « كيف تقضى إذا عرض لك قضاء » ؟ قال : أقضى بكتاب الله . قال : « فإن لم تجد فى كتاب الله » ؟ قال : فبسنة رسـول الله ﷺ . قال : « فإن لم تجد فى سنة رسول الله ﷺ ، ولا فى كتاب الله » ؟ قال : أجتهد رأيى ولا آلو . فضرب رسول الله ﷺ صدره ، وقال : « الحمد لله الذى وفّق رسولَ رسول الله لما يرضى رسول الله » .

الحديث . وعن عمر بن الخطاب[(١)] أنه كتب إلى شريح : إذا أتاك أمر فاقض بما فى كتاب الله . فإن أتاك ماليس فى كتاب الله فاقض بما سنَّ فيه رسول الله ﷺ الخ . وفى رواية عنه: إذا وجدت شيئا فى كتاب الله فاقض فيه ولا تلتفت إلى غيره . وقد بيّن معنى هذا فى رواية أخرى أنه قال له : انظر ما تبين لك فى كتاب الله فلا تسأل عنه أحداً . وما لم يتبين لك فى كتاب الله فاتبع فيه سنة رسول الله ﷺ . ومثل هذا عن ابن مسعود[(٢)] : من عرض له منكم قضاء فليقض بما فى كتاب الله ، فإن جاءه ما ليس فى كتاب الله فليقض بما قضى به

---

(١) سنن الدارمىّ ، المقدمة ، ٢٠ ـ باب الفتيا وما فيه من الشدة .

عن شريح أن عمر بن الخطاب كتب إليه : إن جاءك شىء فى كتاب الله فاقض به ، ولا يلفتك عنه الرجال . فإن جاءك ماليس فى كتاب الله فانظر سنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاقض بها . فإن جاءك ما ليس فى كتاب الله ، ولم يكن فيه سنة من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فانظر مااجتمع عليه الناسُ فخذ به . فإن جاءك ما ليس فى كتاب الله ، ولم يكن فى سنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يتكلم فيه أحد قبلك ، فاختر أىّ الأمرين شئت: إن شئت أن تجتهد برأيك ثم تقدم فتقدّم. وإن شئت أن تتأخر فتأخر. ولا أرى التأخر إلا خيراً لك .

(٢) سنن الدارمىّ ، فى الباب نفسه : عن عبد الله بن مسعود قال: أتى علينا زمان لسنا نقضى ولسنا هنالك . وإن الله قد قدّر من الأمر أن قد بلغنا ما ترون . فمن عرض له قضاء بعد اليوم فليقض فيه بما فى كتاب الله عز وجل . فإن جاءه ما ليس فى كتاب الله فليقض بما قضى به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم . فإن جاءه ما ليس فى كتاب الله ، ولم يقض به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فليقض بما قضى به الصالحون . ولا يقل إنى أخاف وإنى أرى . فإن الحرام بيّن والحلال بيّن ، وبين ذلك أمور مشتبهة . فدع ما يريبك إلى مالا يريبك .

نبيه ﷺ... الحديث. وعن ابن عباس[(١)] أنه كان إذا سئل عن شيء ، فإن كان فى كتاب الله قال به وإن لم يكن فى كتاب الله ، وكان عن رسول الله ﷺ قال به . وهو كثير فى كلام السلف والعلماء .

مطلب فى ملحظ تفرقة الحنفية بين الفرض والواجب

وما فرق به الحنفية بين الفرض والواجب راجع إلى تقدم اعتبار الكتاب على اعتبار السنة، وأن اعتبار الكتاب أقوى من اعتبار السنة. وقد لا يخالف غيرهم فى معنى تلك التفرقة. والمقطوع به فى المسألة أن السنّة ليست كالكتاب فى مراتب الاعتبار .

فإن قيل : هذا مخالف لما عليه المحققون . أما أولًا : فإن السنة عند العلماء قاضية على الكتاب وليس الكتاب بقاض على السنة ، لأن الكتاب يكون محتملا لأمرين فأ كثر ، فتأتى السنة بتعيين أحدهما فيرجع إلى السنة ويترك مقتضى الكتاب . وأيضاً فقد يكون ظاهر الكتاب أمراً فتأتى السنة فتخرجه عن ظاهره . وهذا دليل على تقديم السنة. وحسبك أنها تُقَيِّد مُطلقَه وتخصّ عمومه وتحمله على غير ظاهره حسبما هو مذكور فى الأصول . فالقرآن آتٍ بقطع كل سارق . فخصّت السنة من ذلك سارق النصاب المحرز . وأتى بأخذ الزكاة من جميع الأموال ظاهراً. فخصّته بأموال مخصوصة . وقال تعالى: «وَأُحِلَّ لَكُمْ مَاوَرَاءَ ذَلِكُمْ»[(٢)]

---

(١) سنن الدارمىّ ، فى الباب نفسه : عن عبد الله بن أبى يزيد قال : كان ابن عباس إذا سئل عن الأمر ، فكان فى القرآن أخبر به . وإن لم يكن فى القرآن وكان عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أخبر به . فإن لم يكن فمن أبى بكر وعمر . فإن لم يكن قال فيه برأيه .

(٢) [٤/ النساء/ ٢٤] ونصها : وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ ، وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ، فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا .

فأخرجتْ من ذلك نكاح المرأة على عمتها أو خالتها . فكل هذا تركٌ لظواهر الكتاب وتقديمٌ للسنة عليه. ومثل ذلك لايحصى كثرة . وأما ثانياً : فإن الكتاب والسنة إذا تعارضا، فاختلف أهل الأصول : هل يقدم الكتاب على السنة ، أم بالعكس ، أم هما متعارضان ؟ وقد تكلم الناس فى حديث معاذ ورأوا أنه على خلاف الدليل . فإن كان ما فى الكتاب لا يقدم على كل السنة فإن الأخبار المتواترة لا تضعف فى الدلالة عن أدلة الكتاب . وأخبار الآحاد فى محل الاجتهاد مع ظواهر الكتاب ، ولذلك وقع الخلاف وتأولوا التقديم فى الحديث على معنى البداية بالأسهل الأقرب، وهو الكتاب . فإذا كان الأمر على هذا فلا وجه لإطلاق القول بتقديم الكتاب ، بل المتبع الدليل .

فالجواب أن قضاء السنة على الكتاب ليس بمعنى تقديمها عليه واطراح الكتاب . بل إن ذلك المعبر فى السنة هو المراد فى الكتاب ، فكأنَّ السنة بمنزلة التفسير والشرح لمعانى أحكام الكتاب ؛ ودل على ذلك قوله : « لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »(١) فإذا حصل بيان قوله تعالى : « وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا »(٢) بأن القطع من الكوع ، وأن المسروق نصاب فأكثر من حرز مثله ، فذلك هو المعنى المراد من الآية . لا أن نقول : إن السنة أثبتت هذه الأحكام دون الكتاب . كما إذا بين لنا مالك أو غيره من المفسرين معنى آية أو حديث ، فعملنا بمقتضاه ، فلا يصح لنا أن نقول: إنا عملنا بقول المفسر الفلانىّ، دون أن نقول: عملنا بقول الله أو قول رسوله عليه السلام ، وهكذا سائر ما بينته السنة من كتاب الله تعالى .

فمعنى كون السنة قاضية على الكتاب أنها مبيِّنة له . فلا يوقف مع إجماله واحتماله .

(١) [١٦ / النحل / ٤٤] ونصها : بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ، وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ .

(٢) [٥ / المائدة / ٣٨] ونصها : وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللهِ ، وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

وقد بينت المقصود منه لا أنها مقدمة عليه . وأما خلاف الأصوليين فى التعارض ، فقد مرّ أن خبر الواحد إذا استند إلى قاعدة مقطوع بها فهو فى العمل مقبول . وإلا فالتوقف. وكونه مستنداً إلى مقطوع به راجع إلى أنه جزئى تحت معنى قرآنى كلى . فإذا عرضنا هذا الموضع على تلك القاعدة وجدنا المعارضة فى الآية والخبر معارضة أصلين قرآنيين . فيرجع إلى ذلك . وخرج عن معارضة كتاب مع سنة . وعند ذلك لايصح وقوع هذا التعارض إلا من تعارض قطعيين . وأما إن لم يستند الخبر إلى قاعدة قطعية فلابد من تقديم القرآن على الخبر بإطلاق. وأيضاً فإن ما ذكر من تواتر الأخبار إنما غالبه فرض أمر جائز . ولعلك لا تجد فى الأخبار النبوية ما يقضى بتواتره إلى زمان الواقعة . فالبحث المذكور فى المسألة بحث فى غير واقع . أو فى نادر الوقوع . ولا كبير جدوى فيه . والله أعلم .

ثم قال الشاطبى : السنة راجعة فى معناها إلى الكتاب. فهى تفصيل مجمله وبيان مشكله وبسط مختصره . وذلك لأنها بيان له . وهو الذى دل عليه قوله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » فلا تجد فى السنة أمراً إلا والقرآن قد دل على معناه دلالة إجمالية أو تفصيلية . وأيضاً فكل ما دل على أن القرآن هو كلية الشريعة وينبوع لها، فهو دليل على ذلك . ولأن الله قال : « وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ »(١) وفسرت عائشةُ ذلك بأن خلقه القرآن . واقتصرت فى خلقه على ذلك . فدل على أن قوله وفعله وإقراره راجع إلى القرآن ؛ لأن الخلق محصور فى هذه الأشياء . ولأن الله جعل القرآن تبياناً لكل شيء . فيلزم من ذلك أن تكون السنة حاصلة فيه فى الجملة . لأن الأمر والنهى أول ما فى الكتاب. ومثله قوله : « مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ »(٢) ، وقوله : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ »(٣) وهو يريد بإنزال القرآن .

(١) [٦٨ / القلم / ٤] .

(٢) [٦ / الأنعام / ٣٨] ونصها : وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ، مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ .

(٣) [٥ / المائدة / ٣] ونصها : . . . الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ =

فالسنة إذاً ، فى حصول الأمر ، بيان لما فيه . وذلك معنى كونها راجعة إليه . وأيضاً فالاستقراء التام دل على ذلك. حسبما يذكر بعدُ ، بحول الله . وقد تقدم فى أول كتاب الأدلة أن السنة راجعة إلى الكتاب وإلا وجب التوقف عن قبولها . وهو أصل كافٍ فى هذا المقام.

فإن قيل هذا غير صحيح من أوجه : أحدها أن الله تعالى قال : « فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ »[1] الآية . والآية نزلت فى قضاء رسول الله ﷺ للزبير بالسقى قبل الأنصارىّ من شراج الحرّة . الحديث[2] مذكور فى الموطأ ، وذلك ليس فى كتاب الله تعالى . ثم جاء فى عدم الرضى به من الوعيد ما جاء . وقال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ »[3] والرد إلى الله هو الرد إلى الكتاب، والرد إلى الرسول هو الرد إلى سنته، بعد موته . وقال : « وَأَطِيعُوا اللَّهَ

= وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا . . .

(١) [٤ / النساء / ٦٥] ونصها : فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا .

(٢) أخرجه البخارىّ فى: ٤٢ ــ كتاب الشرب والمساقاة ، ٦ ــ باب سَكْر الأنهار . عن عروة عن عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما أنه حدثه أن رجلا من الأنصار خاصم الزبير عند النبىّ ﷺ فى شراج الحرّة التى يسقون بها النخل . فقال الأنصارىّ : سرّح الماء يمرّ . فأبى عليه . فاختصما عند النبىّ ﷺ . فقال رسول الله ﷺ للزبير : أَسْقِ يا زبير ، ثم أرسل الماء إلى جارك . فغضب الأنصارىّ فقال : أنْ كان ابن عمتك ؟ فتلوّن وجه رسول الله ﷺ ثم قال: اسق يازبير ، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجَدْر. فقال الزبير : والله ! إنى لأحسب هذه الآية نزلت فى ذلك : فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ .

(٣) [٤ / النساء / ٥٩] ونصها: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا .

وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا »[(١)] وسائر ماقرن فيه طاعة الرسول بطاعة الله، فهو دال على أن طاعة الله ما أمر به ونهى عنه فى كتابه . وطاعة الرسول ما أمر به ونهى عنه مما جاء به مما ليس فى القرآن . إذ لو كان فى القرآن لكان من طاعة الله . وقال : « فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ »[(٢)] الآية ، فقد اختص الرسول عليه السلام بشىء يطاع فيه ، وذلك السنة التى لم تأت فى القرآن . وقال : « وَمَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ »[(٣)] ، وقال : « وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا »[(٤)] . وأدلة القرآن تدل على أن كل ما جاء به الرسول وكل ما أمر به ونهى فهو لاحق فى الحكم بما جاء فى القرآن ، فلابد أن يكون زائداً عليه .

والثانى : الأحاديث الدالة على ذمّ ترك السنة واتباع الكتاب ، إذ لو كان ما فى السنة موجوداً فى الكتاب، لما كانت السنة متروكة على حال . كما روى أنه عليه السلام قال[(٥)] : «يوشك بأحدكم أن يقول: هذا كتاب الله. ما كان فيه من حلال أحللناه ، وما كان فيه من

(١) [٥ / المائدة / ٩٢] ونصها : وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ، فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ .

(٢) [٢٤ / النور / ٦٣] ونصها : لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ، قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا، فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

(٣) [٤ / النساء / ٨٠] ونصها : مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ، وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً .

(٤) [٥٩ / الحشر / ٧] ونصها : مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ، وَمَاءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

(٥) لم أعثر على هذا الحديث بهذا النص. ويوشك أن يكون رواية أخرى للحديث التالى.

حرام حرمناه. ألا من بلغه عنى حديث فكذب به فقد كذب الله، ورسوله ، والذى حدثه »
وعنه أنه قال[١] « يوشك رجل منكم متكئاً على أريكته يحدث بحديث عنى فيقول : بيننا
وبينكم كتاب الله . فما وجدنا فيه من حلال استحللناه . وما وجدنا فيه من حرام حرمناه.
ألا وإنَّ ما حرم رسول الله ﷺ مثل الذى حرم الله » وفى رواية[٢] « لا ألفين أحدكم
متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمرى بما أمرت به أو نهيت عنه فيقول: لا أدرى. ماوجدنا
فى كتاب الله اتبعناه» .

وهذا دليل على أن فى السنة ما ليس فى الكتاب .

والثالث ـ إن الاستقراء دل على أن فى السنة أشياء لا تُحْصى كثرةً لم ينص عليها فى
القرآن . كتحريم نكاح المرأة على عمتها أو خالتها[٣]، وتحريم الحمر الأهلية[٤] ، وكل ذى ناب

(١) سنن ابن ماجه ، المقدمة ، ٢ ـ باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ ، والتغليظ على من عارضه ، ح ١٢ ـ عن المقدام بن معديكرب الكندىّ؛ أن رسول الله ﷺ قال: « يوشك الرجل متكئاً على أريكته ، يُحدَّث بحديث من حديثى فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله عز وجل ، فما وجدنا فيه من حلال استحللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرّمناه . ألا وإن ما حرّم رسول الله ﷺ مثل ما حرّم الله » .

(٢) سنن ابن ماجه ، المقدمة ، ٢ ـ باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ ، والتغليظ على من عارضه ، ح ١٣ ـ عن عبيد الله بن أبى رافع عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال: « لاألفينّ أحدكم متكئاً على أريكته ، يأتيه الأمر مما أمرت به أو نهيت عنه ، فيقول : لا أدرى . فما وجدنا فى كتاب الله اتبعناه » .

(٣) صحيح البخارىّ فى : ٦٧ ـ كتاب النكاح ، ٢٧ ـ باب لا تنكح المرأة على عمتها . عن أبى هريرة رضى الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « لايجمع بين المرأة وعمتها ولا بين المرأة وخالتها » .

(٤) صحيح البخارىّ فى : ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ٢٨ ـ باب لحوم الحمر الإنسية. عن ابن عمر رضى الله عنهما : نهى النبىّ ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر .

من السباع[١] ، والعقل وفكاك الأسير[٢] وأن لا يقتل مسلم بكافر . وهو الذى نبه عليه حديث علىّ بن أبى طالب حيث قال فيه : ما عندنا إلا كتاب الله، أو فهم أعطيه رجل مسلم، وما فى هذه الصحيفة . وفى حديث آخر[٣] عن علىّ؛ أنه خطب وعليه سيف فيه صحيفة معلقة فقال : والله ما عندنا كتاب نقرؤه إلا كتاب الله وما فى هذه الصحيفة . فنشرها فإذا فيها: أسنان الإبل . وإذا فيها : المدينة حرم من عير إلى كذا . فمن أحدث فيها حدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل اللهمنه صرفا ولا عدلا . وإذا فيها : ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم ، فمن أخفر مسلما فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا . وإذا فيها : من والى قوماً بغير إذن مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا .

وجاء فى حديث معاذ[٤] : بم تحكم ؟ قال : بكتاب الله . قال : فإن لم تجد ؟ قال فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وما فى معناه مما تقدم ذكره . وهو واضح فى أن فى السنة ما ليس فى القرآن. وهو نحو قول من قال من العلماء : تَرَكَ الكتابُ موضعاً للسنة . وتَرَكَتِ السنة موضعاً للقرآن .

---

(١) صحيح البخارىّ فى: ٧٢ ــ كتاب الذبائح والصيد ، ٢٩ ــ باب أكل كلّ ذى ناب من السباع .

عن أبى ثعلبة رضى الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ نهى عن أكل كل ذى ناب من السباع .

(٢) صحيح البخارىّ فى : ٣ ــ كتاب العلم ، ٣٩ ــ باب كتابة العلم .

عن أبى جُحَيفة ؛ قال : قلت لعلىّ : هل عندكم كتاب ؟ قال : لا . إلا كتابُ الله ، أو فهمٌ أعطيه رجل مسلم ، أو ما فى هذه الصحيفة . قال قلت : فما فى هذه الصحيفة ؟ قال: العقل ، وفكاك الأسير ، ولا يقتل مسلم بكافر .

(٣) انظر الحاشية رقم ٢ ص ٥١ .

(٤) انظر الحاشية رقم ١ ص ١٧٤ .

والرابع – إن الاقتصار على الكتاب رأيُ قوم لا خلاق لهم ، خارجين عن السنة . إذ عوّلوا على ما بنيت عليه من أن الكتاب فيه بيان كل شيء . فاطّرحوا أحكام السنة . فأدّاهم ذلك إلى الانخلاع عن الجماعة ، وتأويل القرآن على غير ما أنزل الله . فقد روى[1] عن النبيّ صلى الله عليه وسلم « إن أخوف ما أخاف على أمتي اثنتان: القرآن واللبن . فأما القرآن فيتعلمه المنافقون ليجادلوا به المؤمنين . وأما اللبن فيتبعون الريف. يتبعون الشهوات ويتركون الصلوات » وفي بعض الأخبار[2] عن عمر بن الخطاب : سيأتي ناس يجادلونكم بشبهات القرآن فخذوهم بالسنن فإن أصحاب السنة أعلم بكتاب الله . وقال أبو الدرداء : إن مما أخشى عليكم زلة العالم وجدال المنافق بالقرآن . وعن عمر[3]: ثلاث يَهْدِمْنَ الدين : زلة العالم، وجدال منافق بالقرآن، وأئمة مضلون . وعن ابن مسعود[4]: ستجدون أقواماً يدعونكم إلى كتاب الله

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ، الجزء الرابع ، صفحة ١٤٦ (طبعة الحلبي) .

عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ « إنما أخاف على أمتي الكتاب واللبن » قيل : يا رسول الله ! ما بال الكتاب ؟ قال : « يتعلمه المنافقون ثم يجادلون به الذين آمنوا » فقيل: وما بال اللبن ؟ قال: « أناس يحبون اللبن فيخرجون من الجماعات ويتركون الجمعات » .

(٢) سنن الدارميّ ، المقدمة ، ١٧ – باب التورع عن الجواب فيما ليس فيه كتاب ولا سنة .

(٣) سنن الدارميّ ، المقدمة ، ٢٣ – باب في كراهية أخذ الرأي .

عن زياد بن حدير قال : قال لي عمر : هل تعرف ما يهدم الإسلام ؟ قال قلت : لا . قال : يهدمه زلة العالم ، وجدال المنافق بالكتاب ، وحكم الأئمة المضلين .

(٤) سنن الدارميّ ، المقدمة ، ١٨ – باب كراهية الفتيا .

عن أبي قلابة قال : قال ابن مسعود : عليكم بالعلم قبل أن يقبض . وقبضه أن يذهب بأصحابه . عليكم بالعلم ، فإن أحدكم لا يدري متى يَفتقر إليه ، أو يُفتقر إلى ما عنده . إنكم ستجدون أقواماً يزعمون أنهم يدعونكم إلى كتاب الله ، وقد نبذوه وراء ظهورهم . فعليكم بالعلم . وإياكم والتبدّع . وإياكم والتنطع . وإياكم والتعمق . وعليكم بالعتيق .

وقد نبذوه وراء ظهورهم . فعليكم بالعلم . وإياكم والتبدع . وإياكم والتنطع . وعليكم بالعتيق . وعن عمر : إنما أخاف عليكم رجلين : رجل يتأول القرآن على غير تأويله ، ورجل ينافس الملك على أخيه . وهنا آثار فى هذا المعنى حملها العلماء على تأويل القرآن بالرأى مع طرح السنن . وعليه حمل كثير من العلماء قول النبى ﷺ [1] «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء. حتى إذا لم يُبْقِ عالما، اتخذ الناس رؤساء جهالا فسُئِلوا فأَفْتَوْا بغير علم، فضلوا وأضلوا» وما فى معناه.

فإن كثيرا من أهل البدع هكذا فعلوا . اطرحوا الأحاديث وتأولوا كتاب الله على غير تأويله فضلوا وأضلوا . وربما ذكروا حديثا يعطى أن الحديث لا يلتفت إليه إلا إذا وافق كتاب الله تعالى. وذلك ماروى أنه عليه السلام قال : ما أتاكم عنى فاعرضوه على كتاب الله. فإن وافق كتاب الله فأنا قلته وإن خالف كتاب الله فلم أقله أنا . وكيف أخالف كتاب الله وبه هدانى الله ؟ .

قال عبد الرحمن بن مهدى : الزنادقة والخوارج وضعوا ذلك الحديث . قالوا : وهذه الألفاظ لاتصح عنه ﷺ عند أهل العلم بصحيح النقل من سقيمه . وقد عارض هذا الحديث قوم فقالوا : نحن نعرضه على كتاب الله قبل كل شىء ونعتمد على ذلك . قالوا : فلما عرضناه على كتاب الله وجدناه مخالفاً لكتاب الله . لأنا لم نجد فى كتاب الله أن لا نقبل من حديث رسول الله ﷺ إلا ماوافق كتاب الله ، بل وجدنا كتاب الله يطلق التأسّى به والأمر بطاعته ويحذر من المخالفة عن أمره، جملة على كل حال . هذا مما يلزم القائل أن السنة راجعة إلى الكتاب .

---

(١) صحيح البخارى فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ٣٤ ـ باب كيف يقبض العلم .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله لايقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد . ولكن يقبض العلم بقبض العلماء . حتى إذا لم يُبْق عالما اتخذ الناس رؤوسا جهالا ، فسُئلوا فأفتوا بغير علم ، فضلوا ، وأضلوا » .

ولقد ضلت بهذه الطريقة طوائف من المتأخرين كما كان ذلك فيمن تقدم . فالقول بها ، والميل إليها ميل عن الصراط المستقيم . أعاذنا الله من ذلك بمنه .

فالجواب إن هذه الوجوه المذكورة لا حجة فيها على خلاف ما تقدم .

أما الوجه الأول فلأنا إذا بنينا على أن السنة بيان للكتاب فلابد أن تكون بياناً لما فى الكتاب احتمال له ولغيره . فتبين السنة أحد الاحتمالين دون الآخر . فإذا عمل المكلف على وفق البيان أطاع الله فيما أراد بكلامه وأطاع رسوله فى مقتضى بيانه . ولو عمل على مخالفة البيان عصى الله تعالى فى عمله على مخالفة البيان . إذ صار عمله على خلاف ماأراد بكلامه. وعصى رسوله فى مقتضى بيانه . فلم يلزم من إفراد الطاعتين تباين المطاع فيه بإطلاق؛ وإذا لم يلزم ذلك لم يكن فى الآيات دليل على أن مافى السنة ليس فى الكتاب. بل قد يجتمعان فى المعنى . ويقع العصيانان والطاعتان من جهتين . ولامحال فيه. ويبقى النظر فى وجود ماحكم به رسول الله ﷺ فى القرآن. يأتى على أثر هذا بحول الله تعالى .

وقوله فى السؤال : فلابد أن يكون زائداً عليه ، مسلّم . ولكن هذا الزائد هل هو زيادة الشرح على المشروح إذا كان للشرح بيان ليس فى المشروح، وإلا لم يكن شرحاً. أم هو زيادة معنى آخر لا يوجد فى الكتاب ؟ هذا محل النزاع . وعلى هذا المعنى يتنزل الوجه الثانى .

وأيضاً فإذا كان الحكم فى القرآن إجمالياً ، وهو فى السنة تفصيلىٌ فكأنه ليس إياه . فقوله : « أَقِيمُوا الصَّلَاةَ » أجمل فيه معنى الصلاة وبيّنه عليه السلام . فظهر من البيان ما لم يظهر من المبيَّن ، وإن كان معنى البيان هو معنى المبين ولكنهما فى الحكم يختلفان . ألا ترى أن الوجه فى المجمل قبل البيان، التوقف ، وفى البيان العمل بمقتضاه ؟ فلما اختلفا حُكْماً صار كاختلافهما معنى . فاعتبرت السنة اعتبار المفرد عن الكتاب .

وأما الثالث فسيأتى الجواب عنه فى المسألة بعد هذا إن شاء الله .

وأما الرابع فإنما وقع الخروج عن السنة فى أولئك لمكان إعمالهم الرأى واطراحهم السنن ، لا من جهة أخرى. وذلك أن السنة ، كما تبين ، توضح المجمل وتقيّد المطلق وتخصص العموم.

فتخرج كثيراً من الصيغ القرآنية عن ظاهر مفهومها فى أصل اللغة . وتعلم بذلك أن بيان السنة هو مراد الله تعالى من تلك الصيغ . فإذا طرحت واتبع ظاهر الصيغ بمجرد الهوى صار صاحب هذا النظر ضالا فى نظره ، جاهلا بالكتاب ، خابطاً فى عمياء ، لا يهتدى إلى الصواب فيها . إذ ليس للعقول من إدارك المنافع والمضار فى التصرفات الدنيوية إلا النزر اليسير . وهى فى الأخروية أبعد على الجملة والتفصيل .

وأمّا ما احتجوا به من الحديث، فإن لم يصح فى النقل فلا حجة به لأحد من الفريقين . وإن صح أو جاء من طريق يقبل مثله فلا بد من النظر فيه . فإن الحديث إما وحى من الله صِرف ، وإمّا اجتهاد من الرسول عليه السلام معتبر بوحى صحيح من كتاب أو سنة . وعلى كلا التقديرين لا يمكن فيه التناقض مع كتاب الله . لأنه عليه السلام ما ينطق عن الهوى إنهو إلاوحى يوحى . وإذا فرع على القول بجواز الخطأ فى حقه فلا يقرّ عليه البتة . فلابد من الرجوع إلى الصواب . والتفريع على القول بنفى الخطأ أوْلى أن لا يحكم باجتهاده حكما يعارض كتاب الله تعالى ويخالفه . نعم . يجوز أن تأتى السنة بما ليس فيه مخالفة ولا موافقة . بل بما يكون مسكوتا عنه فىالقرآن إلا إذا قام البرهان علىخلاف هذا الجائز . وهو الذى ترجم له فى هذه المسألة . فحينئذ لابد فى كل حديث من الموافقة لكتاب الله . كما صرح به الحديث المذكور . فمعناه صحيح . صَحَّ سنده أوْ لَا . وقد خرّج فىمعنى هذاالحديث الطحاوىُّ فى كتابه فىبيان مشكل الحديث عن عبدالملك بن سعيدبن سويد الأنصارىّ، عن أبى حميد وأبى أُسَيْد ؛ أن رسولالله ﷺ قال : « إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم وتلين له أشعاركم وأبشاركم وتَرَوْن أنه منكم قريب ، فأنا أولاكم به . وإذا سمعتم بحديث عنى تنكره قلوبكم وتندّ منه أشعاركم وأبشاركم، وتَرَوْنَ أنه منكر فأنا أبعدكم منه . وروىأيضاً عن عبد الملك المذكور عن عباس بن سهل أن أُبىّ بن كعب كان فى مجلس. فجعلوا يتحدثون عن رسولالله ﷺ بالمرخّص والمشدّد . وأُبىّ بن كعب ساكت، فلما فرغوا قال: أىْهؤلاء! ما حديث بلغكم عن رسول الله ﷺ يعرفه القلب ويلين له الجلد وترجون عنده، فصدّقوا بقول رسول الله ﷺ . فإن رسول الله ﷺ لايقول إلا الخير . وبَيَّنَ وجهَ ذلك الطحاوىُّ

بأن الله تعالى قال فى كتابه : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ »(١) الآية . وقال : « مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ »(٢) الآية . وقال : « وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ »(٣) الآية . فأخبر عن أهل الإيمان بما هم عليه عند سماع كلامه . وكان ما يحدّثون به عن النبيّ ﷺ من جنس ذلك . لأنه كله من عند الله . ففى كونهم عند الحديث على ما يكونون عليه عند سماع القرآن دليل على صدق ذلك الحديث . وإن كانوا بخلاف ذلك وجب التوقف لمخالفته ماسواه . وما قاله يلزم منه أن يكون الحديث موافقاً لا مخالفاً فى المعنى . إذ لو خالف لما اقشعرت الجلود ولا لانت القلوب. لأن الضد لايلائم الضد ولايوافقه .

وخرّج الطحاوىّ أيضا عن أبى هريرة عنه عليه السلام : إذا حدثتم عنى حديثا تعرفونه ولا تنكرونه فصدقوا به . قلته أو لم أقله . فإنى أقول ما يعرف ولا ينكر . وإذا حدثتم عنى حديثا تنكرونه ولا تعرفونه فكذبوا به . فإنى لا أقول ما ينكر ولا يعرف . ووجه ذلك أن المروىّ إذا وافق كتاب الله وسنة نبيه ، لوجود معناه فى ذلك ، وجب قبوله . لأنه إن لم يثبت أنه قاله بذلك اللفظ فقد قال معناه بغير ذلك من الألفاظ . إذ يصح تفسير كلامه عليه السلام للأعجمىّ بكلامه. وإذا كان الحديث مخالفا يكذّبه القرآن والسنة وجب أن يُدفع ويُعلم أنه لم يقله . وهذا مثل ما تقدم أيضا .

والحاصل من الجميع صحة اعتبار الحديث بموافقة القرآن وعدم مخالفته وهو المطلوب على

---

(١) [٨/ الأنفال/ ٢] ونصها : إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ .

(٢) [٣٩ / الزمر / ٢٣] ونصها : اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ ، ذَٰلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ .

(٣) [٥ / المائدة / ٨٣] ونصها : وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ، يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ .

فرض صحة هذه المنقولات . وأمّا إن لم تصحّ فلا علينا إذ المعنى المقصود صحيح . وإذا ثبت هذا بقى النظر فى الوجه الذى دل الكتاب به على السنة حتى صار متضمناً لكلّيتها فى الجملة وإن كانت بيانا له فى التفصيل ، وهى :

إن للناس فى هذا المعنى مآخذ : منها ما هو عام جدا وكأنه جار مجرى أخذ الدليل من الكتاب على صحة العمل بالسنة ولزوم الاتباع لها ، وهو فى معنى أخذ الإجماع منه فى نحو قوله تعالى : « وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ »[1] الآية . وممن[2] أخذ به عبد الله بن مسعود . فروى أن امرأة من بنى أسد أتته فقالت له : بلغنى أنك لعنت ذيت وذيت والواشمة والمستوشمة. وإننى قد قرأت ما بين اللوحين فلم أجد الذى تقول، فقال لها عبد الله : أما قرأتِ « وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ

---

(١) [٤ / النساء / ١١٥] ونصها : وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَاتَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ، وَسَاءَتْ مَصِيرًا .

(٢) صحيح البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥٩ ـ سورة الحشر ، ٤ ـ باب وما آتاكم الرسول فخذوه .

عن عبد الله (بن مسعود) قال : لعن الله الواشمات والموتشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن ، المغيّرات خلق الله . فبلغ ذلك امرأة من بنى أسد يقال لها : أم يعقوب . فجاءت فقالت : إنه بلغنى أنك لعنت كيت وكيت . فقال : ومالى لاألعن من لعن رسولُ الله ﷺ ، ومن هو فى كتاب الله ؟

فقالت : لقد قرأت ما بين اللوحين ، فما وجدت فيه ما تقول .

قال: لئن كنتِ قرأتيه لقد وجدتيه. أما قرأت : وما ءاتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ؟ قالت : بلى . قال : فإنه قد نهى عنه . قالت : فإنى أرى أهلك يفعلونه . قال : فاذهبى فانظرى . فذهبت فنظرت فلم تر من حاجتها شيئًا . فقال : لوكانت كذلكِ ما جامعتْنا .

وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ »(١) ؟ قالت : بلى . قال : فهو ذاك . وفى رواية : قال عبد الله : لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيّرات خلق الله. قال ، فبلغ ذلك امرأة من بنى أسد فقالت : ياأباعبد الرحمن! بلغنى عنك أنك لعنت كيت وكيت ، فقال : ومالى لا ألعن من لعنه رسولُ الله ﷺ وهو فى كتاب الله ؟ فقالت المرأة : لقد قرأت ما بين لوحى المصحف فما وجدته فقال : لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه . قال الله عز وجل : « وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا »(١) الحديث .

فظاهر قوله لهـا : هو فى كتاب الله ، ثم فسر ذلك بقوله : «وما ءاتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ» دون قوله : « وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ »(٢) أن تلك الآية تضمنت جميع ما جاء فى الحديث النبوىّ . ويشعر بذلك أيضا ما روى عن عبد الرحمن بن يزيد أنه رأى مُحْرِماً عليه ثيابه فنهاه فقال : ائتنى بآيةمن كتاب الله تنزع ثيابى. فقرأعليه: « وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ » الآية .

وروى أن طاوساً كان يصلى ركعتين بعدالعصر. فقال له ابنعباس: اتركهما. فقال : إنما نهى عنهما أن تُتَّخَذَا سنة . فقال ابن عباس : قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاةٍ بعد العصر . فلا أدرى أتُعَذَّب عليها أم تؤجر ، لأن الله قال : « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ »(٣) .

(١) [٥٩ / الحشر / ٧] ونصها : مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ، وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ، وَاتَّقُوا اللهَ ، إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

(٢) [٤ / النساء / ١١٩] ونصها : وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ ، وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا .

(٣) [٣٣ / الأحزاب / ٣٦] ونصها : وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى =

وروى عن الحكم بن أبان أنه سأل عكرمة عن أمهات الأولاد ؟ فقال : هن أحرار . قلت : بأى شىء ؟ قال : بالقرآن . قلت بأى شىء فى القرآن ؟ قال : قال الله تعالى : « يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنْكُمْ »(١) . وكان عمر من أولى الأمر ، قال : عتقت ولو بسقط . وهذا المأخذ يشبه الاستدلال على إعمال السنة أو هو هو . ولكنه أدخل مدخل المعانى التفصيلية التى يدل عليها الكتاب من السنة .

= اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا .

(١) [٤ / النساء / ٥٩] ونصها: يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا .

السنة تفصل ما أجمله الكتاب

ومنها الوجه المشهور عند العلماء . كالأحاديث الآتية فى بيان ما أجمل ذكره من الأحكام. إما بحسب كيفيات العمل أو أسبابه أو شروطه أو موانعه أو لواحقه أو ما أشبه ذلك . كبيانها للصلوات على اختلافها : فى مواقيتها وركوعها وسجودها وسائر أحكامها. وبيانها للزكاة: فى مقاديرها وأوقاتها ونُصُب الأموال المزكاة وتعيين ما يزكى مما لا يزكى . وبيان أحكام الصوم وما فيه مما لم يقع النص عليه فى الكتاب . وكذلك الطهارة الحدثية والخبثية . والحج والذبائح والصيد وما يؤكل مما لا يؤكل . والأنكحة وما يتعلق بها من الطلاق والرجعة والظهار واللعان والبيوع وأحكامها . والجنايات من القصاص وغيره . كل ذلك بيان لما وقع مجملاً فى القرآن. وهو الذى يظهر دخوله تحت الآية الكريمة « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ[1] » .

وقد رُوِىَ عن عمران بن حصين أنه قال لرجل : إنك امرؤ أحمق . أتجد فى كتاب الله الظهر أربعاً، لا يجهر فيها بالقراءة ؟ ثم عَدَّد إليه الصلاة والزكاة ونحو هذا . ثم قال : أتجد هذا فى كتاب الله مفسراً ؟ إن كتاب الله أبهم هذا . وإن السنة تفسر ذلك . وقيل لمطرف ابن عبد الله بن الشِّخِّير : لا تحدثونا إلا بالقرآن . فقال له مطرف : والله ما نريد بالقرآن بدلًا . ولكن نريد من هو أعلم بالقرآن منا .

وروى الأوزاعىّ عن حسان بن عطية قال : كان الوحى ينزل على رسول الله ﷺ ويحضره جبريل بالسنّة التى تفسر ذلك . قال الأوزاعىّ : الكتاب أحوج إلى السنة من السنة إلى الكتاب . قال ابن عبد البرّ : يريد أنها تقضى عليه وتبين المراد منه .

وسئل أحمد بن حنبل عن الحديث الذى روى أن السنة قاضية على الكتاب . فقال : ما أجسر على هذا أَنْ أَقُولَهُ . ولكنى أقول : إن السنة تفسر الكتاب وتبيّنه .

---

(١) [١٦ / النحل / ٤٤] ونصها : بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ، وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ .

فهذا الوجه فى التفصيل أقرب إلى المقصود وأشهر فى استعمال العلماء فى هذا المعنى .

ومنها النظر إلى مادل عليه الكتاب فى الجملة وأنه موجود فى السنة على الكمال ، زيادة إلى ما فيها من البيان والشرح . وذلك أن القرآن الكريم أتى بالتعريف بمصالح الدارين جَلْباً لها . والتعريف بمفاسدها دَفْعاً لها . وقد مَرّ أن المصالح لا تعدو الثلاثة الأقسام : وهى الضروريات ويلحق بها مكملاتها . والحاجيات ويضاف مكملاتها . والتحسينيات ويليها مكملاتها . ولا زائد على هذه الثلاثة . وإذا نظرنا إلى السنة وجدناها لا تزيد على تقدير هذه الأمور . فالكتاب أتى بها أصولا يرجع إليها . والسنة أتت بها تفريعا على الكتاب وبيانا لما فيه منها . فلا تجد فى السنة إلا ما هو راجع إلى تلك الأقسام . فالضروريات الخمس كما تأصلت فى الكتاب تفصلت فى السنة .

فإن حفظ الدين حاصله فى ثلاثة معان : وهى الإسلام والإيمان والإحسان . فأصلها فى الكتاب وبيانها فى السنة. ومكمّله ثلاثة أشياء : وهى الدعاء إليه بالترغيب والترهيب، وجهاد من عانده أو رام إفساده ، وتلافى النقصان الطارئ فى أصله . وأصل هذه فى الكتاب وبيانها فى السنة على الكمال .

وحفظ النفس حاصله فى ثلاثة معان : وهى إقامة أصله بشرعية التناسل . وحفظ بقائه بعد خروجه من العدم إلى الوجود من جهة المأكل والمشرب . وذلك ما يحفظه من داخل . والملبس والمسكن . وذلك ما يحفظه من خارج. وجميع هذا مذكور أصله فى القرآن ومبين فى السنة . ومكمله ثلاثة أشياء : وذلك حفظه عن وضعه فى حرام كالزنى ؛ وذلك بأن يكون على النكاح الصحيح. ويلحق به كل ماهو من متعلقاته كالطلاق والخلع واللعان وغيرها. وحفظ ما يتغذى به أن يكون مما لا يضر أو يقتل أو يفسد . وإقامة مالا تقوم هذه الأمور إلا به من الذبائح والصيد وشرعية الحدّ والقصاص ومراعاة العوارض اللاحقة وأشباه ذلك . وقد دخل حفظ النسل فى هذا القسم . وأصوله فى القرآن . والسنة بينتها . وحفظ المال راجع إلى مراعاة دخوله فى الأملاك . وكتنميته أن لا يفنى. ومكمله دفع العوارض وتلافى الأصل بالزجر والحد والضمان . وهو فى القرآن والسنة. وحفظ العقل يتناول مالا يفسده .

وهو فى القرآن . ومكمله شرعية الحدّ أو الزجر . وليس فى القرآن له أصل على الخصوص . فلم يكن له فى السنة حكم على الخصوص أيضاً . فبقى الحكم فيه إلى اجتهاد الأمة . وإنْ أُلْحِقَ بالضروريات حفظ العرض فله فى الكتاب أصل شرحَتْه السنةُ فى اللعان والقذف .

هذا وجه فى الاعتبار فى الضروريات .

وإذا نظرت إلى الحاجيات اطرد النظر أيضاً فيها على ذلك الترتيب أو نحوه . فإن الحاجيات دائرة على الضروريات. وكذلك التحسينيات . وقد كملت قواعد الشريعة فى القرآن وفى السنة . فلم يتخلف عنهما شىء. والاستقراء يبيّن ذلك ويسهل على من هو عالم بالكتاب والسنة . ولما كان السلف الصالح كذلك، قالوا به ونصّوا عليه. حسبما تقدم عن بعضهم فيه . ومَن تشوف إلى مزيد فإن دوران الحاجيات على التوسعة والتيسير ورفع الحرج والرفق . فبالنسبة إلى الدين يظهر فى مواضع شرعية الرخص فى الطهارة كالتيمم ورفع حكم النجاسة فيما إذا عسر إزالتها ، وفى الصلاة بالقصر ورفع القضاء فى الإغماء والجمع والصلاة قاعداً وعلى جَنب . وفى الصوم بالفطر فى السفر والمرض . وكذلك سائر العبادات . فالقرآن إن نص على بعض التفاصيل كالتيمم والقصر والفطر فذاك . وإلا فالنصوص على رفع الحرج فيه كافية . وللمجتهد إجراء القاعدة والترخص بحسبها. والسنة أول قائم بذلك . وبالنسبة إلى النفس أيضاً فظهر فى مواضع منها مواضع الرخص كالميتة للمضطر، وشرعية المواساة بالزكاة وغيرها ، وإباحة الصيد ، وإن لم يتأت فيه من إراقة الدم المحرم ما يتأتى بالذكاة الأصلية . وفى التناسل من العقد على البضع من غير تسمية صداق وإجازة بعض الجهالات فيه بناء على ترك المشاحّة ، كما فى البيوع . وجعل الطلاق ثلاثا دون ما هو أكثر . وإباحة الطلاق من أصله والخلع وأشباه ذلك . وبالنسبة إلى المال أيضاً فى الترخيص فى الغرر اليسير والجهالة التى لا انفكاك عنها فى الغالب ورخصة السلَم والعرايا والقرض والشفعة والقراض والمساقاة ونحوها . ومنه التوسعة فى ادخار الأموال وإمساك ما هو فوق الحاجة منها . والتمتع بالطيبات من الحلال على جهة القصد . من غير إسراف ولا إقتار . وبالنسبة إلى العقل فى رفع الحرج عن المكره

وعن المضطر ، على قول من قال به ، فى الخوف على النفس عند الجوع والعطش والمرض وما أشبه ذلك . كل ذلك داخل تحت قاعدة رفع الحرج لأن أكثره اجتهادىّ . وبينت السنة منه ما يحتذى حذوه فرجع إلى تفسير ما أجمل من الكتاب . وما فُسِّر من ذلك فى الكتاب فالسنة لا تعدوه ولا تخرج عنه . وقسم التحسينيات جار أيضاً كجريان الحاجيات . فإنها راجعة إلى العمل بمكارم الأخلاق . وما يحسن فى مجارى العادات كالطهارات بالنسبة إلى الصلوات ، على رأى من رأى أنها من هذا القسم ، وأخذ الزينة من اللباس ومحاسن الهيئات والطِّيب وما أشبه ذلك . وانتخاب الأطيب والأعلى فى الزكوات والإنفاقات وآداب الرفق فى الصيام . وبالنسبة إلى النفوس كالرفق والإحسان . وآداب الأكل والشرب ونحو ذلك . وبالنسبة إلى النسل كالإمساك بالمعروف أو التسريح بالإحسان من عدم التضييق على الزوجة وبسط الرفق فى المعاشرة وما أشبه ذلك . وبالنسبة إلى المال كأخذه من غير إشراف نفس ، والتورّع فى كسبه واستعماله والبذل منه على المحتاج وبالنسبة إلى العقل كمباعدة الخمر ومجانبتها، وإن لم يقصد استعمالها ، بناء على أن قوله تعالى : « فَاجْتَنِبُوهُ »(١) يراد به المجانبة بإطلاق .

فجميع هذا له أصل فى القرآن بيّنه الكتاب على إجمال أو تفصيل أو على الوجهين معا . وجاءت السنة قاضية على ذلك كله بما هو أوضح فى الفهم وأشفى فى الشرح .

وإنما المقصود هنا التنبيه . والعاقل يتهدى منه لما لم يذكر مما أشير إليه وبالله التوفيق .

ومنها النظر إلى مجال الاجتهاد الحاصل بين الطرفين الواضحين . ومجال القياس الدائر بين الأصول والفروع وهو المبين فى دليل القياس .

ولنبدأ بالأول. وذلك أنه يقع فى الكتاب النص على طرفين مبينين فيه أو فى السنة . كما تقدم فى المأخذ الثانى . وتبقى الواسطة على اجتهاد . والتباين لمجاذبة الطرفين إياها ، فربما كان وجه النظر فيها قريب المأخذ فيترك إلى أنظار المجتهدين. وربما يعد على الناظر أو كان محل تعبّد لا يجرى على مسلك المناسبة . فيأتى من رسول الله ﷺ فيه البيان، وأنه لاحق بأحد

---

(١) [٥ / المائدة / ٩٠] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

الطرفين . أو آخذ من كل واحد منهما بوجه احتياطىّ أو غيره . وهذا هو المقصود هنا .

ويتضح ذلك بأمثلة : أحدها أن الله تعالى أحل الطيبات وحرّم الخبائث. وبقى بين هذين الأصلين أشياء يمكن لحاقها بأحدها . فبين عليه السلام فى ذلك ما اتضح به الأمر . فنهى عن أكل كل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطير، ونهى عن أكل لحوم الحمر الأهلية وقال : إنها ركس . وسئل ابن عمر عن القنفذ فقال[1] : كُل. وتلا : « قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ »[2] الآية . فقال له إنسان : إن أبا هريرة يرويه عن النبىّ ﷺ ويقول : هو خبيثة من الخبائث . فقال ابن عمر : إن قاله النبىّ ﷺ فهو كما قال . وخرّج أبو داود[3] : نهى عليه السلام عن أكل الجلالة وألبانها. وذلك لما فى لحمها ولبنها من أثر الجلة وهى العَنْهَدة (كذا . ولم أدر ما معناها) .

فهذا كله راجع إلى معنى الإلحاق بأصل الخبائث . كما ألحق عليه السلام الضب والحبارى والأرنب وأشباهها بأصل الطيبات .

والثانى : أن الله تعالى أحل من المشروبات ما ليس بمسكر كالماء واللبن والعسل وأشباهها. وحرّم الخمر من المشروبات لما فيها من إزالة العقل المُوقِع للعداوة والبغضاء والصدّ عن

---

(١) مسند الإمام أحمد ، جزء ثان ص٣٨١ (طبعة الحلبىّ) عن عيسى بن نميلة الفزارىّ عن أبيه قال : كنت عند ابن عمر فسئل عن أكل القنفذ فتلا هذه الآية : قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا ـ إلى آخر الآية . فقال شيخ عنده : سمعت أبا هريرة يقول : ذُكِر عند النبىّ ﷺ فقال : خبيث من الخبائث . فقال ابن عمر : إن كان قاله رسول الله ﷺ فهو كما قال .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٤٥] ونصها: قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٣) سنن أبى داود فى : ٢٦ ـ كتاب الأطعمة ، ٢٤ ـ باب النهى عن أكل الجلالة وألبانها ، حديث ٣٧٨٥ .

ذكر الله وعن الصلاة. فوقع فيما بين الأصلين ماليس بمسكر حقيقة ولكنه يوشك أن يسكر. وهو نبيذ الدبّاء والمزفّت والنّقير وغيرها . فنهى[١] عنها إلحاقاً لها بالمسكرات تحقيقاً . سدًّا للذريعة . ثم رجع إلى تحقيق الأمر في أن الأصل الإباحة كالماء والعسل فقال عليه السلام[٢] « كنت نهيتكم عن الانتباذ فانتبذوا. وكل مسكر حرام». وبقى فى قليل المسكر على الأصل من التحريم . فبيّن أن ما أسكر كثيره فقليله حرام[٣] . وكذلك نهى عن الخليطين[٤] للمعنى الذى نهى من أجله عن الانتباذ فى الدبّاء والمزفّت وغيرها . فهذا ونحوه دائر فى المعنى بين الأصلين . فكان البيان من رسول الله ﷺ يبيّن ما دار بينهما إلى أى جهة يضاف من الأصلين .

---

(١) صحيح البخارىّ فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٩٨ ـ باب قول الرجل مرحبا :
عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لما قدم وفد عبد القيس على النبىّ ﷺ قال « مرحباً بالوفد الذين جاءوا غير خزايا ولا ندامى » فقالوا : يا رسول الله ! إنا حىٌّ من ربيعة . وبيننا وبينك مضر . وإنا لا نصل إليك إلا فى الشهر الحرام ، فمرنا بأمر فصلٍ ندخل به الجنة وندعو به مَن وراءنا . فقال « أربع وأربع : أقيموا الصلاة، وءاتوا الزكاة، وصوم رمضان، وأعطوا خمس ما غنمتم . ولا تشربوا فى الدبَّاء والحنتم والنقير والمزفت » .

(٢) صحيح مسلم فى : ١١ ـ كتاب الجنائز ، ح ١٠٦ عن ابن بريدة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ « نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ، ونهيتكم عن لحوم الأضاحىّ فوق ثلاث فأمسكوا مابدا لكم . ونهيتكم عن النبيذ إلا فى سقاء ، فاشربوا فى الأسقية كلها ولا تشربوا مسكرا .

(٣) سنن أبى داود فى: ٢٥ ـ كتاب الأشربة ، ٥ ـ باب فى النهى عن المسكر، ح ٣٦٨١ عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « ما أسكر كثيره فقليله حرام » .

(٤) صحيح مسلم فى : ٣٦ ـ كتاب الأشربة ، ح ٢٦ ، عن أبى قتادة أن نبىّ الله ﷺ نهى عن خليط التمر والبُسْر وعن خليط الزبيب والتمر وعن خليط الزهو والرطب ، وقال « انتبذوا كل واحد على حدته » .

والثالث : أن الله أباح من صيد الجارح المعلَّم ما أمسك عليك . وعلم من ذلك أن ما لم يكن معلَّما فصيده حرام إذ لم يمسك إلا على نفسه . فدار بين الأصلين ما كان معلما ولكنه أكل من صيده . فالتعليم يقتضى أنه أمسك عليك . والأكل يقتضى أنه اصطاد لنفسه . لا لك . فتعارض الأصلان . فجاءت السنة ببيان ذلك . فقال عليه السلام[1] « فإن أكل فلا تأكل فإنى أخاف أن يكون إنما أمسكه على نفسه » وفى حديث آخر[2] «إذا قتله ولم يأكل منه شيئاً فإنما أمسكه عليك » وجاء فى حديث آخر[1] « إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله فكل ، وإن أكل منه ... » الحديث . وجميع ذلك رجوع للأصلين الظاهرين .

والرابع : أن النهى ورد على المُحْرِم أن لايقتل الصيد مطلقاً . وجاء أن على مَنْ قتله عمدا الجزاء . وأبيح للحَلَال مطلقاً . فمن قتله فلا شىء عليه . فبقى قتله خطأً فى محل النظر . فجاءت السنة بالتسوية بين العمد والخطأ . قال الزهرىّ : جاء القرآن بالجزاء على العامد وهو فى الخطأ سنة . والزهرىّ من أعلم الناس بالسنن .

والخامس : إن الحلال والحرام من كل نوع قد بينه القرآن. وجاءت بينهما أمور ملتبسة لأخذها بطرف من الحلال والحرام . فبيَّن صاحب السنة ﷺ من ذلك على الجملة وعلى التفصيل .

---

(١) صحيح البخارىّ فى : ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ١٠ ـ باب ماجاء فى التصيّد.

عن عدىّ بن حاتم رضى الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ فقلت : إنّا قوم نتصيد بهذه الكلاب ، فقال « إذا أرسلت كلابك المعلَّمة وذكرت اسم الله ، فكل مما أمسكن عليك . إلا أن يأكل الكلب فلا تأكل . فإنى أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه . وإن خالطها كلب من غيرها فلا تأكل » .

(٢) صحيح البخارىّ فى : ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ٣ ـ باب ما أصاب المعراض بعرضه .

عن عدىّ بن حاتم رضى الله عنه قال: قلت : يارسول الله ! إنا نرسل الكلاب المعلَّمة. قال « كل ما أمسكن عليك » قلت : وإن قتلن ؟ قال « وإن قتلن » .

فالأول : قوله « الحلال[1] بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات... » الحديث .

ومن الثانى : قوله فى حديث عبد الله بن زمعة[2] «واحتجبى منه ياسودة» لما رأى من شبهه بعتبة ... الحديث . وفى حديث عدىّ بن حاتم فى الصيد[3] « فإذا اختلط بكلابك كلب من غيرها فلا تأكل . لا تدرى لعله قتله الذى ليس منها » وقال فى بئر[4] بضاعة، وقد

(١) صحيح البخارى فى : ٢ ـ كتاب الإيمان ، ٣٩ ـ باب فضل من استبرأ لدينه .

عن عامر قال : سمعت النعمان بن بشير يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول « الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما مشتبهات لا يعلمها كثير من النـاس . فمن اتقى المشتبهات استبرأ لدينه وعرضه . ومن وقع فى الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه . ألا وإن لكل ملك حمى . ألا وإن حمى الله فى أرضه محارمه . ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » .

(٢) صحيح البخارىّ فى : ٤٩ ـ كتاب العتق ، ٨ ـ باب أم الولد .

عن عائشة رضى الله عنها قالت: إن عتبة بن أبى وقّاص عَهِد إلى أخيه سعد بن أبى وقاص أن يقبض إليه ابن وليدة زمعة . قال عتبة : إنه ابنى . فلما قدم رسول الله ﷺ زمن الفتح أخذ سعد ابنَ وليدة زمعة . فأقبل به إلى رسول الله ﷺ . وأقبل معه بعبد بن زمعة . فقال سعد : يا رسول الله ! هذا ابن أخى . عهد إلىّ أنه ابنه . فقال عبد بن زمعة : يا رسول الله ! هذا أخى ، ابن وليدة زمعة ، ولد على فراشه . فنظر رسـول الله ﷺ إلى ابن وليدة زمعة فإذا هو أشبه الناس به (أى بعتبة) فقال رسول الله ﷺ « هو لك يا عبد بن زمعة » من أجل أنه ولد على فراش أبيه .

قال رسول الله ﷺ « احتجبى منه يا سودة بنت زمعة » مما رأى من شبهه بعتبة .

وكانت سودة زوج النبىّ ﷺ .

(٣) انظر هامش رقم ١ ص ١٩٧ .

(٤) سنن أبى داود فى: ١ ـ كتاب الطهارة ، ٣٤ ـ باب ماجاء فى بئر بضاعة ، ح٦٦ .

عن أبى سعيد الخدرىّ أنه قيـل لرسول الله ﷺ : أنتوضأ من بئر بضاعة ـ وهى =

كانت تطرح فيها الحيض والعذرات «خلق الله الماء طهوراً لا ينجسه شيء » فحكم بأحد الطرفين وهو الطهارة . وجاء في الصيد[١] « كُلْ ما أصميت ودع ما أنميت » وقال في حديث عقبة بن الحرث في الرضاع[٢] ، إذ أخبرته المرأة السوداء بأنها أرضعته والمرأة التي أراد تزوجها. قال فيه « كيف بها وقد زعمت أنها قد أرضعتكما ، دعها عنك » إلى أشياء من هذا القبيل كثيرة .

والسادس : أن الله عز وجل حرم الزنى وأحل التزويج وملك اليمين . وسكت عن النكاح المخالف للمشروع؛ فإنه ليس بنكاح محض ولا سفاح محض . فجاء في السنة ما بيّن الحكم في بعض الوجوه حتى يكون محلا لاجتهاد العلماء في إلحاقه بأحد الأصلين مطلقاً ، أو في بعض الأحوال . وبالأصل الآخر في حال آخر ، فجاء في الحديث[٣] «أيما امرأة نكحت بغير إذن وليّها فنكاحها باطل، فنكاحها باطل، فنكاحها باطل. فإن دخل بها فلها المهر بما استحل منها » وهكذا سائر ما جاء، في النكاح الفاسد، من السنة .

= بئر يطرح فيها الحِيَض ولحم الكلاب والنتْن ـ فقال رسول الله ﷺ « الماء طَهُور لاينجّسه شيء » .

(١) جاء في « كشف الخطأ » ١٩٥٧ ـ رواه الطبراني عن ابن عباس .

(٢) صحيح البخاري في : ٦٧ ـ كتاب النكاح ، ٢٣ ـ باب شهادة المرضعة .

عن عقبة بن الحارث قال : تزوجت امرأة . فجاءتنا امرأة سوداء فقالت : أرضعتُكما . فأتيت النبي ﷺ فقلت : تزوجتُ فلانة بنت فلان . فجاءتنا امرأة سوداء فقالت لي : إني قد أرضعتكما ، وهي كاذبة . فأعرض . فأتيتُه من قِبَل وجهه قلت : إنها كاذبة . قال « كيف بها وقد زعمت أنها قد أرضعتكما ؟ دعها عنك » .

(٣) سنن أبي داود في : ١٢ ـ كتاب النكاح ، ١٩ ـ باب في الولي، حديث ٢٠٨٣ :

عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ « أيما امرأة نكحت بغير إذن مواليها فنكاحها باطل » ثلاث مرات « فإن دخل بها فالمهر لها بما أصاب منها ، فإن تشاجرا فالسلطان ولي من لا ولي له » .

والسابع : أن الله أحلّ صيد البحر فيما أحل من الطيبات وحرّم الميتة فيما حرم من الخبائث. فدارت ميتة البحر بين الطرفين فأشكل حكمها . فقال عليه السلام[1] «هو الطهور ماؤه الحل ميتته» وروى فى بعض الحديث[2] «أحلت لنا ميتتان : الحيتان والجراد» وأكل عليه السلام مما قذفه البحر[3] لما أتى به أبو عبيدة .

والثامن : أن الله تعالى جعل النفس بالنفس وأقصّ من الأطراف بعضها من بعض فى قوله تعالى : «وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ... إلى آخر الآية»[4] هذا فى العمد .

---

(١) سنن أبى داود فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ٤١ ـ باب الوضوء بماء البحر ، ح ٨٣:
عن أبى هريرة قال : سأل رجل النبىّ ﷺ فقال : يا رسـول الله ! إنا نركب البحر ، ونحمل معنا القليل من الماء ، فإن توضأنا به عطشنا، أفنتوضأ بماء البحر؟ فقال رسول الله ﷺ « هو الطّهور ماؤه ، الحلّ ميتته » .

(٢) سنن ابن ماجه فى: ٢٨ـ كتاب الصيد ، ٩ـ باب صيد الحيتان والجراد، ح٣٢١٨:
عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال « أحلّت لنا مَيتتان : الحوت والجراد » .

(٣) صحيح البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٦٥ ـ باب غزوة سيف البحر .
عن جابر رضى الله عنه قال: غزونا جيش الخَبَط . وأُمِّر أبو عبيدة . فجعنا جوعا شديدا. فألقى البحر حوتا ميّتا ، لم نر مثله ، يقال له العنبر . فأكلنا منه نصف شهر . فأخذ أبو عبيدة عظماً من عظامه فمرّ الراكب تحته . قال أبو عبيدة : كلوا . فلما قدمنا المدينة ذكرنا ذلك للنبىّ ﷺ فقال « كلوا رزقاً أخرجه الله . أطعمونا إن كان معكم » فأتاه بعضهم بعضو ، فأكله .

(٤) [٥ / المائدة / ٤٥] ونصها : وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنْفَ بِالأَنْفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ، فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ، وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .

وأما الخطأ فالدية لقوله : « فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ »(١). وبيّن عليه السلام دية الأطراف على النحو الذى يأتى بحول الله . فجاء طرفان أشكل بينهما الجنين إذا أسقطته أمه بالضربة ونحوها . فإنه يشبه جزء الإنسان كسائر الأطراف ويشبه الإنسان التام لخلقته . فبينت السنة فيه أن ديته الغرة وأن له حكم نفسه لعدم تمحض أحد الطرفين له.

والتاسع : إن الله حرم الميتة وأباح المذكاة . فدار الجنين، الخارج من بطن المذكاة ميتاً، بين الطرفين . فاحتملهما . فقال فى الحديث(٢) « ذكاة الجنين ذكاة أمه » ترجيحا لجانب الجزئية على جانب الاستقلال .

والعاشر : أن الله قال : « فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ »(٣) فبقيت البنتان مسكوتاً عنهما . فنقل فى السنة حكمهما . وهو إلحاقهما بما فوق البنتين . ذكره القاضى إسماعيل . فهذه أمثلة يستعان بها على ما سواها، فإنه أمر واضح لمن تأمل ، وراجع إلى أحد الأصلين المنصوص عليهما أو إليهما معاً ؛ فيأخذ من كل منهما بطرف فلا يخرج عنهما ولا يعدوها . وأما مجال القياس فإنه يقع فى الكتاب العزيز أصول تشير إلى ما كان من نحوها أن حكمه حكمها ، وتقرب إلى الفهم الحاصل من إطلاقها أن بعض المقيدات مثلها. فيجتزى بذلك الأصل عن تفريع الفروع اعتماداً على بيان السنة فيه .

---

(١) [٤ / النساء / ٩٢] ونصها : وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً ، وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا . إلى آخر الآية .

(٢) جامع الترمذىّ فى : ١٦ ـ كتاب الصيد ، ١٠ ـ باب ما جاء فى ذكاة الجنين : عن أبى سعيد عن النبىّ ﷺ قال : « ذكاة الجنين ذكاة أمه » .

(٣) [٤ / النساء / ١١] ونصها : يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ، فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ، وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ . . . الخ الآية .

وهذا النحو بناء على أن المقيس عليه ، وإن كان خاصاً ، فى حكم العام معنى . فإذا كان كذلك ووجدنا فى الكتاب أصلاً وجاءت السنة بما فى معناه ، أو ما يلحق به ، أويشبهه ، أو يدانيه فهو المعنى ههنا . وسواء علينا أقلنا إن النبيّ ﷺ قاله بالقياس أو بالوحى ، إلا أنه جار فى إفهامنا مجرى المقيس ، والأصل الكتاب شامل له. وله أمثلة :

أحدها : أن الله عز وجل حرم الربا وربا الجاهلية الذى قالوا فيه « إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا »(1) هو فسخ الدين فى الدين . يقول الطالب : إما أن تقضى وإما أن تربى. وهو الذى دل عليه أيضا قوله تعالى : « وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ »(2) فقال عليه السلام(3) « وربا الجاهلية موضوع . وأول ربا أضعه ربا العباس ابن عبد المطلب فإنه موضوع كله » وإذا كان كذلك ، وكان المنع فيه ، إنما هو من أجل كونه زيادة على غير عوض ، ألحقت السنة به كل ما فيه زيادة بذلك المعنى. فقال عليه السلام(4)

---

(1) [٢ / البقرة / ٢٧٥] ونصها : الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ، وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا . . . الخ الآية .

(2) [٢/ البقرة/ ٢٧٩] ونصها : فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ .

(3) سنن أبى داود فى : ١١ ـ كتاب المناسك ، ٥٦ ـ باب صفة حجة النبيّ ﷺ ، حديث ١٩٠٥ :

. . . فخطب الناس فقال « إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا . ألا إن كل شىء من أمر الجاهلية تحت قدمىّ موضوع . ودماء الجاهلية موضوعة . وأول دم أضعه دماؤنا : دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . وربا الجاهلية موضوع . وأول ربا أضعه ربانا : ربا العباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله . . . » الخ الحديث الطويل جدا .

(4) صحيح مسلم فى : ٢٢ ـ كتاب المساقاة ، حديث٨٢ : وينتهى عندقوله : فقد أربى. وما بعده فلم أقف عليه .

«الذهب بالذهب والفضة بالفضة ، والبر بالبر، والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح مثلا بمثل سواء بسواء يداً بيد . فمن زاد وازداد فقد أربى ، فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد » ، ثم زاد على ذلك بيع النَّسَاءِ إذا اختلفت الأصناف . وعده من الربا لأن النَّسَاء فى أحد العوضين يقتضى الزيادة ويدخل فيه بحكم المعنى «السلف يجر نفعاً». وذلك لأن بيع هذا الجنس بمثله فى الجنس من باب بدل الشيء بنفسه . لتقارب المنافع فيما يراد منها . فالزيادة على ذلك من باب إعطاء عوض على غير شيء، وهو ممنوع . والأجَل فى أحد العوضين لا يكون عادة إلا عند مقارنة الزيادة به فى القيمة. إذ لا يسلم الحاضر فى الغائب إلا ابتغاء ما هو أعلى من الحاضر فى القيمة . وهو الزيادة . ويبقى النظر : لِمَ جاز مثل هذا فى غير النقدين والمطعومات ، ولم يجز فيهما ؟ محل نظر . يخفى وجهه على المجتهدين. وهو من أخفى الأمور التى لم يتضح معناها إلى اليوم . فلذلك بينتها السنة . إذ لو كانت بينة لوكل فى الغالب أمرها إلى المجتهدين، كما وكل إليهم النظر فى كثير من محال الاجتهاد . فمثل هذا جار مجرى الأصل والفرع فى القياس . فتأمله .

والثانى : أن الله تعالى حرم الجمع بين الأم وابنتها فى النكاح ، وبين الأختين . وجاء فى القرآن : « وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ »[1] ، فجاء نهيه عليه السلام عن الجمع[2] بين المرأة وعمتها أو خالتها من باب القياس ، لأن المعنى الذى لأجله ذمّ الجمع بين أولئك موجود هنا . وقد يروى فى هذا الحديث[3] « فإنكم إذا فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم » . والتعليل يشعر بوجه القياس .

---

(١) [٤/ النساء/ ٢٤] ونصها : وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ ، وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ . . . الخ الآية .

(٢) صحيح البخارىّ فى : ٦٧ ـ كتاب النكاح ، ٢٧ ـ باب لا تنكح المرأة على عمتها : عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « لا يجمع بين المرأة وعمتها ولا بين المرأة وخالتها » .

(٣) لم أقف على هذه الزيادة .

والثالث : أن الله تعالى وصف الماء الطهور بأنه أنزله من السماء ، وأنه أسكنه فى الأرض. ولم يأت مثل ذلك فى ماء البحر . فجاءت السنة بإلحاق ماء البحر بغيره من المياه بأنه « الطهور[1] ماؤه ، الحلّ ميتته » .

والرابع : أن الدية فى النفس ، ذكرها الله تعالى فى القرآن . ولم يذكر ديات الأطراف. وهى مما يشكل قياسها على المعقول . فبيّن الحديث من دياتها ماوضح به السبيل وكأنه جارٍ مجرى القياس الذى يشكل أمره . فلا بد من الرجوع إليه ، ويُحذى حذوه .

والخامس : أن الله تعالى ذكر الفرائض المقدرة من النصف والربع والثمن والثلث والسدس . ولم يذكر ميراث العصَبة إلا ماأشار إليه قوله فى الأبوين : « فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ »[2] الآية وقوله فى الأولاد : « لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ »[3] وقوله فى آية الكلالة : « وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ »[4] . وقوله : « وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ »[5] فاقتضى أن ما بقى ، بعد الفرائض المذكورة ، فللعصَبة . وبقى من ذلك ما كان من العصبة غير هؤلاء المذكورين . كالجدّ والعم وابن العم وأشباههم . فقال عليه السلام[6] : « ألحقوا الفرائض بأهلها . فما بقى فهو لأوْلى رجل ذكر » : وفى رواية فلأولى عَصَبة ذكر . فأتى هذا على ما بقى مما يحتاج إليه ، بعد ما نبه الكتاب على أصله .

---

(١) سنن أبى داود فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ٤١ ـ باب الوضوء بماء البحر ، ح٨٣.

(٢) [٤ / النساء / ١١] .

(٣) [٤ / النساء / ١١] .

(٤) [٤ / النساء / ١٧٦] .

(٥) [٤ / النساء / ١٧٦] .

(٦) صحيح البخارىّ فى : ٨٥ ـ كتاب الفرائض ، ٥ ـ باب ميراث الولد من أبيه وأمه ، عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبىّ ﷺ .

والسادس: أن الله تعالى ذكر من تحريم الرضاعة قوله: « وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِنَ الرَّضَاعَةِ »(١) فألحق النبيّ عليه السلام، بهاتين، سائر القرابات من الرضاعة التي يحرمْن من النسب. كالعمة والخالة وبنت الأخ وبنت الأخت وأشباه ذلك. وجهة إلحاقها هي جهة الإلحاق بالقياس إذ ذاك، من باب القياس بنفي الفارق. نصّت عليه السنة إذ كان لأهل الاجتهاد سوى النبيّ عليه السلام، في ذلك، نظر. وتردد بين الإلحاق والقصر على التعبد، فقال عليه الصلاة والسلام(٢) « إن الله حرم من الرضاع ما حرم من النسب» وسائر ما جاء في هذا المعنى. ثم ألحق بالإناث الذكور؛ لأن اللبن للفحل. ومن جهة درّ المرأة، فإذا كانت المرأة بالرضاع فالذي له اللبن أم بلا إشكال.

والسابع: أن الله حرم مكة بدعاء إبراهيم. فقال: « رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا »(٣) وقال تعالى: « أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا »(٤). وذلك حَرَم مكة. فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه للمدينة بمثل ما دعا به إبرهيم لمكة. ومثله معه. فأجابه الله. وحرم ما بين لابتيها فقال(٥) « إني أحرم ما بين لابتي المدينة أن يقطع عضاهها أو يقتل صيدها». وفي رواية(٦) «ولا يريد أحدٌ أهلَ المدينه بسوء إلا أذابه الله في النار ذوب

(١) [٤ / النساء / ٢٣].

(٢) جامع الترمذيّ في: ١٠ ـ كتاب الرضاع، ١ ـ باب ما جاء يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب، عن عليّ بن أبي طالب، قال: قال رسول الله ﷺ.

(٣) [٢ / البقرة / ١٢٦].

(٤) [٢٩ / العنكبوت / ٦٧].

(٥) صحيح مسلم في: ١٥ ـ كتاب الحج، حديث ٤٥٩، عن عامر بن سعد عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ:

(٦) صحيح مسلم في: ١٥ ـ كتاب الحج، حديث ٤٦٠، عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال:

الرصاص أو ذوب الملح في الماء » . وفي حديث آخر[١] « فمن أحدث فيها حدثاً أو آوى محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . لايقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولاعدلا» ومثله في صحيفة عليّ[٢] المتقدمة . فهذا نوع من الإلحاق بمكة في الحرمة . وقد جاء فيها قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ »[٣] إلى قوله : « وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ » والإلحاد شامل لكل عدول عن الصواب إلى الظلم وارتكاب المنهيات على تنوعها . حسبما فسرته السنة . فالمدينة لاحقة في هذا المعنى .

والثامن : أن الله تعالى قال : « وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ...الآية»[٤] فحكم في الأموال بشهادة النساء ، منضمة إلى شهادة رجل . وظهر به ضعف شهادتين . ونبَّه على ذلك في قوله[٥] : « ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لب منكن » ، وفسر نقصان العقل بأن شهادة امرأتين تعدل شهادة رجل . وحين ثبت ذلك بالقرآن وقال فيه : أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى[٦] ، دلّ على انحطاطهن عن درجة الرجل. فألحقت السنة، بذلك ، اليمين مع

---

(١) صحيح البخاريّ في : ٩٦ ـ كتاب الاعتصام ، ٥ ـ باب ما يكره من التعمق والتنازع في العلم والغلوّ في الدين والبدع ، عن إبراهيم التيميّ حدثني أبي قال : خطبنا عليّ رضي الله عنه على منبر من آجر ، وعليه سيف فيه صحيفة معلقة فقال :

(٢) انظر الحاشية السابقة .

(٣) [٢٢ / الحج / ٢٥] .

(٤) [٢ / البقرة / ٢٨٢] .

(٥) صحيح البخاريّ في : ٦ ـ كتاب الحيض ، ٦ ـ باب ترك الحائض الصوم ، عن أبي سعيد الخدريّ قال : خرج رسول الله ﷺ في أضحى أو فطر إلى المصلّى ، فمرّ على النساء فقال :

(٦) [٢ / البقرة / ٢٨٢] .

الشاهد. فقضى عليه السلام بذلك . لأن لليمين فى اقتطاع الحقوق واقتضائها حكما قضى به قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ... الآية »(١) فجرى الشاهد واليمين مجرى الشاهدين . أو الشاهد والمرأتين فى القياس . إلا أنه يخفى . فبيَّنته السنة .

والتاسع : أن الله تعالى ذكر البيع فى الرقاب وأحله . وذكر الإجارة فى بعض الأشياء . كالجعل المشار إليه فى قوله تعالى : « وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ »(٢) . والإجارة على القيام بمال اليتيم فى قوله : « وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ »(٣) . وفى العمال على الصدقة، كقوله تعالى : « وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا »(٤) . وفى بعض منافع لا تأتى على سائرها . فأطلقت السنة فيها القول بالنسبة إلى سائر منافع الرقاب من الناس والدواب والدور والأرضين . فبين النبىّ ﷺ من ذلك كثيراً . ووكل سائرها إلى أنظار المجتهدين . وهذا هو المجال القياسىّ المعتبر فى الشرع . ولا علينا : أقصدَ النبىُّ عليه السلام القياس على الخصوص أم لا ؟ لأن جميع ذلك يرجع إلى قصده بيانَ ما أنزل الله إليه ، على أى وجه كان .

والعاشر : أن الله تعالى أخبر عن إبراهيم، فى شأن الرؤيا بما أخبر به من ذبح ولده . وعن رؤيا يوسف ورؤيا الفتيين . وكانت رؤيا صادقة . ولم يدل ذلك على صدق كل رؤيا. فبيّن النبىّ ﷺ أحكام ذلك ، (٥)وأن الرؤيا الصالحة من الرجل الصالح جزء من أجزاء النبوءة . وأنها

---

(١) [٣ / آل عمران / ٧٧] .

(٢) [١٢ / يوسف / ٧٢] .

(٣) [٤ / النساء / ٦] .

(٤) [٩ / التوبة / ٦٠] .

(٥) صحيح البخارىّ فى : ٩١ ـ كتاب التعبير، ٢ ـ باب رؤيا الصالحين ، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: ، و ٣ ـ باب الرؤيا من الله ، عن أبى قتادة عن النبى ﷺ قال: ، و ٤ ـ باب الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة ، عن عبادة بن الصامت عن النبى ﷺ قال:، و ٥ ـ باب المبشرات، عن أبى هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

من المبشرات . وأنها على أقسام . إلى غير ذلك من أحكامها . فتضمن إلحاق غير أولئك المذكورين بهم . وهو المعنى الذى فى القياس . والأمثلة فى هذا المعنى كثيرة .

ومنها النظر إلى ما يتألف من أدلة القرآن المتفرقة من معان مجتمعة ، فإن الأدلة قد تأتى فى معان مختلفة ولكن يشملها معنى واحد شبيه بالأمر فى المصالح المرسلة والاستحسان . فتأتى السنة بمقتضى ذلك المعنى الواحد ، فيعلم أو يظن أن ذلك المعنى مأخوذ من مجموع تلك الأفراد . بناء على صحة الدليل الدّال على أن السنة إنما جاءت مبينة الكتاب . ومثال هذا الوجه ما تقدم فى أول كتاب الأدلة الشرعية ، فى طلب معنى قوله عليه السلام [(١)] «لا ضرر ولاضرار » من الكتاب ، ويدخل فيه ما فى معنى هذا الحديث من الأحاديث. فلا معنى للاعادة .

ومنها النظر إلى تفاصيل الأحاديث فى تفاصيل القرآن . وإن كان فى السنة بيان زائد . ولكن صاحب هذا المأخذ يتطلب أن يجد كل معنى فى السنة مشاراً إليه من حيث وضع اللغة ، لا من جهة أخرى . أو منصوصا عليه فى القرآن . ولنمثله ثم ننظر فى صحته أو عدم صحته . وله أمثلة كثيرة :

أحدها : حديث[(٢)] ابن عمر فى تطليقه زوجه وهى حائض . فقال عليه السلام لعمر «مره فليراجعها . ثم ليتركها حتى تطهر . ثم تحيض ثم تطهر . ثم ، إن شاء ، أمسك بعد ، وإن شاء طلق قبل أن يمس ، فتلك العدة التى أمر الله أن يطلق لها النساء ». يعنى أمره

---

(١) سنن ابن ماجه فى : ١٣ ـ كتاب الأحكام ، ١٧ ـ باب من بنى فى حقه ما يضر بجاره ، حديث ٢٣٤٠ ، عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قضى أنْ « لا ضرر ولا ضرار » .

(٢) صحيح البخارىّ فى : ٦٨ ـ كتاب الطلاق، ١ ـ باب قول الله تعالى : يا أيها النبىّ إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدّتهن وأحصوا العدة ، عن عبد الله بن عمر أنه طلق امرأته وهى حائض على عهد رسول الله ﷺ . فسأل عمر بن الخطاب رسولَ الله ﷺ عن ذلك ، فقال رسول الله ﷺ :

فى قوله : « يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ »[١] .

والثانى : حديث[٢] فاطمة بنت قيس فى أن رسول الله ﷺ لم يجعل لها سكنى ولا نفقة، إذ طلقها البتة . وشأن المبتوتة أن لها السكنى وإن لم يكن لها نفقة . لأنها بذت على أهلها بلسانها . فكان ذلك تفسيراً لقوله : « وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ »[٣] .

والثالث: حديث[٤] سبيعة الأسلمية ، إذ ولدت بعد وفاة زوجها بنصف شهر. فأخبرها عليه السلام أن قد حلّت . فبيّنَ الحديثُ أن قوله تعالى : « وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا »[٥] مخصوص فى غير الحامل. وأن قوله تعالى: « وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ »[٦] عامّ فى المطلقات وغيرهن.

والرابع : حديث أبى هريرة فى قوله : « فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ »[٧] ، قالوا : حبة فى شعرة[٨] : يعنى عوض قوله : وقولوا حطة .

---

(١) [٦٥ / الطلاق / ١] .

(٢) صحيح مسلم فى : ١٨ ـ كتاب الطلاق ، حديث ٣٦ ، عن فاطمة بنت قيس أن أبا عمرو بن حفص طلقها البتة ، وهو غائب . فأرسل إليها وكيلهُ بشعير فسخطته . فقال : والله! مالك علينا من شيء . فجاءت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له ، فقال :

(٣) [٦٥ / الطلاق / ١] .

(٤) صحيح البخارىّ فى : ٦٨ ـ كتاب الطلاق ، ٣٩ ـ باب وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن . عن أمسلمة ، زوج النبىّ ﷺ أن امرأة من أسلم يقال لها سبيعة ، كانت تحت زوجها . توفى عنها وهى حبلى ...

(٥) [٢ / البقرة / ٢٣٤] .

(٦) [٦٥ / الطلاق / ٤] .

(٧) [٢ / البقرة / ٥٩] .

(٨) صحيح البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٥ ـ باب =

والخامس : حديث[1] جابر عن النبيّ ﷺ حين قدم مكة . طاف بالبيت سبعا . فقرأ : « وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى »[2] . فصلى خلف المقام ، ثم أتى الحجر فاستلمه . ثم قال : نبدأ بما بدأ الله به . وقرأ : « إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ » .

والسادس : حديث[3] النعمان بن بشير عن النبيّ ﷺ فى قوله تعالى : « وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ »[4]. قال « الدعاء هو العبادة » وقرأ الآية إلى قوله. «دَاخِرِينَ».

والسابع : حديث[5] عدىّ بن حاتم قال : لما نزلت : « حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ » قال لى النبيّ ﷺ « إنما ذلك بياض النهار من سواد الليل » .

والثامن : حديث[6] سمرة بن جندب ؛ أن النبيّ ﷺ قال : « صلاة الوسطى صلاة العصر » ، وقال يوم الأحزاب[7] : « اللهم ! املأ قبورهم وبيوتهم نارًا كما شغلونا عن صلاة الوسطى حتى غابت الشمس » .

= وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية ، عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبيّ ﷺ قال :

(١) سنن النسائىّ فى : ٢٤ ـ كتاب مناسك الحج ، ١٦٣ ـ باب القول بعد ركعتى الطواف .

(٢) [٢ / البقرة / ١٢٥] .

(٣) جامع الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ١٦ ـ باب حدثنا هناد ، عن النعمان بن بشير عن النبيّ ﷺ .

(٤) [٤٠ / غافر / ٦٠] .

(٥) صحيح البخارىّ فى : ٣٠ ـ كتاب الصوم ، ١٦ ـ باب قول الله تعالى : كلوا واشربوا . عن عدىّ بن حاتم رضى الله عنه قال : لما نزلت : حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود . . .

(٦) جامع الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٣٠ ـ باب حدثنا حميد بن مسعدة . عن سمرة بن جندب أن نبىّ الله ﷺ قال :

(٧) صحيح البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٤٢ ـ باب حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى . عن علىّ رضى الله عنه أن النبيّ ﷺ قال ، يوم الخندق :

والتاسع : حديث(١) أبي هريرة قال عليه السلام : « إن موضع سوطٍ في الجنة لخير من الدنيا وما فيها » . اقرؤوا إن شئتم: «فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ»(٢).

والعاشر : حديث(٣) أنس في الكبائر . قال عليه السلام ، فيها « الشرك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس وقول الزور » .

وثَمَّ أحاديث أُخر فيها ذكر الكبائر . وجميعها تفسير لقوله تعالى : « إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ »(٤) الآية .

وهذا النمط في السنة كثير . ولكن القرآن لا يفي بهذا المقصود على النص والإشارة العربية التي تستعملها العرب أو نحوها . وأول شاهد في هذا ، الصلاة والحج والزكاة والحيض والنفاس واللُّقَطَة والقراض والمساقاة والديات والقسامات وأشباه ذلك من أمور لا تحصى .

فالملتزم لهذا لا يفي بما ادعاه إلا أن يتكلف في ذلك مآخذ لا يقبلها كلام العرب ولا يوافق على مثلها السلف الصالح ولا العلماء الراسخون في العلم .

ولقد رام بعض الناس فتح هذا الباب الذي شرع في التنبيه عليه ، فلم يوف به إلا على التكلف المذكور ، والرجوع إلى المآخذ الأول في مواضع كثيرة ، لم يتأت له فيها نص ولا إشارة إلى خصوصات ما ورد في السنة . فكان ذلك نازلًا بقصده الذي قصد .

وهذا الرجل المشار إليه لم ينصب نفسه في هذا المقام إلا لاستخراج معاني الأحاديث التي خرّج مسلم بن الحجاج في كتابه « المسند الصحيح » دون ماسواها مما نقله الأئمةسواه. وهو من غرائب المعاني المصنفة في علوم القرآن والحديث . وأرجو أن يكون ما ذكر هنا من المآخذ موفياً بالغرض في الباب . والله الموفق للصواب .

---

(١) تفسير ابن كثير جزءأول صفحة٤٣٥. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ ... الخ ثم قال ابن كثير : هذاحديث ثابت في الصحيحين من غير هذا الوجه، بدون هذه الزيادة .

(٢) [٣ / آل عمران / ١٨٥] .

(٣) صحيح البخاريّ في : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٦ ـ باب عقوق الوالدين من الكبائر. عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ذكر رسول الله ﷺ الكبائر، أو سئل عن الكبائر فقال:

(٤) [٤ / النساء / ٣١] .

ثم قال الشاطبيّ :

فصل

وقد ظهر، مما تقدم، الجواب عما أوردوا من الأحاديث التى قالوا: إن القرآن لم ينبه عليها .
فقوله عليه السلام[1] « يوشك رجل منكم متكئاً على أريكته ... إلى آخره » لا يتناول ما نحن فيه . فإن الحديث إنما جاء فيمن يطرح السنة معتمداً على رأيه فى فهم القرآن . وهذا لم ندّعه فى مسألتنا هذه . بل هو رأى أولئك الخارجين عن الطريقة المثلى .

وقوله[2] « ألَا وإنَّ ما حرم رسول الله ﷺ مثل ما حرم الله» صحيح على الوجه المتقدم . إما بتحقيق المناط الدائر بين الطرفين الواضحين والحكم عليه ، وإما بالطريقة القياسية ، وإما بغيرها من المآخذ المتقدمة . ومرّ الجواب عن تحريم نكاح المرأة على عمتها أو خالتها . وتحريم كل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطير ، وعلى العقل . وأما فكاك الأسير فمأخوذ من قوله تعالى : « وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ »[3] وهذا فيمن لم يهاجر، إذا لم يقدر على الهجرة إلا بالانتصار بغيره ، فعلى الغير النصرُ . والأسير فى هذا المعنى أولى بالنصر . فهو مما يرجع إلى النظر القياسىّ . وأما أن « لا يقتل مسلم بكافر »[4] فقد انتزعها العلماء من الكتاب. كقوله : « وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا »[5] وقوله : « لَا يَسْتَوِى أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ »[6] وهذه الآية أبعد ، ولكن

---

(١) سنن ابن ماجه ، المقدمة ، ٢ ـ باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ والتغليظ على من عارضه ، حديث ١٢ . عن المقدام بن معديكرب الكندىّ ، أن رسول الله ﷺ قال :

(٢) انظر ما قبله .

(٣) [٨ / الأنفال / ٧٢] .

(٤) صحيح البخارىّ فى : ٨٧ ـ كتاب الديات ، ٣١ ـ باب لا يقتل المسلم بالكافر . عن أبى جحيفة قال : سألت عليا رضى الله عنه : هل عندكم شىء مما ليس فى القرآن ؟ فقال:

(٥) [٤ / النساء / ١٤١] .

(٦) [٥٩ / الحشر / ٢٠] .

الأظهر أنه لو كان حكمها موجودا فى القرآن على التنصيص أو نحوه لم يجملها علىّ خارجة عن القرآن حيث قال : ماعندنا[١] إلا كتاب الله وما فى هذه الصحيفة. إذ لو كان فى القرآن لمدّ الثِّنْتَيْنِ، دون قتل المسلم بالكافر . ويمكن أن يؤخذ حكم المسألة مأخذ القياس المتقدم . لأن الله قال : « الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ »[٢] فلم يُقِدْ من الحر العبدَ . والعبودية من آثار الكفر . فأولى أن لا يقاد من المسلم للكافر . وأما إخفار ذمة المسلم فهو من باب نقض العهد . وهو فى القرآن . وأقرب الآيات إليه قوله تعالى : « وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ »[٣] وفى الآية الأخرى : أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ »[٤] وقد مرّ تحريم المدينة وانتزاعه من القرآن . وأمّا من تولى قوما بغير إذن مواليه فداخل بالمعنى فى قطع ما أمر الله به أن يوصل . وأيضاً فإن الانتفاء من ولاء صاحب الولاء، الذى هو لحمة كلحمة النسب، كفرٌ لنعمة ذلك الولاء . كما هو فى الانتساب إلى غير الأب . وقد قال تعالى فيها : « وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ »[٥] وصدق هذا المعنى فى الصحيح من قوله[٦] « أيما عبد أبق من مواليه فقد كفر حتى يرجع إليهم » ، وفيه[٧] « إذا أبق العبد لم تقبل له صلاة ».

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٠٦ .

(٢) [٢ / البقرة / ١٧٨] .

(٣) [١٣ / الرعد / ٢٥] .

(٤) [٢ / البقرة / ٢٧] .

(٥) [١٦ / النحل / ٧٢] .

(٦) صحيح مسلم فى : ١ ــ كتاب الإيمان ، حديث ١٢٢ عن جرير أنه سمعه يقول :

(٧) صحيح مسلم فى : ١ ــ كتاب الإيمان ، حديث ١٢٣ ، عن جرير قال : قال رسول الله ﷺ :

وحديث[١] معاذ ظاهر فى أن ما لم يصرَّح به فى القرآن ، ولا حصل بيانه فيه ، فهو مبين فى السنة . وإلا فالاجتهاد يقضى عليه . وليس فيه معارضة لما تقدم .

ثم قال الشاطبىّ : حيث قلنا : إن الكتاب دال على السنة ، وإن السنة إنما جاءت مبيِّنة له ، فذلك بالنسبة إلى الأمر والنهى والإذن ، أو ما يقتضى ذلك . وبالجملة ما يتعلق بأفعال المكلفين من جهة التكليف . وأما ما خرج عن ذلك من الإخبار عما كان أو ما يكون ، مما لا يتعلق به أمر ولا نهى ولا إذن ، فعلى ضربين :

أحدهما : أن يقع فى السنة موقع التفسير للقرآن . فهذا لا نظر فى أنه بيان له . كما فى قوله تعالى «وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ »[٢] قال: دخلوا يزحفون على أوراكهم» وفى قوله « فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ »[٣] قال : قالوا حبة فى شعرة . وفى قوله « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ...»[٤] الآية . قال[٥] : يدعى نوح فيقال :

---

(١) سنن أبى داود فى : ٢٣ ـ كتاب الأقضية ، ١١ ـ باب اجتهاد الرأى فى القضاء ، حديث ٣٥٩٢ . عن أناس من أهل حمص من أصحاب معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يبعث معاذاً إلى اليمن قال « كيف تقضى إذا عرض لك قضاء ؟ » قال : أقضى بكتاب الله . قال « فإن لم تجد فى كتاب الله ؟ » قال : فبسنة رسول الله ﷺ . قال « فإن لم تجد فى سنة رسول الله ﷺ ، ولا فى كتاب الله ؟ » قال : أجتهد رأيى ولا آلو . فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال «الحمد لله الذى وفق رسولَ رسولِ الله لما يرضى رسول الله».

(٢) [٢ / البقرة / ٥٨] .

(٣) [٢ / البقرة / ٥٩] .

(٤) [٢ / البقرة / ١٤٣] .

(٥) صحيح البخارىّ فى : ٩٦ ـ كتاب الاعتصام ، ١٩ ـ باب قوله تعالى : وكذلك جعلناكم أمة وسطا .

عن أبى سعيد الخدرىّ قال : قال رسول الله ﷺ « يجاء بنوح يوم القيامة فيقال له : هل بلَّغتَ ؟ فيقول: نعم . يارب . فتُسأل أمته: هل بلغكم؟ فيقولون : ماجاءنا من نذير. =

هل بلغت ؟ فيقول : نعم. فيدعى قومه . فيقال : هل بلّغكم؟ فيقولون : ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد . فيقال : من شهودك ؟ فيقول : محمد وأمته . قال فيؤتى بكم تشهدون أنه قد بلّغ ، فذلك قول الله :«وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا » .

وفى قوله « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ »(١) . قال(٢) « إنكم تتبعون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله ».

وفى قوله : « بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ »(٣) إن أرواحهم(٤) فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت، وتأوى إلى قناديل معلقة بالعرش ، إلى آخر الحديث ».

=فيقال: من شهودك؟ فيقول: محمد وأمته. فيجاء بكم فتشهدون». ثم قرأ رسول الله ﷺ : « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا » .

(١) [٣ / آل عمران / ١١٠] .

(٢) مسند الإمام أحمد . جزء خامس . صفحة ٣ . عن بهز عن أبيه عن جده قال : سمعت نبيّ الله صلى الله عليه وسلم يقول « ألا إنكم توفون سبعين أمة ، أنتم خيرها وأكرمها على الله عز وجل » .

(٣) [٣ / آل عمران / ١٦٩] .

(٤) صحيح مسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ١٢١ .

عن مسروق قال : سألنا عبد الله (هو ابن مسعود) عن هذه الآية « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ». قال: أما إنّا قد سألنا عن ذلك فقال « أرواحهم فى جوف طير خضر ، لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت . ثم تأوى إلى تلك القناديل . فاطلع إليهم ربهم اطّلاعةً فقال : هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أيَّ شيء نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات. فلما رأوا أنهم لن يُتركوا من أن يُسألوا قالوا : يا رب ، نريد أن تردَّ أرواحنا فى أجسادنا حتى نقتل فى سبيلك مرة أخرى . فلما رأى أن ليس لهم حاجة ، تُركوا » .

وقال(١) : « ثلاث إذا خرجن لم ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل...الآية : الدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها » .

وفى قوله : « وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِى ءَادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ »(٢) الآية . قال(٣) : « لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة ، وجعل بين عينى كل إنسان منهم وبيصاً من نور ، ثم عرضهم على آدم فقال : أى رب ! من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء ذريتك » الحديث .

وفى قوله : « لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِى إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ »(٤) قال(٥) : « يرحم الله لوطا ، كان يأوى إلى ركن شديد . فما بعث الله من بعده نبيًّا إلا فى ذروة من قومه » .

---

(١) صحيح مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٤٩ . عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث إذا خرجن لاينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا : طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، ودابة الأرض » .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٧٢] .

(٣) جامع الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٧ ـ سورة الأعراف ، ٣ ـ حدثنا عبد بن حميد . عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة . وجعل بين عينى كل إنسان منهم وبيصاً من نور . ثم عرضهم على آدم . فقال : أى رب ، من هؤلاء ؟ قال: هؤلاء ذريتك . فرأى رجلا منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه . فقال : أى رب ، من هذا ؟ قال : هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود . فقال : ربِّ ، كم جعلت عمره ؟ قال : ستين سنة . قال : أى ربِّ ، زده من عمرى أربعين سنة . فلما قضى عمر آدم جاءه ملك الموت فقال: أو لم يبق من عمرى أربعون سنة ؟ قال : أو لم تُعطها ابنك داود ؟ قال : فجحد آدم فجحدت ذريته ، ونسى آدم فنسيت ذريته ، وخطئ آدم فخطئت ذريته » .

(٤) [١١ / هود / ٨٠] .

(٥) جامع الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير، ١٢ ـ سورة يوسف، ١ ـ حدثنا =

وقال(١) : « الحمد لله أمّ القرآن وأمّ الكتاب والسبع المثانى » . وفى رواية(٢) : « ما أنزل الله فى التوراة والإنجيل مثل أمّ القرآن وهى السبع المثانى » .

= الحسين بن حريث الخزاعىّ . عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » قال « ولو لبثت فى السجن مالبث ثم جاءنى الرسول أجبت » . ثم قرأ : فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ . قال « ورحمة الله على لوط ، إن كان ليأوى إلى ركن شديد ، إِذْ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ . فما بعث الله من بعده نبيا إلا فى ذروة من قومه » .

(١) صحيح البخارىّ فى : ٦٦ ـ كتاب فضائل القرآن ، ٩ ـ باب فاتحة الكتاب ، عن أبى سعيد المعلّى قال : كنت أصلّى . فدعانى النبىّ صلى الله عليه وسلم فلم أجبه . قلت : يا رسول الله ، كنت أصلى . قال « ألم يقل الله : استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم » ؟ ثم قال « ألا أعلمّك أعظم سورة من القرآن قبل أن تخرج من المسجد » ؟ فأخذ بيدى . فلما أردنا أن نخرج قلت : يا رسول الله ، إنك قلت « لأعلمنّك سورة من القرآن » قال « الحمد لله رب العالمين هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيتهُ »

(٢) جامع الترمذىّ ، فى : ٤٢ ـ كتاب ثواب القرآن ، ١ ـ باب ما جاء فى فضل فاتحة الكتاب . عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على أُبىّ بن كعب . فقال رسول الله صل الله عليه وسلم « يا أُبىّ » وهو يصلى . فالتفت أُبىّ ولم يجبه . وصلى أُبىّ فخفف ثم انصرف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : السلام عليك يا رسول الله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وعليك السلام . ما منعك ، يا أُبىّ ، أن تجيبنى إذ دعوتك » ؟ فقال : يا رسول الله ، إنى كنت فى الصلاة . قال « فلم تجد فيما أوحى إلىّ أن استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » ؟ قال : بلى . ولا أعود إن شاء الله . قال « تحب أن أعلمك سورة لم ينزل فى التورة ولا فى الإنجيل ولا فى الزبور ولا فى الفرقان مثلها » ؟

=

وسأله اليهود عن قول الله تعالى : « وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ »(١) ففسرها لهم(٢) .

وحديث(٣) موسى مع الخضر ثابت صحيح .

وفى قوله تعالى : « فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ »(٤) . قال(٥) : « لم يكذب إبراهيم فى شىء قط إلا فى ثلاث : قوله إنى سقيم . . . » الحديث .

= قال : نعم ، يا رسول الله . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كيف تقرأ فى الصلاة» ؟ قال: فقرأ أم القرآن . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والذى نفسى بيده ، ما أنزلت فى التورة ولا فى الإنجيل ولا فى الزبور ولا فى الفرقان مثلها ، وإنها سبع من المثانى والقرآن العظيم الذى أعطيته »

(١) [١٧ / الإسراء / ١٠١] .

(٢) جامع الترمذىّ ، فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ١٧ ـ سورة الإسراء ، ١٥ ـ حدثنا محمود بن غيلان ، عن صفوان بن عسال ؛ أن يهوديين ، قال أحدهما لصاحبه : اذهب بنا إلى هذا النبىّ نسأله . فقال : لا تقل نبىّ. فإنه إن سمعها تقول نبىّ كانت له أربعة أعين .فأتيا النبىّ صلى الله عليه وسلم فسألاه عن قول الله عز وجل : ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تشركوا ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق، ولا تسرقوا ، ولا تسحروا ، ولا تمشوا ببرىء إلى سلطان فيقتله ، ولا تأكلوا الربا ، ولا تقذفوا محصنة، ولا تفروا من الزحف . وعليكم، يامعشر اليهود خاصة، لا تعدوا فى السبت »

فقبّلا يديه ورجليه وقالا : نشهد أنك نبىّ قال « فما يمنعكما أن تسلما » ؟ قالا: إن داود دعا الله أن لا يزال فى ذريته نبىّ . وإنا نخاف ، إن أسلمنا ، أن تقتلنا اليهود .

(٣) صحيح البخارىّ : ٦٠ـ كتاب الأنبياء، ٢٧ـ باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام.

(٤) [٣٧ / الصافات / ٨٩] .

(٥) صحيح البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٨ ـ باب قول الله تعالى : وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا. عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات : ثنتين منهن فى ذات الله عز وجل. قوله : إنى سقيم. وقوله : بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا . =

وقال[١] : « إنكم محشورون إلى الله عراة غُرْلا » . ثم قرأ : « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ . . . »[٢] الآية .

وفى قوله : « إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ »[٣] . قال[٤] : « ذلك يوم يقول الله لآدم : ابعث بعث النار . . . » الحديث .

= وقال : بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة . فقيل له : إن ههنا رجلا معه امرأة من أحسن الناس . فأرسل إليه فسأله عنها فقال : من هذه ؟ قال : أختى . فأتى سارة قال : يا سارة ، ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك . وإن هذا سألنى فأخبرته إنك أختى فلا تكذبينى . فأرسل إليها فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأُخذ . فقال : ادعى الله لى ولا أضرك . فدعت الله فأطلق . ثم تناولها الثانية ، فأخذ مثلها أو أشد . فقال : ادعى الله لى ولا أضرك . فدعت الله فأطلق . فدعا بعض حجبته فقال : إنكم لم تأتونى بإنسان ، إنما أتيتمونى بشيطان . فأخدمها هاجر . فأتته وهو قائم يصلى . فأومأ بيده مَهْيا. قالت : رد الله الكافر ــ أوالفاجر ــ فى نحره ، وأخدم هاجر . قال أبو هريرة : تلك أمكم يابنى ماء السماء .

(١) صحيح البخارىّ فى : ٦٠ ــ كتاب الأنبياء ، ٨ ــ باب قول الله تعالى : واتخذ الله إبراهيم خليلًا .

عن ابن عباس رضى الله عنهما ، عن النبىّ ﷺ قال « إنكم محشورون حفاة عراة غرلًا » ثم قرأ : « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ » .

(٢) [٢١ / الأنبياء / ١٠٤] .

(٣) [٢٢ / الحج / ١] .

(٤) جامع الترمذىّ فى : ٤٤ ــ كتاب التفسير ، ٢٢ ــ سورة الحج ، ١ ــ باب حدثنا ابن أبى عمر :

عن عمران بن حصين أن النبىّ ﷺ ، لما نزلت : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ » إلى قوله : « وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ » . قال : أنزلت =

وقال[١] : « إنما سمى البيت العتيق لأنه لم يظهر عليه جبار » . وأمثلة هذا الضرب كثيرة .

والثانى : أن لا يقع موقع التفسير ، ولا فيه معنى تكليف اعتقادىّ أو عملىّ . فلا يلزم أن يكون له أصل فى القرآن . لأنه أمر زائد على مواقع التكليف ، وإنما أنزل القرآن لذلك . فالسنة إذا خرجت عن ذلك فلا حرج . وقد جاء من ذلك نمط صالح فى الصحيح . كحديث[٢] أبرص وأقرع وأعمى ، وحديث[٣] جريج العابد ،

= عليه هذه وهو فى سفر . فقال « أتدرون أى يوم ذلك » ؟ فقالوا : الله ورسوله أعلم . قال «ذلك يوم يقول الله لآدم: ابعث بعث النار . فقال: يارب ، ومابعث النار...؟ الخ الحديث».

(١) جامع الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٢٢ ـ سورة الحج ، ٣ ـ باب حدثنا محمد بن إسماعيل :

عن عبد الله بن الزبير قال : قال رسول الله ﷺ :

(٢) صحيح البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٥١ ـ حديث أبرص وأعمى وأقرع فى بنى إسرائيل .

عن أبى هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « إن ثلاثة فى بنى إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى بدا لله أن يبتليهم . . . الخ » الحديث .

(٣) صحيح البخارىّ فى : ٢١ ـ كتاب العمل فى الصلاة ، ٧ ـ باب إذا دعت الأم ولدها فى الصلاة :

عن أبى هريرة رضى الله عنه؛ قال رسول الله ﷺ « نادت امرأة ابنها ، وهو فى صومعة، قالت : يا جريج . قال : اللهم ، أمى وصلاتى . قالت : يا جريج . قال : اللهم أمى وصلاتى . قالت : يا جريج . قال : اللهم ، أمى وصلاتى . قالت : اللهم لايموت جريج حتى ينظر فى وجه المياميس. وكانت تأوى إلى صومعته راعية ترعى الغنم . فولدت . فقيل لها : ممن هذا الولد ؟ قالت : من جريج . نزل من صومعته . قال جريج : أين هذه التى تزعم أن ولدها لى ؟ قال : يا بابوس ، من أبوك ؟ قال : راعى الغنم .

ووفاة موسى[١] . وجُمل من قصص الأنبياء، عليهم السلام ، والأمم قبلنا ، مما لا ينبنى عليه عمل . ولكن فى ذلك من الاعتبار نحو مما فى القصص القرآنىّ . وهو نمط ربما رجع إلى الترغيب والترهيب . فهو خادم للأمر والنهى ، ومعدود فى المكملات لضرورة التشريع . فلم يخرج بالكلية عن القسم الأول . والله أعلم .

---

(١) صحيح البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٣١ ـ باب وفاة موسى :
عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : أرسل ملَك الموت إلى موسى عليهما السلام . فلما جاءه صكه . . . الخ الحديث .

١١ — قاعـــدة

فى أنه : هل فى القرآن مجاز أم لا ؟

قال شيخ الإسلام تقىّ الدين بن تيمية فى كتاب « الإيمان » :

فإن قيل : ما ذكر من تنوّع دلالة اللفظ بالإطلاق والتقييد فى كلام الله ورسوله وكلام كلّ أحد ، بيّن ظاهر لا يمكن دفعه . لكن نقول : دلالة لفظ الإيمان على الأعمال مجاز ، فقوله ﷺ : « الإيمان بضع وستون ـ أو بضع وسبعون ـ شعبة . أعلاها قول : لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق » مجاز . وقوله « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته ورسله ... إلى آخره » حقيقة . وهذا عمدة المرجئة ، والجهمية ، والكرامية ، وكلّ من لم يُدخل الأعمال فى اسم الإيمان . ونحن نجيب بجوابين : أحدهما كلام عامّ فى لفظ الحقيقة والمجاز ، والثانى ما يختص بهذا الموضع . فبتقدير أن يكون أحدهما مجازاً ، ما هو الحقيقة من ذلك من المجاز ؟ هل الحقيقة هو المطلق أو المقيّد ؟ أو كلاهما حقيقة ؟ حتى يعرف أنّ لفظ الإيمان إذا أطلق ، على ماذا يحمل ؟ فيقال أولاً : تقسيم الألفاظ الدالة على معانيها إلى حقيقة ومجاز ، أو تقسيم دلالاتها ، أو المعانى المدلول عليها ، إن استعمل لفظ الحقيقة والمجاز فى المدلول أو فى الدالة ، فإنّ هذا كلّه قد يقع فى كلام المتأخرين . ولكنّ المشهور أنّ الحقيقة والمجاز من عوارض الألفاظ . وبكلّ حال ، فهذا التقسيم هو اصطلاح حادث بعد انقضاء القرون الثلاثة . لم يتكلم به أحد من الصحابة ، ولا التابعين لهم بإحسان ، ولا أحد من الأئمة المشهورين فى العلم : كمالك ، والثورىّ ، والأوزاعىّ ، وأبى حنيفة والشافعىّ ، بل ولا تكلم به أئمة اللغة والنحو : كالخليل ، وسيبويه ، وأبى عمرو بن العلاء ... ونحوهم .

وأول من عُرِف أنه تكلم بلفظ المجاز ، أبو عبيدة معمر بن المثنّى فى كتابه . ولكن لم يَعْنِ بالمجاز ما هو قسيم الحقيقة ، وإنما عنى ، بمجاز الآية ، بما يعبّر به عن الآية . ولهذا ، قال : من قال من الأصوليين كأبى الحسين البصرىّ وأمثاله : إنه يعرف الحقيقة من المجاز بطرق : منها نص أهل اللغة على ذلك ، بأن يقولوا : هذا حقيقة وهذا مجاز ـ فقد تكلم

بلا علم . فإنه ظنّ أنّ أهل اللغة قالوا هذا . ولم يقل ذلك أحد من أهل اللغة ولا من سلف الأمة وعلمائها . وإنما هذا اصطلاح حادث ، والغالب أنّه كان من جهة المعتزلة ونحوهم من المتكلمين . فإنه لم يوجد هذا فى كلام أحد من أهل الفقه والأصول والتفسير والحديث ونحوهم من السلف . وهذا الشافعىّ هو أول من جرّد الكلام فى أصول الفقه ، ولم يقسم هذا التقسيم ، ولا تكلم بلفظ الحقيقة والمجاز . وكذلك محمد بن الحسن له فى المسائل المبنيّة على العربية كلام معروف فى الجامع الكبير وغيره ، ولم يتكلم بلفظ الحقيقة والمجاز . وكذلك سائر الأئمة لم يوجد لفظ المجاز فى كلام أحدٍ منهم إلاّ فى كلام أحمد بن حنبل ، فإنه قال فى كتاب « الردّ على الجهمية » فى قوله : إنّا ، ونحن ، ونحو ذلك فى القرآن : هذا من مجاز اللغة . يقول الرجل : إنا سنعطيك ، إنا سنفعل ، فذكر أن هذا من مجاز اللغة . وبهذا احتج على مذهبه من أصحابه مَن قال : إن فى القرآن مجازا : كالقاضى أبى يعلى ، وابن عقيل ، وأبى الخطاب ، وغيرهم . وآخرون من أصحابه منعوا أن يكون فى القرآن مجاز : كأبى الحسن الجزرىّ ، وأبى عبد الله بن حامد ، وأبى الفضل التميمىّ بن أبى الحسن التميمىّ . وكذلك منع أن يكون فى القرآن مجاز ، محمد بن جرير منداد ، وغيره من المالكية ؛ ومنع منه داود ابن علىّ ، وابنه أبو بكر ، ومنذر بن سعيد البلّوطى وصنف فيه مصنفا . وحكى بعض الناس عن أحمد — فى ذلك — روايتين . وأمّا سائر الأئمة فلم يقل أحد منهم ، ولا من قدماء أصحاب أحمد : إنّ فى القرآن مجازاً — لا مالك ولا الشافعىّ ولا أبو حنيفة . فإن تقسيم الألفاظ إلى حقيقة ومجاز إنما اشتهر فى المائة الرابعة وظهرت أوائله فى المائة الثالثة ، وما علمته موجودا فى المائة الثانية . اللهم إلا أن يكون فى أواخرها . والذين أنكروا أن يكون أحمد أو غيره نطقوا بهذا التقسيم قالوا : إن معنى قول أحمد « من مجاز اللغة » أى : مما يجوز فى اللغة ، أى يجوز فى اللغة أن يقول الواحد العظيم الذى له أعوان : نحن فعلنا كذا أو نفعل كذا ونحو ذلك . قالوا : ولم يرد أحمد بذلك أنّ اللفظ استعمل فى غير ما وضع له . وقد أنكر طائفة أن يكون فى اللغة مجاز ، لا فى القرآن ولا غيره . كأبى إسحاق الأسفرائنىّ . وقال المنازعون له : النزاع معه لفظىّ ، فإنه إذا سلم أن فى اللغة لفظاً مستعملًا فى غير ما وضع له

لايدل على معناه إلّا بقى منه . فهذا هو المجاز ، وإن لم تسمه مجازاً . فيقول من ينصره : إن الذين قسموا اللفظ إلى حقيقة ومجاز ، قالوا : الحقيقة هو اللفظ المستعمل فى ما وضع له ، والمجاز هو اللفظ المستعمل فى غير ما وضع له ـ كلفظ الأسد والحمار ، إذا أريد بهما البهيمة ، أو أريد بهما الشجاع والبليد ـ وهذا التقسيم والتحديد يستلزم أن يكون اللفظ قد وضع أولّا لمعنى ، ثم بعد ذلك قد يستعمل فى موضوعه ، وقد يستعمل فى غير موضوعه . ولهذا كان المشهور عند أهل التقسيم ، أن كلّ مجاز فلابدّ له من حقيقة ، وليس لكلّ حقيقة مجاز . فاعترض عليهم بعض متأخريهم ، وقال : اللفظ الموضوع قبلُ للاستعمال لا حقيقة ولا مجاز . فإذا استعمل فى غير موضوعه فهو مجاز لا حقيقة له . وهذا كله إنما يصح أنْ لو علم أن الألفاظ العربية وضعت أولّا لمعان ، ثم بعد ذلك استعملت فيها ، فيكون لها وضع متقدم على الاستعمال . وهذا إنما صح على قول من يجعل اللغات اصطلاحية ، فيدّعى أن قوماً من العقلاء اجتمعوا واصطلحوا على أن يسموا هذا بكذا ، وهكذا بكذا ، ويجعل هذا عاماً فى جميع اللغات . وهذا القول لا نعرف أحداً من المسلمين قاله قبل أبى هاشم بن الجبائىّ . فإنه وأبا الحسن الأشعرىّ ، كلاهما قرأ على أبى على الجبائىّ . لكن الأشعرىّ رجع عن مذهب المعتزلة ، وخالفهم فى القدر والوعيد ، وفى الأسماء والأحكام ، وفى صفات الله تعالى . وبيّن من تناقضهم وفساد قولهم ما هو معروف عنه . فتنازع الأشعرىّ وأبو هاشم . وقال الأشعرىّ : هى توقيفية . ثم خاض الناس بعدهما فى هذه المسألة ، فقال آخرون : بعضها توقيفىّ ، وبعضها اصطلاحىّ . وقال فريق رابع : بالوقف .

« والمقصود هنا : أنه لا يمكن أحداً أن ينقل عن العرب ، بل ولا عن أمة من الأمم أنه اجتمع جماعة فوضعوا جميع هذه الأسماء الموجودة فى اللغة ثم استعملوها بعد الوضع . وإنما المعروف المنقول بالتواتر استعمال هذه الألفاظ فيما عَنَوْه بها من المعانى . فإن ادعى مدّع أنه يعلم وضعاً يتقدم ذلك فهو مبطل ، فإن هذا لم ينقله أحد من الناس . ولا يقال نحن نعلم ذلك بالدليل ، فإنه ـ إن لم يكن اصطلاح متقدم ـ لم يمكن الاستعمال . قيل : ليس الأمر كذلك ، بل نحن نجد أن الله يلهم الحيوان من الأصوات ما به يعرف بعضُها مرادَ بعض ؛

وقد سمى ذلك منطقاً وقولًا فى قـول سليمان : « عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّـيْرِ »(١) ، وفى قوله : « قَالَتْ نَمْلَةٌ : يَـٰأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَـٰكِنَكُمْ »(٢) ، وفى قوله : « يَا جِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُ وَالطَّـيْرَ »(٣) . وكذلك الآدميون ، فالمولود إذا ظهر منه التميز سمع أبويه ، أو من يربيه ، ينطق باللفظ ، ويشير إلى المعنى ، فصار يفهم أن ذلك اللفظ يستعمل فى ذلك المعنى ـ أى أراد المتكلم به ذلك المعنى ـ ثم هذا يسمع لفظاً بعد لفظ حتى يعرف لغة القوم الذين نشأ بينهم من غير أن يكونوا قد اصطلحوا معه على وضع متقدم . بل ولا فقهوه على معانى الأسماء . وإن كان أحياناً قد يسأل عن مسمى بعض الأشياء فيوقف عليها . كما يترجم للرجل اللغـة التى لا يعرفها فيوقف على معانى ألفاظها ، وإن باشر أهلها مدة ، علم ذلك بلا توقيف من أحد. نعم ، قد يضع الناس الاسم لما يحدث ، مما لم يكن مَن قبلهم يعرفه فيسميه ، كما يولد لأحدهم فيسميه اسماً إما منقولًا أو مرتجلًا . وقد يكون المسمِّى واحداً لم يصطلح مع غيره . وقد يستوون فيما يسمونه . وكذلك قد يُحدِث الرجل آلةً من صناعة ، أو يصنّف كتاباً ، أو يبنى مدينة . ونحو ذلك فيسميه باسم ، لأنه ليس من الأجناس المعروفة حتى يكون له اسم فى اللغة العامة . وقد قال تعالى: « الرَّحْمَـٰنُ * عَلَّمَ الْقُرْءَانَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ »(٤) ، « وَقَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَىْءٍ »(٥) ، وقال : « الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَالَّذِى

---

(١) [٢٧ / النمل / ١٦] ونصها : وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ، وَقَالَ يَاأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّـيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَىْءٍ ، إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ .

(٢) [٢٧ / النمل / ١٨] ونصها : حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ .

(٣) [٣٤ / سبأ / ١٠] ونصها : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا ، يَا جِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُ وَالطَّـيْرَ ، وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ .

(٤) [٥٥ / الرحمن / ١ ـ ٤] .

(٥) [٤١ / فصلت / ٢١] ونصها : وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ، قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

قَدَّرَ فَهَدَىٰ »[1] وهو سبحانه يلهم الإنسان المنطق كما يلهم غيره . وهو، سبحانه ، إذا كان قد علَّم آدم الأسماء كلها ، وعرض المسميات على الملائكة ـ كما أخبر بذلك فى كتابه ـ . فنحن نعلم أنه لم يعلِّم آدم جميع اللغات التى يتكلم بها جميع الناس إلى يوم القيامة ، وأن تلك اللغات اتصلت إلى أولاده فلا يتكلَّمون إلا بها . . . فإن دعوى هذا كذب ظاهر . . ! فإن آدم ، عليه السلام ، إنما ينقل عنه بنوه . وقد أغرق الله ، عامَ الطوفان ، جميع ذريته إلا مَن فى السفينة . وأهل السفينة انقطعت ذريتهم إلا أولاد نوح . ولم يكونوا يتكلَّمون بجميع ماتكلمت به الأمم بعدهم. فإن اللغة الواحدة : كالفارسية ، والعربية ، والرومية ، والتركية .. فيها من الاختلاف والأنواع ما لا يحصيه إلا الله . والعرب أنفسهم ، لكلّ قومٍ لغات لايفهمها غيرهم . فكيف يتصور أن ينقل هذا جميعه عن أولئك الذين كانوا فى السفينة ؟ وأولئك جميعهم لم يكن لهم نسل، وإنما النسل لنوح ، وجميع الناس من أولاده ، وهم ثلاثة : سام وحام ويافث . كما قال تعالى: «وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ»[2] فلم يجعل باقياً إلا ذريته. وكما روى ذلك عن النبيّ ﷺ : « إن أولاده ثلاثة » رواه أحمد وغيره . ومعلوم أن الثلاثة لايمكن أن ينطقوا بهذا كله ، ويمتنع نقل ذلك عنهم! فإن الذين يعرفون هذه اللغة لايعرفون هذه . وإذا كان الناقل ثلاثة منهم قد علَّموا أولادهم ، وأولادهم قد علَّموا أولادهم ، ولو كان كذلك لاتصلت . ونحن نجد بنى الأب الواحد يتكلم كل قبيلة منهم بلغة لاتعرفها الأخرى. والأب الواحد لايقال إنه علم أحد ابنيه لغة ، وابنه الآخر لغة ، فإن الأب قد لا يكون له إلا ابنان ، واللغات فى أولاده أضعاف ذلك . والذى أجرى الله عليه عادة بنى آدم ، أنهم إنما يعلمون أولادهم لغتهم التى يخاطبونهم بها ، أو يخاطبهم بها غيرهم . فأما لغاتٌ لم يخلق الله من يتكلم بها فلا يعلِّمونها أولادهم ، وأيضاً فإنه يوجد بنو آدم يتكلمون بألفاظ ما سمعوها قط من غيرهم .

والعلماء من المفسرين وغيرهم لهم فى الأسماء التى علمها آدم قولان معروفان عن السلف :

---

(١) [٨٧ / الأعلى / ٢ و ٣] .

(٢) [٣٧ / الصافات / ٧٧] .

أحدهما : أنه إنما علمه أسماء من يعقل ، واحتجُّوا بقوله : « ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ »(١) قالوا : وهذا الضمير لا يكون إلا لمن يعقل . وما لا يعقل يقال فيها : علمها. ولهذا قال أبو العالية : « علّمه أسماء الملائكة لأنه لم يكن حينئذٍ من يعقل إلا الملائكة ، ولم يكن له ذرية ، ولا كان إبليس قد انفصل عن الملائكة ولا كان له ذرية » . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : « علّمه أسماء ذريته » . وهذا يناسب الحديث الذى رواه الترمذىّ وصححه عن النبىّ ﷺ(٢) : « أن آدم سأل ربه أن يريه صور الأنبياء من ذريته ، فرآهم ، فرأى فيهم من يبص ، فقال : يا ربّ ! مَنْ هذا ؟ قال : ابنك داود » . فيكون قد أراه صور ذريته ، أو بعضهم ، أو أسماءهم . وهذه أسماء أعلام لا أجناس .

الثانى : أنّ الله علمه أسماء كلّ شىء . وهذا قول الأكثرين كابن عباس وأصحابه . قال ابن عباس : « علمه حتى الفسْوة والفُسَيَّة والقصعة والقُصَيْعة » أراد أسماء الأعراض والأعيان مكبَّرها ومصغَّرها . والدليل على ذلك ، ما ثبت فى الصحيحين عن النبىّ ﷺ أنه قال فى حديث الشفاعة(٣) :

« إن الناس يقولون : يا آدم ! أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وعلمك أسماء كل شىء » . وأيضاً قوله : « الأَسْمَاءَ كُلَّهَا » . لفظ عام مؤكد ، فلا يجوز تخصيصه بالدعوى .

وقوله : « ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ » لأنه اجتمع من يعقل ومن لا يعقل ، فغلب من يعقل . كما قال: « فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ

(١) [٢ / البقرة / ٣١] ونصها : وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

(٢) جامع الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٧ ـ سورة الأعراف ، ٣ ـ حدثنا عبيد بن حميد . انظر ص ٢١٦ حاشية رقم ٣ .

(٣) صحيح البخارىّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٣٧ ـ باب قوله وكلم الله موسى تكليما، عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «يجتمع المؤمنون يوم القيامة...» الخ.

مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ »[1]. قال عكرمة : « علّمه أسماء الأجناس دون أنواعها ، كقولك: إنسان ، وجن ، وملك ، وطائر » . وقال مقاتل بن السائب ، وابن قتيبة : « علّمه أسماء ما خلق فى الأرض من : الدواب ، والهوامّ ، والطير » .

ومما يدل على أن هذه اللغات ليست متلقّاة عن آدم ، أن أكثر اللغات ناقصة عن اللغة العربية . ليس عندهم أسماء خاصة للأولاد والبيوت والأصوات وغير ذلك مما يضاف إلى الحيوان. بل إنما يستعملون فى ذلك الإضافة . فلو كان آدم عليه السلام علمه الجميع لعلمها متناسبة . وأيضاً ، فكل أمة ، ليس لها كتاب ، ليس فى لغتها أيام الأسبوع ؛ إنما يوجد فى لغتها اسم اليوم والشهر والسنة ، لأن ذلك عرف بالحس والعقل ، فوضعت له الأمم الأسماء ، لأن التعبير يتبع التصوُّر . وأما الأسبوع فلم يعرف إلا بالسمع ، لم يعرف ـ أن الله تعالى خلق السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ـ إلا بأخبار الأنبياء الذين شرع لهم أن يجتمعوا فى الأسبوع يوماً يعبدون الله فيه ، ويحفظون به الأسبوع الذى بدأ الله فيه خلق هذا العالم . ففى لغة العرب والعبرانيين ومن تلقى عنهم أيام الأسبوع ، بخلاف الترك ونحوهم ، فإنه ليس فى لغتهم أيام الأسبوع لأنهم لم يعرفوا ذلك فلم يعبّروا عنه .

فعلم أن الله تعالى ألهم النوع الإنسانىّ أن يعبّر عما يريده ويتصوَّره بلفظه . وأن أول من علم ذلك أبوهم آدم ، وهم علموا كما علّم ، وإن اختلفت اللغات . وقد أوحى الله إلى موسى بالعبرانية ، وإلى محمد بالعربية ، والجميع كلام الله . وقد بيّن الله من ذلك ما أراد من خلقه وأمره ، وإن كانت هذه اللغة ليست الأخرى . مع أن العبرانية من أقرب اللغات إلى العربية ، حتى إنها أقرب إليها من لغة بعض العجم إلى بعض .

فبالجملة : نحن ليس غرضنا إقامة الدليل على عدم ذلك ، بل يكفينا أن يقال : هذا غير معلوم وجوده ؛ بل الإلهام كافٍ فى النطق باللغات من غير مواضعة متقدمة . وإذا سُمّى هذا

---

(١) [٢٤ / النور / ٤٥] ونصها: وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ، يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَاءُ ؛ إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

توقيفاً ، فليسمّى توقيفاً ؛ وحينئذٍ فمن ادعى وضعاً متقدماً على استعمال جميع الأجناس ، فقد قال ما لا علم به . وإنما المعلوم بلا ريب هو الاستعمال .

ثم هؤلاء يقولون : تتميّز الحقيقة من المجاز بالاكتفاء باللفظ ، فإذا دل اللفظ بمجرّده فهو حقيقة ؛ وإذا لم يدل إلا مع القرينة فهو مجاز . وهذا أمر متعلق باستعمال اللفظ فى المعنى، لا بوضع متقدم .

ثم يقال ثانياً : هذا التقسيم لا حقيقة له ، وليس لمن فرّق بينهما حدّ صحيح يميز به بين هذا وهذا . فعلم أن هذا التقسيم باطل، وهو تقسيم مَنْ لم يتصور مايقول ، بل يتكلم بلا علم، فهُم مبتدعة فى الشرع ، مخالفون للعقل . وذلك أنهم قالوا: الحقيقة اللفظ المستعمل فيما وضع له ، والمجاز هو المستعمل فى غير ما وضع له ؛ احتاجوا إلى إثبات الوضع السابق على الاستعمال . وهذا يتعذّر . ثم هم يقسمون الحقيقة إلى : لغوية وعرفية ، وأكثرهم يقسمها إلى ثلاث : لغوية وشرعية وعرفية . فالحقيقة العرفية هى ماصار اللفظ فيها دالا على المعنى بالعرف لا باللغة. وذلك المعنى يكون تارةً أعمّ من اللغوىّ ، وتارةً أخصّ ، وتارةً لا يكون مبايناً له ؛ لكن بينهما علاقة استعمل لأجلها . (فالأول) مثل لفظ : الرقبة والرأس ونحوهما . كان يستعمل فى العضو المخصوص ، ثم صار يستعمل فى جميع البدن . و (الثانى) مثل : الدابة ونحوها . كان يستعمل فى كل ما دبّ ، ثم صار يستعمل ، فى عرف بعض الناس ، فى ذوات الأربع . وفى عرف بعض الناس ، فى الفرس . وفى عرف بعضهم ، فى الحمار . و (الثالث) مثل لفظ : الغائط ، والظعينة ، والراوية ، والمزادة . فإن الغائط — فى اللغة — هو المكان المنخفض من الأرض . فلما كانوا ينتابونه لقضاء حوائجهم ، سمّوْا ما يخرج من الإنسان باسم محلّه . والظعينة اسم للدابة ، ثم سموا المرأة التى تركبها باسمها ؛ ونظائر ذلك . والمقصود : أن هذه الحقيقة العرفية لم تَصِرْ حقيقة لجماعةٍ تواطؤوا على نقلها ، ولكن تكلم بها بعض الناس وأراد بها ذلك المعنى العرفىّ . ثم شاع الاستعمال فصارت حقيقة عرفية بهذا الاستعمال . ولهذا زاد ، من زاد منهم ، فى حد الحقيقة : فى اللغة التى بها التخاطب . ثم هم يعلمون ويقولون : إنه قد يغلب الاستعمال على بعض الألفاظ ، فيصير المعنى أشهر فيه ؛ ولا يدل عند الإطلاق

إلا عليه ، فتصير الحقيقة العرفية ناسخة للحقيقة اللغوية . واللفظ مستعمل فى هذا الاستعمال الحادث العرفىّ ، وهو حقيقة من غير أن يكون لما استعمل فيه ذلك تقدم وضع . فعلم أن تفسير الحقيقة بهذا لا يصح ، وإن قالوا : يعنى ، بما وضع له ، ما استعملت فيه أولا . فيقال : من أين يعلم أن هذه الألفاظ التى كانت العرب تتخاطب بها عند نزول القرآن وقبله ، لم تستعمل قبل ذلك فى معنى شىء آخر ؟ وإذا لم يعلموا هذا النفى ، فلا تعلم أنها حقيقة ؛ وهذا خلاف ما اتفقوا عليه . وأيضاً فيلزم من هذا أن لا يقطع بشىء من الألفاظ أنه حقيقة ، وهذا لا يقوله عاقل . ثم هؤلاء الذين يقولون هذا نجد أحدهم يأتى إلى ألفاظ لم يعلم أنها استعملت إلّا مقيّدة ، فينطق بها مجردة عن جميع القيود ، ثمّ يدعى أنّ ذلك هو حقيقتها من غير أن يعلم أنها نطق بها مجرّدة ، ولا وضعت مجرّدة . مثل أن يكون حقيقة العين هو العضو المبصر ، ثم سميت به عين الشمس ، والعين النابعة ، والعين الذهب ، للمشابهة . لكنّ أكثرهم يقولون : إنّ هذا من باب المشترك ، لا من باب الحقيقة والمجاز ؛ فيمثل بغيره مثل لفظ الرأس . يقولون : هو حقيقة فى رأس الإنسان . ثم قالوا : رأس الدرب ـ لأوّله ـ ، ورأس العين ـ لمنبعها ـ ، ورأس القوم ـ لسيدهم ـ ، ورأس الأمر ـ لأوله ـ ، ورأس الشهر ، ورأس الحول ... وأمثال ذلك على طريق المجاز . وهم لا يجدون قط أنّ لفظ الرأس استعمل مجرداً ؛ بل يجدون أنه استعمل بالقيود فى رأس الإنسان ، كقوله تعالى : « وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ »[1] ونحوه . وهذا القيد يمنع أن يدخل فيه تلك المعانى . فإذا قيل : رأس العين ، ورأس الدرب ، ورأس الناس ، ورأس الأمر ... ، فهذا القيد غير ذاك القيد ، ومجموع اللفظ الدال هنا غير مجموع اللفظ الدال هناك ، لكن اشتركا فى بعض اللفظ كاشتراك كل الأسماء المعرّفة فى لام التعريف . ولو قدر أن الناطق باللغة نطق بلفظ رأس الإنسان أولاً ، لأن الإنسان يتصور رأسه قبل غيره ؛ والتعبير أولاً هو عما يتصوره أولاً . فالنطق بهذا المضاف أولاً لا يمنع أن ينطق بمضاف إلى غيره ثانياً ، ولا يكون هذا من المجاز كما فى سائر المضافات . فإذا قيل :

(١) [٥ / المائدة / ٦] .

ابن آدم ، أولا ، لم يكن قولنا ، ابن الفرس وابن الحمار ، مجازا . وكذلك إذا قيل : بنت الإنسان ، لم يكن قولنا بنت الفرس ـ مجازاً . وكذلك إذا قيل : رأس الإنسان أولا ، لم يكن قولنا رأس الفرس ـ مجازاً . وكذلك فى سائر المضافات ، إذا قيل : يده أو رجله . فإذا قيل : هو حقيقة فيما أضيف إلى الحيوان . قيل: ليس جعل هذا هو الحقيقة بأولى من أن يجعل ما أضيف إلى رأس الإنسان ، ثم يضاف إلى ما يتصوره أكثر الناس من الحيوانات الصغار التى لم يخطر ببال عامة الناطقين باللغة . فإذا قيل : إنه حقيقة فى هذا ، فلماذا لا يكون حقيقة فى رأس الجبل ، والطريق ، والعين ؟ وكذلك سائر ما يضاف إلى الإنسان من أعضائه وأولاده ومساكنه ، يضاف مثله إلى غيره ؟ ويضاف ذلك إلى الجمادات ، فيقال : رأس الجبل ، ورأس العين ، وخطم الجبل ـ أى أنفه ـ وفم الوادى ، وبطن الوادى ، وظهر الجبل ، وبطن الأرض وظهرها ؛ ويستعمل مع الأنف ، وهو لفظ الظاهر والباطن فى أمور كثيرة .

والمعنى فى الجميع : أنّ الظاهر لما ظهر فَتَبَيَّنَ ، والباطن لما بطن فخفى . وسمى ظَهْرُ الإنسان ظهراً لظهوره ، وبَطْن الإنسان بطناً لبطونه . فإذا قيل : إن هذه حقيقة ، وذاك مجاز ، لم يكن هذا أولى من العكس . وأيضاً من الأسماء ما تكلم به أهل اللغة مفرداً ، كلفظ الإنسان ونحوه . ثم قد يستعمل مقيداً بالإضافة ـ كقولهم : إنسان العين ، وإبرة الذراع ، ونحو ذلك ـ وبتقدير أن يكون فى اللغة حقيقة ومجاز ، فقد ادعى بعضهم أن هذا من المجاز ، وهو غلط ، فإن المجاز هو اللفظ المستعمل فى غير ما وضع له أولاً ؛ وهذا لم يستعمل اللفظ بل ركب مع لفظ آخر ، فصار وضعاً آخر بالإضافة . فلو استعمل مضافاً فى معنى ، ثم استعمل بتلك الإضافة فى غيره ، كان مجازاً . بل إذا كان (بعلبك وحضرموت ونحوهما) مما يركب تركيب مزج ـ بعد أن كان الأصل فيه الإضافة ـ لا يقال : إنه مجاز، فما لم ينطق به إلّا مضافاً أولى أن لا يكون مجازاً . وأمّا من فرّق بين الحقيقة والمجاز ، بأن الحقيقة : ما يفيد المعنى مجرداً عن القرائن ، والمجاز : مالا يفيد ذلك المعنى إلا مع قرينة . أو قال : الحقيقة ما يفيده اللفظ المطلق ، والمجاز مالا يفيد إلا مع التقييد . أو قال : الحقيقة هو المعنى الذى يسبق إلى الذهن عند الإطلاق ، والمجاز مالا يسبق إلى الذهن . أو يقال :

المجـاز ما صح نفيـــه ، والحقيقة ما لم يصح نفيها . فإنه يقال : ما تعنى بالتجريد عن القرائن ، والاقتران بالقرائن ؟ إن عنى بذلك : القرائن اللفظية ، مثل كون الاسم يستعمل مقروناً بالإضافة ، أو لام التعريف ، ويقيد بكونه فاعلًا ومفعولًا ومبتدأً وخبراً ؛ فلا يوجد قط فى الـكلام المؤلف اسم إلا مقيداً . وكذلك الفعل، إن عنى بتقييده أنه لا بد له من فاعل . وقد يقيد بالمفعول به ، وظرفى الزمان والمـكان، والمفعول له ومعه ، والحال؛ فالفعل لا يستعمل قط إلا مقيدا . وأما الحرف فأبلغ ، فإن الحرف أتى به لمعنًى فى غيره . ففى الجملة لا يوجد قط ـ فى كلام تام ـ اسم ولا فعل ولا حرف إلا مقيدا بقيود تزيل عنه الإطلاق. فإن كانت القرينة ما يمنع الإطلاق عن كل قيد ، فليس فى الـكلام الذى يتكلم به جميع الناس لفظ مطلق عن كل قيد ، سواء كانت الجملة اسمية أو فعلية . فلهذا كان لفظ الـكلام والـكلمة فى لغة العرب ـ بل وفى لغـة غيرهم ـ لا تستعمل إلا فى المقيد وهو الجملة التامة ـ اسميّةً كانت أو فعلية أو ندائية ـ إن قيل إنها قسم ثالث . فأما مجرّد الاسم والفعل أو الحرف الذى جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل ، فهذا لا يسمى فى كلام العرب قط كلمة ؛ وإنما تسمية هذا (كلمة) اصطلاح نحوىّ ـ كما سمّوا بعض الألفاظ (فعلًا) وقسّموه إلى فعل ماضٍ ومضارعٍ وأمر ـ والعرب لم تسمّ قط اللفظ فعلًا ، بل النحاة اصطلحوا على هـذا فسمّوا اللفظ باسم مدلوله : فاللفظ الدال على حدوث فعلٍ فى زمنٍ ماضٍ سمّوه فعلا ماضياً . . . وكذلك سائرها . وكذلك حيث وجد فى الـكتاب والسنة ، بل وفى كلام العرب ـ نظمه ونثره ـ لفظ كلمة ، فإنما يراد به المفيد التى تسمّيها النحاة جملةً تامة، لقوله تعالى: « وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۝ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ، كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ، إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا »(1)، وقوله تعالى : « وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ، وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا »(2) ، وقوله تعـالى : « تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ »(3) ، وقوله :

---

(1) [١٨ / الـكهف / ٤ و ٥] .
(2) [٩ / التوبة / ٤٠] .
(3) [٣ / آل عمران / ٦٤] .

« وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ »[١] ، وقوله : « وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا »[٢] . وقول النبىّ ﷺ[٣] : « أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد : ألا كلّ شىء ماخلا الله باطل » ، وقوله[٤] : « كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » ، وقوله[٥] : « إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظنّ أن تبلغ به ما بلغت فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه . وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظنّ أن تبلغ به ما بلغت فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه » ، وقوله[٦] : « لقد قلت بعدكِ أربع كلمات لو وزنت بما قلتِهِ منذ اليوم لوزنْتهن : سبحان الله وبحمده عدد خلقه ، ورضا نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته » .

---

(١) [٤٣ / الزخرف / ٢٨] .

(٢) [٤٨ / الفتح / ٢٦] .

(٣) صحيح البخارىّ فى : ٦٣ ـ كتاب مناقب الأنصار ، ٢٦ ـ باب أيام الجاهلية ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال النبىّ ﷺ .

(٤) صحيح البخارىّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٥٨ ـ باب قول الله تعالى: ونضع الموازين القسط ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال النبىّ ﷺ .

(٥) جامع الترمذىّ فى : ٣٤ ـ كتاب الزهد ، ١٢ ـ باب فى قلة الكلام ، عن بلال ابن الحارث المزنىّ ، صاحب رسول الله ﷺ يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن أحدكم . . .

(٦) صحيح مسلم فى : ٤٨ ـ كتاب الذكر ، حديث ٧٩ ، عن جويرية أن النبىّ ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح ، وهى فى مسجدها . ثم رجع بعد أن أضحى ، وهى جالسة . فقال « ما زلتِ على الحال التى فارقتك عليها » ؟ قالت : نعم . قال النبىّ ﷺ « لقد قلت بعدكِ أربع كلمات ، ثلاث مرات . لو وُزِنَتْ بما قلتِ منذ اليومِ لوزنتهن : سبحان الله وبحمده ، عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته » .

وإذا كان كل اسم وفعل وحرف يوجد فى الكلام فإنه مقيّد لا مطلق لم يجز أن يقال : اللفظ الحقيقة ما دلّ مع الإطلاق والتجرّد عن كل قرينة تقارنه .

فإن قيل : أريد بعض القرائن دون بعض . قيل له : اذكر الفصل بين القرينة التى يكون معها حقيقة ، والقرينة التى يكون معها مجاز ، ولن تجد إلى ذلك سبيلاً تقديره على تقسيم صحيح معقول . ومما يدلّ على ذلك : أن الناس اختلفوا فى العام إذا خصّ هل يكون استعماله فيما بقى حقيقة أو مجازاً ؟ وكذلك لفظ الأمر إذا أريد به الندب هل يكون حقيقة أو مجازاً ؟ وفى ذلك قولان لأكثر الطوائف : لأصحاب أحمد قولان ، ولأصحاب الشافعىّ قولان ، ولأصحاب مالك قولان . ومن الناس من ظنّ أنّ هذا الخلاف يطرد فى التخصيص المتصل ــ كالصفة والشرط والغاية والبدل ــ وجعل يحكى فى ذلك أقوال من يفصل ، كما يوجد فى كلام طائفة من المصنّفين فى أصول الفقه ؛ وهذا مما لم يعرف أن أحداً قاله ، فجعل اللفظ العام المقيد فى الصفات والغايات والشروط مجازاً . بل لما أطلق بعض المصنفين أن اللفظ العام إذا خصّ يصير مجازاً ، ظنّ هذا الناقل أنه عنى التخصيص المتصل ، وأولئك لم يكن فى اصطلاحهم عام مخصوص إلّا إذا خصّ بمنفصل ؛ وأما المتّصل فلا يسمّون اللفظ عاماً مخصوصاً ، فإنه لم يدلّ إلّا متصلاً ، والاتصال منعه العموم . وهذا اصطلاح كثيرٍ من الأصوليين، وهو الصواب . لا يقال لما قيد بالشرط والصفة ونحوهما : أنه داخل فيما خصّ من العموم ، ولا فى العام المخصوص ، لكن يقيد ، فيقال : تخصيص متصل ، وهذا المقيّد لا يدخل فى التخصيص المطلق .

وبالجملة فيقال : إذا كان هذا مجازاً فيكون تقييد الفعل المطلق بالمفعول به ، وبظرف الزمان والمكان ــ مجازاً . وكذلك بالحال ، وكذلك كلّ ما قُيّدَ بقيد ، فيلزم أن يكون الكلام كلّه مجازاً ، فأين الحقيقة ؟

فإن قيل : يفرق بين القرائن المتصلة والمنفصلة ، فما كان مع القرينة المتصلة فهو حقيقة ، وما كان من المنفصلة كان مجازاً . قيل : تعنى بالمتصل ما كان فى اللفظ أو ما كان موجوداً حين الخطاب ؟ فإن عنيت الأول لزم أن يكون ما علم من حالى المتكلم أو المستمع أولّا ــ

قرينة منفصلة . فما استعمل بلام التعريف لما يعرفانه كما يقول : قال النبى ﷺ . وهو عند المسلمين رسول الله ، أو قال الصديق وهو عندهم أبو بكر . وإذا قال الرجل لصاحبه : إذهب إلى الأمير أو القاضى أو الوالى - يريد ما يعرفانه أن يكون مجازاً . وكذلك الضمير يعود إلى معلوم غير مذكور كقوله « إنا أنزلناه »[1] وقوله « حتى توارت بالحجاب »[2] وأمثال ذلك - أن يكون هذا مجازاً . وهذا لا يقوله أحد .

وأيضاً فإذا قال لشجاع : هذا الأسد فعل اليوم كذا . أو لبليد : هذا الحمار قال اليوم كذا . أو لعالم ، أو جواد : هذا البحر جرى منه اليوم كذا - أن يكون حقيقة ، لأن قوله هذا قرينةٌ لفظية ، فلا يبقى قط مجازاً . وإن قال : المتصل أعم من ذلك . وهو ما كان موجوداً حين الخطاب . قيل له : فهذا أشد عليك من الأول . فإن كلّ متكلمٍ بالمجاز لا بد أن يقترن به حال الخطاب ما بيّن مراده ، وإلا لم يجز التكلم به . فإن قيل : أنا أجوِّز تأخير البيان عن مورد الخطاب إلى وقت الحاجة . قيل : أكثر الناس لا يجوزون أن يتكلم بلفظ يدل على معنى ، وهو لا يريد ذلك المعنى إلّا إذا بيّن . وإنما يجوزون تأخير بيان مالم يدل اللفظ عليه كالمجملات . ثم نقول : إذا جوزت تأخير البيان ، فالبيان قد يحصل بجملة تامة ، وبأفعال من الرسول وبغير ذلك . ولا يكون البيان المتأخر إلا مستقلاً بنفسه . لا يكون مما يجب اقترانه بغيره . فإن جعلت هذا مجازاً لزم أن يكون ما يحتاج فى العمل إلى بيان مجازاً . كقوله : « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا »[3] ثم يقال : هب أن هذا جائز عقلاً ، لكن ليس واقعاً فى الشريعة أصلاً ، وجميع ما يذكر من ذلك باطل كما قد بسط فى موضعه . فإن الذين قالوا : الظاهر الذى لم يرد به ما يدل عليه ظاهره قد يؤخر بيانه ،

(١) [٤٤ / الدخان / ٣] ونصها: إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ، إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ .

(٢) [٣٨ / ص / ٣٢] ونصها : فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي ، حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ .

(٣) [٩ / التوبة / ١٠٣] .

احتجوا بقوله « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً »(١) وادعوا أنها كانت معيّنة ، وأخّر بيان التعيين . وهذا خلاف مااستفاض عن السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، من أنهم أمروا ببقرة مطلقة . فلوأخذوا بقرة من البقر فذبحوها أجزأ عنهم . ولـكن شددوا فشدد الله عليهم. والآية نـكرة فى سياق الإثبات ، فهى مطلقة . والقرآن يدل سياقه على أن الله ذمّهم على السؤال بما هى ؟ ولو كان المأمور به معيناً لمـا كانوا ملومين . ثم إن مثل هذا لم يقع قط فى أمر الله ورسوله أن يأمر عباده بشىء معين ويُبهمه عليهم مرة بعد مرة ، ولا يذكره بصفات تختص به ابتداء . واحتجوا بأن الله أخر بيان لفظ الصلاة والزكاة والحج . وأن هذه ألفاظ لها معانى فى اللغة . بخلاف الشرع . وهذا غلط . فإن الله إنمـا أمرهم بالصلاة بعد أن عرفوا ما المأمور به . وكذلك الصيام . وكذلك الحج . ولم يؤخر الله قط بيـان شىء من هذه المأمورات . ولبسط هذه المسألة موضع آخر . وأما قول من يقول : إن الحقيقة مايسبق إلى الذهن عندالإطلاق ، فمن أفسد الأقوال . فإنه لايقال: إذا كان اللفظ لم ينطق به إلا مقيداً فإنه يسبق إلى الذهن فى كل موضع منه ما دل عليه ذلك الموضع . وأما إذا أطلق فهو لا يستعمل فى الـكلام مطلقاً قط . فلم يبق له حال إطلاق محض ، حتى يقال : إن الذهن يسبق إليه أم لا . وأيضاً ، فأى ذهن ؟ فإن العربىّ الذى يفهم كلام العرب يسبق إلى ذهنه من اللفظ مالا يسبق إلى ذهن النبطىّ الذى صار يستعمل الألفاظ فى غير معانيها . ومن هنا غلط كثير من الناس . فإنهم قد تعودوا ما اعتادوه . إما من خطاب عامتهم، وإما من خطاب علمائهم ، باستعمال اللفظ فى معنى . فإذا سمعوه فى القرآن والحديث ظنوا أنه مستعمل فى ذلك المعنى . فيحملون كلام الله ورسوله على لغتهم النبطية وعادتهم الحادثة . وهـذا مما دَخَلَ به الغلط على طوائف. بل الواجب أن يعرف اللغة والعادة والعرف الذى نزل به القرآن والسنة ، وما كان الصحابة يفهمون من الرسول عند سماع تلك الألفاظ . فبتلك اللغة والعادة والعرف خاطبهم الله ورسوله . لا بما حدث بعد ذلك . وأيضاً ، فقد بينا فى غير هـذا الموضع أن الله

(١) [٢/ البقرة/ ٦٧] ونصها : وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ، قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ، قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ .

ورسوله لم يدع شيئاً من القرآن والحديث إلا بين معناه للمخاطبين ولم يحوجهم إلى شيء آخر. كما قد بسطنا القول فيه فى غير هذا الموضع . فقد تبين أن ما يدعيه هؤلاء من اللفظ المطلق من جميع القيود لا يوجد إلا مقدَّرًا فى اللسان . لا موجودًا فى الكلام المستعمل . كما أن مايدعيه المنطقيون من المعنى المطلق من جميع القيود ، لايوجد إلا مقدَّرًا فى الذهن . لا يوجد فى الخارج شيء موجود خارج عن كل قيد . ولهذا كان ما يدعونه من تقسيم العلم إلى تصور وتصديق وإن التصور هو تصور المعنى الساذج الخالى عن كل قيد ـ لا يوجد . وكذلك مايدعونه من البسائط التى تتركب منها الأنواع . وأنها أمور مطلقة عن كل قيد ـ لاتوجد . وما يدعونه من أن واجب الوجود هو وجود مطلق عن كل أمر ثبوتىٍّ ـ لا يوجد . فهذه الصفات المطلقات عن جميع القيود ينبغى معرفتها لمن ينظر فى هذه العلوم . فإنه بسبب ظن وجودها ضَلَّ طوائف فى العقليات والسمعيات . بل إذا قال العلماء : مطلق ومقيَّد ، إنما يعنون به مطلق عن ذلك القيد ومقيَّد بذلك القيد . كما يقولون «الرقبة» مطلقة فى آية كفارة اليمين، ومقيدة فى آية القتل . أى مطلقة عن قيد الإيمان. وإلا فقد قيل «فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ»(١) فقيدت بأنها رقبة واحدة . وأنها هى موجودة . وأنها تقبل التحرير. والذين يقولون بالمطلق المحض يقولون هو الذى لا يتصف بوحدة ولا كثرة ، لا وجود ولا عدم ، ولا غير ذلك . بل هو الحقيقة من حيث هى هى. كما يذكره الرازىّ تلقياً له عن ابن سينا وأمثاله من المتفلسفة. وقد بسطنا الكلام فى هذا الإطلاق والتقييد والكليات والجزئيات فى مواضع غير هذا . وبينا من غلط هؤلاء فى ذلك ما ليس هذا موضعه . وإنما المقصود هنا الإطلاق اللفظىّ . وهو أن يتكلم باللفظ مطلقاً عن كل قيد . وهذا لا وجود له . وحينئذ فلا يتكلم أحد إلا بكلام مؤلف مقيد مرتبط بعضه ببعض . فتكون تلك القيود ممتنعة الإطلاق .

فتبين أنه ليس لمن فرق بين الحقيقة والمجاز فرق معقول يمكن التمييز بين نوعين . فعلم

---

(١) [٥٨ / المجادلة / ٣] ونصها : وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ، ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

أن هذا التقسيم باطل . وحينئذ فكل لفظ موجود فى كتاب الله ورسوله ، فإنه مقيّد بما يبين معناه . فليس فى شىء من ذلك مجاز . بل كله حقيقة . ولهذا لما ادعى كثير من المتأخرين أن فى القرآن مجازًا ، وذكروا مايشهد لهم ، رد عليهم المنازعون جميع ما ذكروه . فمن أشهر ما ذكروه قوله تعالى : « جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ »[1] قالوا : والجدار ليس بحيوان والإرادة إنما تكون للحيوان . فاستعمالها فى ميل الجدار مجازٌ .

فقيل لهم : لفظ الإرادة قد استعمل فى الميل الذى يكون معه شعور . وهو ميل الحىّ . وفى الميل الذى لا شعور فيه . وهو ميل الجماد . وهو من مشهور اللغة . يقال : هذا السقف يريد أن يقع . وهذه الأرض تريد أن تُحرث . وهذا الزرع يُريد أن يُسقى . وهذا الثمر يريد أن يُقطف وهذا الثوب يريد أن يُغسل . وأمثال ذلك . واللفظ إذا استعمل فى معنيين فصاعدا ، فإما أن يجعل حقيقة فى أحدهما ، مجازاً فى الآخر ، أو حقيقة فيما يختص به كل منهما . فيكون مشتركا اشتراكا لفظيا ، أو حقيقة فى القدر المشترك بينهما . وهى الأسماء المتواطئة وهى الأسماء العامة كلها . وعلى الأول يلزم المجاز . وعلى الثانى يلزم الاشتراك . وكلاهما خلاف الأصل . فوجب أن يجعل من المتواطئة . وبهذا يعرف عموم الأسماء العامة كلها . وإلا فلو قال قائل فى ميل الجماد : حقيقة ، وفى ميل الحيوان: مجاز ، لم يكن بين الدعويين فرق ، إلا كثرة الاستعمال فى ميل الحيوان . لكن يستعمل مقيدا بما يبين أنه أريد ميل الجماد . والقدر المشترك بين مسميات الأسماء المتواطئة أمر كلىّ عام . لا يوجد كليّا عاماً إلا فى الذهن . وهو مورد التقسيم بين الأنواع . لكن ذلك المعنى العام الكلىّ كان أهل اللغة لا يحتاجون إلى التعبير عنه . لأنهم إنما يحتاجون إلى مايوجد فى الخارج، وإلى مايوجد فى القلوب فى العادة . وما لا يكون فى الخارج إلا مضافاً إلى غيره، لا يوجد فى الذهن مجرداً . بخلاف لفظ الإنسان والفرس . فإنه لما كان يوجد فى الخارج غير مضاف

---

(١) [١٨ / الكهف / ٧٧] ونصها : فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا .

تعودت الأذهان. ومسمى الفرس بخلاف تصور مسمى الإرادة ، ومسمى العلم ومسمى القدرة، ومسمى الوجود المطلق العام . فإن هذا لا يوجد فى اللغة لفظ مطلق يدل عليه. بل لا يوجد لفظ الإرادة إلا مقيداً بالمريد . ولا لفظ العلم إلا مقيداً بالعالم . ولا لفظ القدرة إلا مقيداً بالقادر . بل وهكذا سائر الأعراض ، لمَّا لم توجد إلا فى محالها مقيدةً بها ، لم يكن فى اللغة لفظ إلا كذلك . فلا يوجد فى اللغة لفظ السواد والبياض والطول والقصر إلا مقيداً بالأسود والأبيض والطويل والقصير . ونحو ذلك . لا مجرداً عن كل قيد . وإنما يوجد مجردا فى كلام المصنفين فى اللغة . لأنهم فهموا من كلام أهل اللغة ما يريدون به من القدر المشترك .

ومنه قوله تعالى: « فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ »[1] فإن من الناس من يقول : الذوق حقيقة فى الذوق بالفم . واللباس مما يلبس على البدن . وإنما استعير هذا وهذا. وليس كذلك بل قال الخليل : الذوق فى لغة العرب هو وجود طعم الشىء . والاستعمال يدل على ذلك . قال تعالى « وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ »[2] وقال « ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ »[3] وقال « فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا »[4] وقال « قَالَ

(١) [١٦/ النحل/ ١١٢] ونصها : وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ .

(٢) [٣٢/ السجدة / ٢١] ونصها : وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

(٣) [٤٤ / الدخان / ٤٩] .

(٤) [٦٥/ الطلاق / ٩] ونصها : فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا .

فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ »[١] « فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ »[٢] « لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ »[٣] « لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا »[٤] . وقال النبى ﷺ[٥] : « ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً » وفى بعض الأدعية : أذقنا برد عفوك وحلاوة مغفرتك . فلفظ الذوق يستعمل فى كل ما يحس به ويجد ألمه أو لذته . فدعوى المدعى اختصاص لفظ الذوق بما يكون بالفم ـ تحكم منه. لكن ذاك مقيد . فيقال : ذقت الطعام وذقت هذا الشراب. فيكون معه من القيود ما يدل على أنه ذوق بالفم . وإذا كان الذوق مستعملاً فيما يحسّه الإنسان بباطنه أو بظاهره ، حتى الماء الحميم ، يقال : ذاقه . فالثوب إذا كان بارداً أو حاراً ، يقال : ذقت حره وبرده . وأما لفظ اللباس ، وهو مستعمل فى كل ما يغشى الإنسان فيلتبس به . قال تعالى : « وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا »[٦] ، وقال : « وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ »[٧] ، وقال : « هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ »[١] . ومنه يقال : لبس الحق بالباطل ،

---

(١) [٦ / الأنعام / ٣٠] ونصها : وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ، قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ، قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ، قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ .

(٢) [٥٤ / القمر / ٣٧] ونصها : وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ .

(٣) [٤٤ / الدخان / ٥٦] .

(٤) [٧٨ / النبأ / ٢٤ و ٢٥] .

(٥) صحيح مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٥٦ .

(٦) [٧٨ / النبأ / ١٠] .

(٧) [٧ / الأعراف / ٢٦] ونصها : يَا بَنِى ءَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا، وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ، ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ.

(٨) [٢ / البقرة / ١٨٧] ونصها : أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ . . .

إذا خلط به حتى غشاه فلم يتميز . فالجوع الذى يشمل ألمه جميع الجائع ، نفسه وبدنه ، وكذلك الخوف الذى يلبس البدن ، لو قيـل : فأذاقها الله الجوع والخوف ، لم يدل ذلك على أنه شامل بجميع أجزاء الجائع . بخـلاف ما إذا قيل : لباس الجوع والخوف . ولو قال : فألبسهم - لم يكن فيه ما يدل على أنهم ذاقوا ما يؤلمهم ، إلا بالعقل . من حيث أنه يعرف الجائع الخائف يألم . بخلاف لفظ ذوق الجوع والخوف . فإن هذا اللفظ يدل على الإحساس بالمؤلم . وإذا أضيف إلى الملذ دلَّ على الإحساس به . كقوله ﷺ(١) : « ذاق طعمَ الإيمـان من رضى بالله ربًّا وبالإسلام ديناً وبمحمد نبيًّا » . فإن قيل : فَلِمَ لَمْ يصف نعيم الجنة بالذوق؟ قيل : لأن الذوق يدل على جنس الإحساس . ويقال: ذاق الطعام لمن وجد طعمه وإن لم يأ كله. وأهل الجنة نعيمهم كامل تام لا يقتصر فيـه على الذوق . بل استعمل لفظ الذوق فى النفى . كما قال عن أهل النار : « لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا »(٢) أى لا يحصل لهم من ذلك ولا ذوق. وقال عن أهل الجنة : « لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ »(٣).

وكذلك ما ادعوا أنه مجاز فى القرآن: لفظ المكر والاستهزاء والسخرية المضاف إلى الله. وزعموا أنه مسمى باسم مايقابله ، عن طريق المجاز . وليس كذلك . بل مسميات هذه الأسماء إذا فعلت بمن لا يستحق العقوبة كانت ظلماً له . وأما إذا فعلت بمن فعلها بالمجنىّ عليه، عقوبة بمثل فعله - كانت عدلًا . كما قال تعـالى : « كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ »(٤) فـكاد له كما كادت إخوته ، لما قال له أبوه: « لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا »(٥)

(١) انظر الهامش رقم ٥ ص ٢٤٠ .
(٢) [٧٨ / النبأ / ٢٤] .
(٣) [٤٤ / الدخان / ٥٦] .
(٤) [١٢/ يوسف/ ٧٦] ونصها: فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ ، كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ . . .
(٥) [١٢ / يوسف / ٥] .

وقال تعالى: « إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا »(١) ، وقال : « وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ »(٢) ، وقال: « الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ »(٣) . ولهذا كان الاستهزاء بهم فعلا يستحق هذا الاسم . كما روى عن ابن عباس : أنه يفتح لهم باب من الجنة وهم فى النار فيسرعون إليه فيغلق . ثم يفتح لهم باب آخر فيسرعون إليه فيغلق . فيضحك منهم المؤمنون . قال تعالى : « فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ »(٤) . وعن الحسن البصرى : إذا كان يوم القيامة خمدت النار لهم كما تخمد الإهالة . فيمشون . فيخسف بهم . وعن مقاتل: إذا ضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قِبله العذاب فيبقون فى الظلمة . فيقال لهم : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً . وقال بعضهم : استهزاؤه استدراجه لهم. وقيل: إيقاع استهزائهم وردّ خداعهم ومكرهم عليهم . وقيل: إنه يظهر لهم فى الدنيا خلاف ما أبطن فى الآخرة . وقيل : هو تجهيلهم وتخطئتهم فيما فعلوه . وهذا كله حق . وهو استهزاء بهم حقيقة . وفى بعض الآثار : أن الله سبحانه يأمر بناس من الناس إلى الجنة، حتى إذا رأوها وشاهدوا ما فيها من الكرامة ، قال الله للملائكة : اصرفوهم عنها . لا حظّ لهم فيها . قالوا : يا ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن تُرينا ما أريتنا كان أهون فى عذابنا . قال الله : ذلك أردت بكم . إذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين متواضعين ، وإذا خلوتم بارزتمونى بالعظائم . أجللتم الناس ولم تجلّونى . وعظمتم الناس ولم تعظمونى . وخفتم الناس ولم تخافونى . فاليوم أذيقكم أليم عذابى كما حرمتكم جزيل ثوابى . ذكره ابن أبى الدنيا وغيره .

---

(١) [٨٦ / الطارق / ١٥ و ١٦] .
(٢) [٢٧ / النمل / ٥٠ و ٥١] .
(٣) [٩ / التوبة / ٧٩] .
(٤) [٨٣ / المطففين / ٣٤ ـ ٣٦] .

ومن الأمثلة المشهورة لمن يثبت المجاز فى القرآن « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ »(١) المراد به أهلها. فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. فقيل لهم : لفظ القرية والمدينة والنهر والميزاب وأمثال هذه الأمور التى فيها الحالّ والمحل ، وكلاهما داخل فى الاسم ، ثم قد يعود الحكم على الحال، وهو السكان . وتارة على المحل ، وهو المكان . وكذلك فى النهر يقال : حفرت النهر ، وهو المحل . وجرى النهر ، وهو الماء . ووضعت الميزاب ، وهو المحل . وجرى الميزاب ، وهوالماء. وكذلك القرية . قال تعالى : « ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً »(٢) وقوله : « وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ۞ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ »(٣) ، وقال فى آية أخرى : « أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ »(٤) فجعل القرى هم السكان . وقال : «وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ»(٥) وهم السكان . وكذلك قوله : « وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا »(٦)، وقال تعالى : « أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا »(٧) فهذا المكان ، لا السكان . لكن لابد أن يلحظ أنه كان مسكونا . فلا يسمى قرية إلا إذا

---

(١) [١٢ / يوسف / ٨٢] ونصها : وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ .

(٢) [١٦/ النحل/ ١١٢] ونصها : وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ .

(٣) [٧ / الأعراف / ٤ و ٥] .

(٤) [٧ / الأعراف / ٩٧] .

(٥) [٤٧ / القتال / ١٣] .

(٦) [١٨ / الكهف / ٥٩] .

(٧) [٢ / البقرة / ٢٥٩] .

كان قد عمر للسكنى . مأخوذ من القرى وهو الجمع . ومنه قولهم : قريت الماء فى الحوض ، إذا جمعته فيه . ونظير ذلك لفظ الإنسان . يتناول الجسد والروح . ثم الأحكام يتناول هذا تارة وهذا تارة لتلازمهما . فكذلك القرية ، إذا عذب أهلها خربت ، وإذا خربت كان عذاباً لأهلها . فما يصيب أحدهما من الشر ينال الآخر . كما ينال البدن والروح ما يصيب أحدهما . فقوله : « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ »[1] ، مثل قوله : « قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً »[2] فاللفظ هنا يراد (به) السكان من غير إضمار ولا حذف . فهذا بتقدير أن يكون فى اللغة مجاز ، فلا مجاز فى القرآن . بل وتقسيم اللغة إلى حقيقة ومجاز تقسيم مبتدع محدث . لم ينطق به السلف . والخلف فيه على قولين . وليس النزاع فيه لفظيا . بل يقال نفس هذا التقسيم باطل . لا يتميز هذا عن هذا . ولهذا كان كل ما يذكرونه من الفروق يبين أنها فروق باطلة . وكلما ذكر بعضهم فرقاً أبطله الثانى. كما يدعى المنطقيون أن الصفات القائمة بالموصوفات تنقسم اللازمة لها إلى داخل فى ماهيتها الثابتة فى الخارج وإلى خارج عنها لازم الماهية ولازم خارج للوجود . وذكروا ثلاثة فروق كلها باطلة . لأن هذا التقسيم باطل لا حقيقة له . بل ما يجعلونه داخلا يمكن جعله خارجا وبالعكس . كما قد بسط فى موضعه . وقولهم : اللفظ إن دل بلا قرينة فهو حقيقة ، وإن لم يدل إلا معها فهو مجاز ـ قد تبين بطلانه ، وأنه ليس فى الألفاظ الدالة ما يدل مجرداً عن جميع القرائن . ولا فيها ما يحتاج إلى جميع القرائن . وأشهر أمثلة المجاز لفظ الأسد والحمار والبحر ونحو ذلك، مما يقولون: إنه استعير للشجاع والبليد والجواد . وهذه لا تستعمل إلا مؤلفة مركبة مقيدة بقيود لفظية . كما تستعمل الحقيقة . كقول أبى بكر الصديق عن أبى قتادة[3] ، لما طلب غيره سلب القتيل : لاها الله ، إذاً تعمد إلى أسد من أسد الله يقاتل

---

(١) انظر هامش رقم ١ ص ٢٤٣ .

(٢) انظر هامش رقم ٢ ص ٢٤٣ .

(٣) صحيح البخارى فى: ٥٧ ـ كتاب فرض الخمس، ١٨ ـ باب من لم يخمس الأسلاب، ومن قتل قتيلا فله سَلَبُهُ .

عن أبى قتادة رضى الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ عام حنين . فلما التقينا =

عن الله ورسوله فنعطيك سَلَبَهُ . فقوله : تعمد إلى أسد من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله ، وصف له بالقوة بالجهاد فى سبيله . وقد عيّنه تعيينًا أزال اللبس. وكذلك قول النبىّ ﷺ [1] : « إن خالدًا سيف من سيوف الله ، سلّه الله على المشركين » وأمثال ذلك . وإن قال القائل : القرائن اللفظية موضوعة ، ودلالتها على المعنى حقيقة ، لكن القرائن الحالية مجاز . قيل : اللفظ لا يستعمل قط إلا مقيدا بقيود لفظية موضوعة . والحال حال المتكلم والمستمع ، لابد من اعتباره فى جميع الكلام. فإنه إذا عرف المتكلم، فُهِم من معنى كلامه مالا يفهم إذا لم يعرف. لأنه بذلك يعرف عادته فى خطابه . واللفظ إنما يدل إذا عرف لغة المتكلم التى بها يتكلم . وهى عادته وعرفه التى يعتادها فى خطابه . ودلالة اللفظ على المعنى دلالة قصدية إرادية اختيارية. فالمتكلم يريد دلالة اللفظ على المعنى . فإذا اعتاد أن يعبر باللفظ عن المعنى كانت تلك لغة .

= كانت المسلمين جولة . فرأيت رجلا من المشركين علا رجلا من المسلمين ، فاستدرت حتى أتيته من ورائه حتى ضربته بالسيف على حبل عاتقه . فأقبل إلىّ فضمنى ضمة وجدت منها ريح الموت . ثم أدركه الموت فأرسلنى . فلحقت عمر بن الخطاب فقلت : ما بال الناس ؟ قال : أمر الله .

ثم إن الناس رجعوا . وجلس رسول الله ﷺ فقال « من قتل قتيلا ، له عليه بينة ، فله سلبه » فقمت فقلت : من يشهد لى ؟ ثم جلست . ثم قال « من قتل قتيلا ، له عليه بينة، فله سلبه » فقمت فقلت: من يشهد لى ؟ ثم جلست . ثم قال الثالثة مثله . فقال رجل : صدق يارسول الله . وسلبه عندى . فأرضه عنى . فقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : لاها الله ، إذًا يعمد إلى أسد من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله ﷺ يعطيك سلبه ! !

فقال النبىّ ﷺ : « صدق » ، فأعطاه . فبعت الدرع فابتعت به مخرفاً فى بنى سلمة . فإنه لأول مال تأثلته فى الإسلام .

(١) مسند الإمام أحمد حديث ٤٣ ، أن أبا بكر عقد لخالد بن الوليد على قتال أهل الردة، وقال : إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : نعم العبد وأخو العشيرة خالد بن الوليد ، وسيفٌ من سيوف الله ، سلّه الله عز وجل على الكفار والمنافقين .

ولهذا كل من كان له عناية بألفاظ الرسول ومراده بها ، عرف عادته فى خطابه . وتبين له من مراده ما لا يتبين لغيره . ولهذا ينبغى أن يقصد ، إذا ذكر لفظ من القرآن والحديث، أن يذكر نظائر ذلك اللفظ ماذا عنى بها الله ورسوله . فيعرف بذلك لغة القرآن والحديث وسنة الله ورسوله التى يخاطب بها عباده . وهى العادة المعروفة من كلامه . ثم إذا كان لذلك نظائر فى كلام غيره ، وكانت النظائر كثيرة ، عرف أن تلك العادة واللغة مشتركة عامة . لا يختص بها هو ﷺ . بل هى لغة قومه . ولا يجوز أن يحمل كلامه على عادات حدثت بعده فى الخطاب ، لم تكن معروفة فى خطابه وخطاب أصحابه . كما يفعله كثير من الناس . وقد لا يعرفون انتفاء ذلك فى زمانه . ولهذا كان استعمال القياس فى اللغة ، وإن جاز فى الاستعمال ، فإنه لا يجوز فى الاستدلال . فإنه قد يجوز للإنسان أن يستعمل هو اللفظ فى نظير المعنى الذى استعملوه فيه ، مع بيان ذلك ، على ما فيه من النزاع . لكن لايجوز أن يعمد إلى ألفاظ قد عرف استعمالها فى معانى فيحملها إلى غير تلك المعانى ، ويقول : إنهم أرادوا تلك بالقياس على تلك . بل هذا تبديل وتحريف. فإذا قال[1]: « الجار أحق بسقبه » فالجار هو الجار . ليس هو الشريك . فإن هذا لا يعرف فى لغتهم ، لكن ليس فى اللفظ مايقتضى أنه يستحق الشفعة . لكن يدل على أن البيع له أولى. وأما الخمر فقد ثبت بالنصوص الكثيرة والنقول الصحيحة أنها كانت اسماً لكل مسكر . لم يسم النبيذ خمراً بالقياس . وكذلك النباش كانوا يسمونه سارقاً . كما قالت عائشة : سارق موتانا كسارق أحيانا . واللائط عندهم كانوا أغلظ من الزانى بالمرأة . ولابد، فى تفسير القرآن والحديث، من أن يعرف مايدل على مراد الله ورسوله من الألفاظ . وكيف يفهم كلامه . فمعرفة العربية التى خوطبنا بها مما يعين على أن نفقه مراد الله ورسوله بكلامه . وكذلك معرفة دلالة الألفاظ على المعانى . فإن عامة ضلال أهل البدع كان بهذا السبب . فإنهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله على ما يدعون أنه دالّ عليه . ولا يكون الأمر كذلك . ويجعلون هذه الدلالة حقيقة وهذه مجازاً.

---

(١) صحيح البخارىّ فى : ٩٠ ـ كتاب الحيلة ، ١٥ ـ باب احتيال العامل ليهدى له . عن أبى رافع قال : قال النبىّ ﷺ « الجار أحق بسقبه » .

كما أخطأ المرجئة فى اسم الإيمان. جعلوا لفظ الإيمان حقيقة فى مجرد التصديق . وتناوله للأعمال مجازاً. فيقال: إن لم يصح التقسيم إلى حقيقة ومجاز، فلا حاجة إلى هذا. وإن صح فهذا لا ينفعكم. بل هو عليكم لا لكم . لأن الحقيقة هى اللفظ الذى يدل بإطلاقه بلا قرينة . والمجاز إنما يدل بقرينة . وقد تبين أن لفظ الإيمان، حيث أطلق فى الكتاب والسنة ، دخلت فيه الأعمال . وإنما يدعى خروجها منه عند التقييد . وهذا يدل على أن الحقيقة قوله[1] « الإيمان بضع وسبعون شعبة » وأما حديث[2] جبريل فإن كان أراد بالإيمان ما ذكر مع الإسلام فهو كذلك . وهذا هو الذى أراده النبىّ صلى الله عليه وسلم قطعاً . كما أنه لما ذكر الإحسان ، أراد الإحسان مع الإيمان والإسلام . لم يرد أن الإحسان مجرد عن إيمان وإسلام . ولو قُدِّر أنه أريد بلفظ الإيمان مجرد التصديق، فلم يقع ذلك إلا مع قرينة . فيلزم أن يكون مجازا. وهذا معلوم بالضرورة . لا يمكننا المنازعة فيه بعد تدبر القرآن والحديث . بخلاف كون لفظ الإيمان فى اللغة مرادفاً للتصديق . ودعوى أن الشارع لم يغيره ولم ينقله ، بل أراد به ما كان يريده أهل اللغة بلا تخصيص ولا تقييد ـ فإن هاتين المقدمتين لا يمكن الجزم بواحدة منهما. فلا يعارض اليقين . كيف ؟ وقد عرف فساد كل واحدة من المقدمتين وأنها من أفسد الكلام. وأيضاً ، فليس لفظ الإيمان فى دلالته على الأعمال المأمور بها ، بدون لفظ الصلاة والصيام

---

(١) صحيح مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٥٧ ، عن أبى هريرة عن النبىّ ﷺ أنه قال « الإيمان بضع وسبعون شعبة ، والحياء شعبة من الإيمان » .

(٢) صحيح البخارىّ فى : ٢ ـ كتاب الإيمان ، ٣٧ ـ باب سؤال جبريل النبىّ ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة .

عن أبى هريرة قال : كان النبىّ ﷺ بارزا يوما للناس . فأتاه جبريل فقال : ما الإيمان؟ قال « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته ، وبلقائه ورسله ، وتؤمن بالبعث » قال: ما الإسلام؟ قال « الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به ، وتقيم الصلاة ، وتؤدى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان » قال : ما الإحسان ؟ قال « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . . . الخ .

والزكاة والحج ، وفى دلالته على الصلاة الشرعية والصيام الشرعىّ والحج الشرعىّ ـ سواء .
قيل : إن الشارع نقله ، أو زاد الحكم دون الاسم . أو زاد الاسم وتصرف فيه تصرف أهل
العرف أو خاطب بالاسم مقيدا لا مطلقاً . فإن قيل : الصلاة والحج ونحوهما ، لو ترك بعضها
بطلت . بخلاف الإيمان فإنه لا يبطل عند الصحابة وأهل السنة والجماعة بمجرد الذنب .
قيل : إن أراد بالبطلان أنه لا تبرأ الذمة منها كلها فكذلك الإيمان الواجب ، إذا ترك منه
شيئاً لم تبرأ الذمة منه كله . وإن أريد به وجوب الإعادة فهذا ليس على الإطلاق . فإن فى
الحج واجبات ، إذا تركها لم يعد . بل تجبر بدم . وكذلك فى الصلاة عند أكثر العلماء إذا
تركها سهوا أو مطلقاً وجبت الإعادة . فإنما يجب إذا أمكنت الإعادة . وإلا فما تعذرت
إعادته مطالبا به كالجمعة ونحوها . وإن أريد بذلك أنه لا يثاب على ما فعله ، فليس كذلك .
بل قد بيّن النبىّ صلى الله عليه وسلم فى حديث المسيىء فى صلاته أنه إذا لم يتمها يثاب على ما
فعل ، ولا يكون بمنزلة من لم يصلّ . وفى عدة أحاديث أن الفرائض تكمل يوم القيامة من
النوافل . فإذا كانت الفرائض مجبورة بثواب النوافل دل على أنه يعتدّ له بما فعل منها .
فكذلك الإيمان ، إذا ترك منه شيئاً كان عليه فعله . إن كان محرّماً تاب منه . وإن كان
واجباً فعله . فإذا لم يفعله لم تبرأ ذمته منه . وأثيب على ما فعله كسائر العبادات . وقد دلت
النصوص على أنه يخرج من النار من فى قلبه مثقال ذرة من الإيمان . وقد عدلت المرجئة، فى
هذا الأصل ، عن بيان الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين لهم بإحسان . واعتمدوا
على رأيهم ، وعلى ماتأولوه بفهمهم اللغة . وهذه طريقة أهل البدع . ولهذا كان الإمام أحمد
يقول : أكثر ما يخطىء الناس من جهة التأويل والقياس . ولهذا تجد المعتزلة والمرجئة
الرافضة وغيرهم ، من أهل البدع ، يفسرون القرآن برأيهم ومعقولهم وما تأولوه من اللغة .
ولهذا تجدهم لا يعتمدون على أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين
وأئمة المسلمين . فلا يعتمدون لا على السنة ولا على إجماع السلف وآثارهم . وإنما يعتمدون
على العقل واللغة . وتجدهم لا يعتمدون على كتب التفسير المأثورة والحديث وآثار السلف .
وإنما يعتمدون على كتب الأدب وكتب الكلام التى وضعتها رءوسهم . وهذه طريقة الملاحدة

أيضاً . إنما يأخذون ما فى كتب الفلسفة وكتب الأدب واللغة. وأما كتب القرآن والحديث والآثار فلا يلتفتون إليها . هؤلاء يعرضون عن نصوص الأنبياء ، إذْ هى عندهم لا تفيد العلم، وأولئك يتأولون القرآن برأيهم وفهمهم بلا آثار عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه . وقد ذكرنا كلام أحمد وغيره فى إنكار هذا وجمله طريقة أهل البدع . وإذا تدبرت حججهم، وجدت دعاوى لا يقوم عليها دليل » انتهى .

فصل

فى أنه هل فى اللغة أسماء شرعية نقلها الشارع عن مسماها فى اللغة ؟ أو أنها باقية فى الشرع على ما كانت عليه فى اللغة ؟

قال شيخ الإسلام تقىّ الدين بن تيمية فى « كتاب الإيمان » أيضاً ما نصه :

« وبسبب الكلام فى مسألة الإيمان ، تنازع الناس : هل فى اللغة أسماء شرعية نقلها الشارع عن مسماها فى اللغة ، أو أنها باقية فى الشرع على ما كانت عليه فى اللغة ؟ فذهب الخوارج والمعتزلة إلى أنها منقولة . وذهبت المرجئة إلى أنها باقية على ما كانت عليه فى اللغة ، لكنّ الشارع زاد فى أحكامها ، لا فى معنى الأسماء . وهكذا قالوا فى اسم الصلاة والزكاة والصيام والحج : أنها باقية فى كلام الشارع على معناها اللغوىّ ، لكن زاد فى أحكامها . ومقصودهم : أنّ الإيمان هو مجرد التصديق ، وذلك يحصل بالقلب واللسان . وذهبت طائفة ثالثة إلى أنّ الشارع تصرف فيها تصرف أهل العرف ؛ فهى بالنسبة إلى اللغة مجاز ، وبالنسبة إلى عرف الشارع حقيقة .

« والتحقيق أنّ الشارع لم ينقلها ، ولم يغيرها ، ولكن استعملها مقيدة لا مطلقة ، كما يستعمل نظائرها ، كقوله تعالى: « وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ »(1) فذكر حجًّا خاصًّا وهو حج البيت ، وكذلك قوله : « فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ . . . »(2) فلم يكن لفظ الحج متناولًا لكلّ قصد ، بل لقصد مخصوص دلّ عليه اللفظ نفسه من غير تغيير اللغة . والشاعر إذا قال :

(1) [٣ / آل عمران / ٩٧] ونصها : فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ، وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا ، وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ .

(2) [٢ / البقرة / ١٥٨] ونصها : إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ، فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ، وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ .

وأَشْهَدُ من عوفٍ حُلُولًا كثيرةً يَحُجون سِبَّ الزِّبْرِقانِ المُزَعْفَرَا

كان متكلّما باللغة ؛ وقد قيل: لفظه يحجّ سب الزبرقان المزعفرا . ومعلوم أنّ ذلك الحجّ المخصوص الذى أمر الله به دلّت عليه الإضافة أو التعريف باللام . فإذا قيل : الحج فرض عليك ، كانت لام العهد تبيّن أنه حجّ البيت .

« وكذلك الزكاة . هى اسم لما تزكو به النفس . وزكاة النفس زيادة خيرها ، وذهاب شرها . والإحسان إلى الناس من أعظم ما تزكو به النفس ، كما قال تعالى : « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا »[1] وكذلك ترك الفواحش مما تزكو به، قال تعالى : « وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا »[2] . وأصل زكاتها بالتوحيد وإخلاص الدين لله ، قال تعالى : « وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ »[3]. وهى عند المفسّرين التوحيد. وقد بيّن النبيّ صلى الله عليه وسلم مقدار الواجب وسماها الزكاة المفروضة . فصار لفظ الزكاة ـ إذا عرّف باللام ـ ينصرف إليها ، لأجل العهد.

« ومن الأسماء ما يكون أهل العرف نقلوه، وينسبون ذلك إلى الشارع، مثل لفظ(التيمّم) فإنّ الله تعالى قال : « فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ »[4] .

---

(١) [٩ / التوبة / ١٠٣] ونصها : خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ، وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

(٢) [٢٤/ النور / ٢١] ونصها: يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ، وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَازَكَىٰ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

(٣) [٤١ / فصلت / ٦و٧] ونصها : قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ، وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ .

(٤) [٥/المائدة/٦] ونصها: يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا =

فلفظ التيمم استعمل فى معناه المعروف فى اللغة ، فإنه أمر بتيمم الصعيد ؛ ثم أمر بمسح الوجوه والأيدى منه ؛ فصار لفظ التيمم ، فى عرف الفقهاء ، يدخل فيه هذا المسح ؛ وليس هو لغة الشارع ، بل الشارع فرّق بين تيمّم الصعيد وبين المسح الذى يكون بعده .

« ولفظ (الإيمان) أمر به مقيداً بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله . وكذلك لفظ (الإسلام) بالاستسلام لله رب العالمين . وكذلك لفظ (الكفر) مقيدا . ولكن لفظ (النفاق) قد قيل : إنه لم تكن العرب تكلّمت به ، لكنه مأخوذ من كلامهم . فإنّ (نفق) يشبه خرج ، ومنه : نفقت الدابة إذاماتت ، ومنه نافق اليربوع . والنفق فى الأرض، قال تعالى : « فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ »[1] فالمنافق هو الذى خرج من الإيمان باطناً بعد دخوله فيه ظاهرا . وقيّد النفاق بأنه نفاق من الإيمان . ومن الناس من يسمى من خرج عن طاعة الملك منافقاً عليه . لكن المنافق ـ الذى فى القرآن ـ هو النفاق على الرسول ، فخطاب الله ورسوله الناسَ بهذه الأسماء كخطاب الناس بغيرها ، وهو خطاب مقيّد خاص ، لا مطلق يحتمل أنواعاً .

« وقد بين الرسول تلك الخصائص . والاسم دلّ عليها ، فلا يقال : إنها منقولة ، ولا أنه زيد فى الحكم دون الاسم ، بل الاسم إنما استعمل على وجه يختص بمراد الشارع ، لم يستعمل مطلقاً . وهو إنما قال : « أقيموا الصلاة »[2] بعد أن عرفهم الصلوة المأمور بها ، فكان

=وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ، وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ، مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

(١) [٦/ الأنعام/ ٣٥] ونصها: وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ .

(٢) [٢/البقرة/٤٣] ونصها: وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ .

التعريف منصرفاً إلى الصلاة التى يعرفونها. لم ينزل لفظ الصلاة وهم لا يعرفون معناه. ولهذا قال من قال فى لفظ الصلاة : إنه عام للمعنى اللغوى، وأنه مجمل لتردده بين المعنى اللغوى والشرعى، ونحو ذلك ، فأقوالهم ضعيفة . فإن هذا اللفظ إنما ورد خبرًا أو أمرًا . فالخبر كقوله : « أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ۞ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ »(١) وسورة (اقرأ) من أول ما نزل من القرآن ، وكان بعض الكفار ـ إمّا أبو جهل أو غيره ـ قد نهى النبى ﷺ عن الصلاة ، وقال(٢) : لئن رأيته يصلى لأطأنّ عنقه ؛ فلما رآه ساجدا رأى من الهول ما أوجب نكوصه على عقبيه . فإذا قيل : « أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ. عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ » فقد علمت تلك الصلاة الواقعة بلا إجمال فى اللفظ ولا عموم . ثم إنه لما فرضت الصلوات الخمس ليلة المعراج ، أقام النبى ﷺ لهم الصلوات بمواقيتها صبيحة ذلك اليوم ، وكان جبريل يؤمّ النبى ﷺ ، والمسلمون يأتمون بالنبى ﷺ . فإذا قيل لهم : « أَقِيمُوا الصلاة » عرفوا أنها تلك الصلاة . وقيل : إنه قبل ذلك كانت له صلاتان طرفى النهار ، فكانت أيضاً .

فلم يخاطبوا باسم من هذه الأسماء إلّا ومسماه معلوم عندهم ؛ فلا إجمال فى ذلك ولا يتناول كلّ ما يسمى : حجًّا ، ودعاء ، وصوماً . فإنّ هذا إنما يكون إذا كان اللفظ مطلقاً ، وذلك لم يرد . وكذلك الإيمان والإسلام ، وقد كان معنى ذلك عندهم من أظهر الأمور . وإنما سأل جبرئيل النبىَّ صلى الله عليه وسلم عن ذلك وهم يسمعون ، وقال(٣) : « هذا جبرئيل جاءكم

(١) [٩٦ / العلق / ٩و١٠] .

(٢) صحيح البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٩٦ ـ سورة العلق ، ٤ ـ باب كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ .

قال ابن عباس : قال أبو جهل : لئن رأيت محمداً يصلى عند الكعبة لأطأن على عنقه . فبلغ النبىّ ﷺ . فقال « لو فعله لأخذته الملائكة » .

(٣) صحيح البخارىّ فى : ٢ ـ كتاب الإيمان ، ٣٧ ـ باب سؤال جبريل النبىّ ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان .

عن أبى هريرة قال: كان النبىّ ﷺ بارزًا يومًا للناس. فأتاه جبريل فقال: ماالإيمان؟ =

يعلمكم دينكم » ليبيّن لهم كمال هذه الأسماء وحقائقها التى ينبغى أن تقصد لئلا يقتصروا على أدنى مسمياتها . وهذا كما فى الحديث الصحيح أنه قال[٢] : «ليس المسكين بهذا الطوّاف الذى تردّه اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان . ولكن المسكين الذى لا يجد غنًى يغنيه ولا يفطن له فيتصدّق عليه ولا يسأل الناس إلحافاً » . فهم كانوا يعرفون المسكين وأنه المحتاج . وكان ذلك مشهوراً عندهم فيمن يظهر حاجته فى السؤال ، فبيّن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنّ الذى يظهر حاجته بالسؤال والناس يعطونه ـ تزول مسكنته بإعطاء الناس له . والسؤال له بمنزلة الحرفة . وهو، وإن كان مسكيناً، يستحق من الزكاة إذا لم يعط من غيرها كفايته ، فهو إذا وجد من يعطيه كفايته لم يبق مسكيناً ؛ وإنما المسكين المحتاج الذى لا يسأل ولا يعرف فيعطى ، فهذا هو الذى يجب أن يقدم فى العطاء ، فإنه مسكين قطعاً . وذاك، مسكنته تندفع بعطاء من يسأله .

وكذلك قوله: «الإسلام هو الخمس» يريد أن هذا كلّه واجب داخل فى الإسلام . فليس للإنسان أن يكتفى بالإقرار بالشهادتين . وكذلك الإيمان يجب أن يكون على هذا الوجه المفصل ، لا يكتفى فيه بالإيمان المجمل ، ولهذا لما وصف الإسلام بهذا » . انتهى .

= قال « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث » قال: ما الإسلام؟ قال « أن تعبد الله ولا تشرك به وتقيم الصلاة وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان » قال: ما الإحسان ؟ قال « أن تعبد الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . قال : متى الساعة ؟ قال « ما المسئول عنها بأعلم من السائل . وسأخبرك عن أشراطها : إذا ولدت الأمة ربها، وإذا تطاول رعاة الإبل البهم فى البنيان. فى خمس لا يعلمهن إلا الله » . ثم تلا النبىّ ﷺ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ... الآية . ثم أدبر . فقال « ردوه » فلم يروا شيئا . فقال « هذا جبريل جاء يعلّم الناس دينهم » .

(١) صحيح مسلم فى: ١٢ـ كتاب الزكاة ، حديث ١٠١ ، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « ليس المسكين بهذا الطوّاف الذى يطوف على الناس ، فترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان » قالوا : فما المسكين ؟ يا رسول الله . قال « الذى لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدق عليه ، ولا يسأل الناس شيئا » .

ذكر مجمل مقاصد التنزيل الكريم وضروب التفسير

قال الإمام عز الدين بن عبد السلام في كتابه « الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز » في أواخره ما نصه :

« وعلى الجملة فمقاصد القرآن أنواع : أحدها : الطلب وهو أربعة أضرب . النوع الثاني : الإذن والإطلاق : النوع الثالث : النداء. والنداء تنبيه للمنادَى ليسمع مايلقى إليه بعد النداء من الكلام ليعمل بمقتضاه ، ولذلك كثر النداء في القرآن . وأما وصف المنادى فأربعة أقسام : (أحدها) ما لا حثّ فيه ، كقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ . . . » . (الثاني) فيه حثّ ، كالوصف بالإيمان ، وله فائدتان : (إحداها) الحثّ على مايأمر به وينهى عنه بعد النداء ، فإنّ الإيمان موجب للطاعة والإذعان . (الفائدة الثانية) : إكرام المؤمنين بندائهم بأشرف أوصافهم وأحبّها، فيحثّهم ذلك الإكرام على لزوم الطاعة والإذعان . (القسم الثالث) نداء النبيّ بالنبوّة ، وفيه فائدة التفخيم والإكرام ، والحث على الطاعة والإذعان ، شكراً لنعمة النبوّة. (القسم الرابع) النداء بالرسالة، وفيه الفائدتان المذكورتان في النداء بالنبوّة ، مع التأكيد بذكر الرسالة ، وهي من النعم الجسام لأنها : تستلزم النبوّة، وتحثّ على تبليغ الرسالة . فما أحسن قوله : « يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ »(١).

النوع الرابع : مدح الأفعال .

النوع الخامس: مدح الفاعلين لأجل الفعل الذي وُصِفُوا به .

النوع السادس : ذمّ الأفعال .

النوع السابع : ذم الفاعلين لأجل الفعل الذي وُصِفُوا به .

---

(١) [٥ / المائدة / ٦٧] ونصها : يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ، إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ .

النوع الثامن : الوعد بالخير العاجل .

النوع التاسع : الوعد بالخير الآجل .

النوع العاشر : الوعيد بالشر العاجل .

النوع الحادى عشر : الوعيد بالشر الآجل .

وكل هـذه الأخبار تابعة للأحكام مؤكدة لها ، إمّا بالترغيب فيها ، إن كانت قربة ، أو بالترهيب منها إن كانت معصية .

النوع الثانى عشر: الأمثال: وهى مؤكدة للأحكام: ترغيبًا أو ترهيبًا أو تقبيحاً أو تحسيناً .

النوع الثالث عشر : التكرير : وهو دال على الاعتناء والاهتمام بالمكرر .

مطلب فى سر التكرير

فتكرير صفات الله دالّ على الاعتناء بمعرفتها ، والعمل بموجبها .

وتكرير القصص دالّ على الاهتمام بالوعظ للإيقاظ والاعتبار . وفائدة تكرير القصص تطرئة المواعظ وتشديدها ، لأن منها : مايحث على الطاعة والإيمان ، ومنها مايزجر عن الكفر والعصيان .

وكذلك تكرير الوعد والوعيد ، وكذلك تكرير ذكر الأحكام ، وكذلك تكرير المدح والذم ، وما يترتب على المأمورات والمنهيات من المؤكدات المذكورات . فتكرير الوعد يدل على الاهتمام بفعل الطاعات ترغيباً فى ثوابها . وتكرير الوعيد يدلّ على الاهتمام بترك المخالفات ترهيباً من عقابها . وتكرير القِرَان بين الوعد والوعيد يدلّ على الاهتمام بوقوف العباد بين الخوف والرجاء ، فلا يقنطوا من رحمة الله وأفضاله ، ولا يغترّوا بحلمه وإمهاله . وتكرير الأحكام يدلّ على الاعتناء بفعل الطاعات واجتناب المخالفات . وتكرير الأمثال يدلّ على الاعتناء بالإيضاح والبيان . وتكرير تذكير النعم يدلّ على الاعتناء بشكرها .

واعلم أنه لا تؤكد العرب إلا ما تهتم به ؛ فإن من اهتم بشيء أكثر ذكره . وكلما عظم الاهتمام كثر التأكيد . وكلما خفّ، خفّ التأكيد . وإن توسط الاهتمام، توسط التأكيد. فإذا قال القائل : زيد قائم ، فقد أخبر بقيامه . فإن أراد تأكيد ذلك ، عند من شك فيه ، أو يكذبه ، أو ينازعه فيه ، أكّده فقال : إن زيداً قائم . فإذا جاء بـ (إن) فكأنه قال : زيد قائم، زيد قائم . فإن زاد فى التأكيد قال : إن زيداً لقائم ، فيصير بمثابة ما لو قال : زيد قائم ، ثلاث مرات .

أمثلة ذلك : قوله تعالى : « قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ »[1] تأكيد لقوله تعالى : « لَا أَعْبُدُ

(١) [١٠٩ / الكافرون / ١ ـ ٤] .

مَا تَعْبُدُونَ » . وقوله : « وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ » تأكيد لقوله « وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَاعَبَدْتُمْ ». لمَّا وقع الاهتمام بأنه لايوافقهم على عبادة الأصنام، وبأن الله قد حرمهم أن يدخلوا فى دين الإسلام ـ أكّد ذينك لشدة الاهتمام بهما . فهذا تأكيد واحد لكل واحد من الخبرين . وعلى الجملة : فقد أكد نفى عبادته لأصنامهم بقوله « وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ » وأكّد نفى عبادتهم لمعبوده بقوله « وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ » وإن حمل ذلك على وقتين مختلفين ، فلا تأكيد إذن .

ومثال تكرير التأكيد قوله تعالى : « أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلَّا . . . »[1] المعنى : ألهاكم التكاثر بالأموال والأولاد عن الاستعداد للمعاد ، ثم زجرهم عن التكاثر بقوله « كَلَّا » ثم هددهم بقوله : « سَوْفَ تَعْلَمُونَ » . ثم أكد الزجرالأول بـ« كَلَّا »الثانية، ثم أكد التهديد بـ «سَوْفَ تَعْلَمُونَ» ؛ ثم أكد الزجر بـ« كَلَّا »الثالثة، فزجرهم ثلاث مرات للاهتمام بزجرهم عن ذلك . وهددهم على ذلك مرتين للاهتمام بالاستعداد للمعاد .

ومثل هذا قوله تعالى «عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ* عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ *الَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ* كَلَّاسَيَعْلَمُونَ*ثُمَّ كَلَّاسَيَعْلَمُونَ...»[2] زجرهم بـ«كلا»الأولى عن التساؤل والاختلاف، ثم أكد كلّا الأولى بكلّا الثانية وتهددهم فيما بينهما بقوله بعدُ: « سيعلمون » ثم أكد هذا التهديد بقوله بعدُ : (كلا) الثانية «سيعلمون» .

وأما تكرير قوله : « وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ »[3] فيجوز أن يكون ماعدا الكلمة الأولى تأكيداً لها ، وأن تتكرر العِدَة بالويل على من كذب ، بقوله : « إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ » . ويجوز أن يريد بكلّ عِدَةٍ من عذاب الويل من كذب بما بين عدتى كل ويل .

---

(١) [١٠٢ / التكاثر / ١ ـ ٤] .

(٢) [٧٨ / النبأ / ١ ـ ٥] .

(٣) [٧٧ / المرسلات / ١٩ و ٢٤ و ٢٨ ... الخ] .

وأما قوله : « فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ »[١] فيجوز أن تكون مكررة على جميع أنعمه ؛ ويجوز أن يراد بكل واحدة منهنّ ما وقع بينها وبين التى قبلها من نعمة ؛ ويجوز أن يراد بالأولى ما تقدمها من النعم ، وبالثانية ما تقدّمها ، وبالثالثة ما تقدم على الأولى والثانية ، وبالرابعة ما تقدم على الأولى والثانية والثالثة . . . وهكذا إلى آخر السورة .

فإن قيل : كيف يكون قوله « سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ »[٢] نعمةً ، وقوله : « يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ »[٣] نعمة ؟ وكذلك قوله « هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ »[٤] ، وقوله : « يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ »[٥] ، وقوله « يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ » ؟

قلنا : هذه كلها نعم جسام ، لأن الله هدد العباد بها استصلاحاً لهم ليخرجوا من حيز الكفر والطغيان والفسوق والعصيان ، إلى حيّز الطاعة والإيمان والانقياد والإذعان ؛ فإن مَن حذَّر مِن طرق الردى وبيّن ما فيها من الأذى ، وحثّ على طرق السلامة الموصلة إلى المثوبة والكرامة ، كان مُنعِما غاية الإنعام ، ومحسناً غاية الإحسان .

ومثل ذلك قوله : « هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ »[٦] ، وعلى هذا تصلح فيه مناسبة الربط بذكر صفة الرحمة فى ذلك المقام .

---

(١) [٥٥ / الرحمن / ١٣ و ١٦ و ١٨ ... الخ] .
(٢) [٥٥ / الرحمن / ٣١] .
(٣) [٥٥ / الرحمن / ٤١] ونصها : يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ .
(٤) [٥٥ / الرحمن / ٤٣] .
(٥) [٥٥ / الرحمن / ٣٥] ونصها : يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ .
(٦) [٣٦/ يس / ٥٢] ونصها : قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ، هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ .

وأما قوله : « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ »(١) فإنه تذكير بالموت والفناء للترغيب فى الإقبال على العمل لدار البقاء ، وفى الإعراض عن دار الفناء .

وأما قوله : « وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ »(٢) فإن تقديره عند بعضهم : وإن كانوا من قبل إنزال القطر عليهم، من قبل إنزاله، لمبلسين . فأكد « قبل » الأولى بـ « قبل » الثانية . وهذا لا اهتمام فيه ، فإنه معلوم أن اليأس من نزول المطر كان محققاً قبل الإنزال ، فلا حاجة ـ فى مثل هذا ـ إلى التأكيد .

وقدّر آخرون : وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبل إرسال الرياح ، أو من قبل إثارة السحاب لمبلسين ؛ فعلى هذا لا يكون تكريراً ولا تأكيداً .

وعود الضمائر إلى المصادر التى دلت عليها الأفعال ، ولم تذكر معها ـ كثير فى القرآن وفصيح الكلام . مثاله : قوله : « وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ »(٣) فعاد الضمير إلى العدل الذى دلّ عليه « اعدلوا » . ومثله قوله : « فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا »(٤) أى : لا نشترى بالقسم الذى دلّ عليه قوله : « فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ » .

---

(١) [٥٥ / الرحمن / ٢٦] .

(٢) [٣٠ / الروم / ٤٩] .

(٣) [٥ / المائدة / ٨] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ .

(٤) [٥ / المائدة / ١٠٦] ونصها: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ ، تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ .

وأما قوله : « إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ »(١) ففيه ثلاث تأكيدات : (أحدها) إنّ ، و (الثانى) اللام فى للهدى ، و (الثالث) تقديم الخبر ، فإن العرب لايقدمون إلا مايمتنون به ويهتمّون . ومثله قوله « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ »(٢) وقوله « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً »(٣) أكد بـ (إنّ واللام وتقديم الخبر) .

وقد يتوهم التأكيد فيما ليس بتأكيد فى مثل قوله « تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ »(٤) فإنه لم يرد كمالها فى العدد ، ولو أراده لكان تأكيداً ، وإنما أراد كمالها فى صفتها ، فإن كمال الصيام فى تتابعه . بدليل وجوب المتابعة حيث أمرنا بها فيه . فلما تقرر فى الشريعة أن متابعة الصوم أفضل من تفريقه ، وقيدت هذه الأيام بالتفريق ، فقد يظن ظانّ أنها ناقصة لتفريقها ، وأن كمالها فى تتابعها ـ أخبر أن كمال هذه الأيام فى تفريقها لا فى تتابعها . ويحتمل أن يريد، بالكاملة، كمال الصوم بترك الرفث والفسوق ، وترك المشاتمة ، وغير ذلك مما يكون اجتنابه أو فعله مكملا للصوم . فإن العبادات تنقسم إلى كاملة وناقصة . فالناقصة ما اقتصر فيها على أركانها وشرائطها ؛ والكاملة ما أتى فيها بالأركان والشرائط والسنن .

---

(١) [٩٢ / الليل / ١٢] .
(٢) [٦ / الأنعام / ٩٩] .
(٣) [٧٩ / النازعات / ٢٦] ونصها : إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَىٰ .
(٤) [٢ / البقرة / ١٩٦] .

واعلم أن للتفسير أحكاماً وضروباً ، فمن ذلك :

فهم معنى اللفظ : وهو منقسم إلى ثلاثة أقسام : (أحدها) ما يعرفه العامة والخاصة كالأرض والسماء والجبال والرجال والأشجار والأمطار . (القسم الثانى) ما يعرفه معظم الخاصة كالمعاد والملاذ . (القسم الثالث) ما يعرفه القليل من الخاصة كالرفرف والصفصف .

ومن ضروب التفسير ما يتردد بين محملين : أحدهما أظهر عند النزول فيرجع فيه إلى الصحابة والتابعين ، ويحمل على ظاهره حينئذٍ . ومنه ما يحمل على أخفى محمليه لدليل يقوم عليه . ومنـه ما يتساوى فيه الأمران فيخص أحدهما بالسبب الذى نزل لأجله . ومنه ما يتساوى من غير ترجيح عندنا وهو راجح فى نفس الأمر ، لأن الرسول عليه السلام قد بيّن للناس ما نزل إليهم ؛ فبعض المتأخرين يحمله على جميع محامله . والوقف أولى به .

وقد يتردد بين محامل كثيرة يتساوى بعضها مع بعض ، ويترجح بعضها على بعض .

وأولى الأقوال : ما دلّ عليه الكتاب فى موضع آخر ، أو السنة ، أو إجماع الأمة ، أو سياق الكلام ؛ وإذا احتمل الكلام معنيين وكان حمله على أحدهما أوضح وأشد موافقة للسّياق ـ كان الحمل عليه أولى . وقد يقدر بعض النحاة ما يقتضيه علم النحو . لكن يمنع منه أدلّة شرعية ، فيترك ذلك التقدير ، ويقدر تقدير آخر يليق بالشرع . وقد يعبرّ النحاة والمفسرون وغيرهم بالعام ويريدون به الخاص فيجهله كثير من الناس . وعلى الجملة : فالقاعدة فى ذلك أن يحمل القرآن على أصح المعانى وأفصح الأقوال ، فلا يحمل على معنى ضعيف ، ولا على لفظ ركيك . وكذلك لا يقدر فيه من المحذوفات إلا أحسنها وأشدها موافقة وملاءمة للسياق . وإذا كان للاسم الواحد معانٍ كـ « العزيز » بمعنى القاهر ، وبمعنى الممتنع ، وبمعنى الذى لا نظير له ، حمل فى كل موضع على ما يقتضيه ذلك السياق كيلا ينبتر الكلام وينخرم النظام . وإذا اتحد معنى القراءتين ـ كالسراط والصراط ـ فهذا ظاهر . وإن اختلف معناها وجب القطع بأنهما مرادتان . مثال ذلك قوله « وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا

يُكَذِّبُونَ» و« يَكْذِبُونَ»[١] أخبر بأنهم يعذبون بالتكذيب والكذب ، وهذا اختصار فى صورة الخط ، دون اللفظ .

ومن ضروب التفسير وأحكامه: بيان كون اللفظ حقيقة أو مجازاً. ومنه : بيان رجحان إحدى الحقيقتين على الأخرى . ومنه : بيان رجحان أحد المجازين على الآخر . ومنه :بيان ترجيح الحقيقة على المجاز . ومنه : بيان ترجيح ما يناسب الكلام ويطابقه على ما ليس كذلك . ومنه : ترجيح بعض الإعراب على بعض . ومنه : بيان التقديم والتأخير . ومنه : بيان مظان الإطالة . ومنه: بيان مظان الاختصار . وفائدة الاختصار ، سهولته على المتكلم ، وإيصال المعنى على الفور إلى المخاطب . كقوله تعالى : « فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ »[٢] . ومنه : الحذف وهو أنواع وقد تقدمت فى أول هذا الكتاب ـ يعنى كتابه ـ

ومن ضروب التفسير وأحكامه : تعين المضاف المحذوف . ومنه : ترجيح بعض المضافات المحذوفة على بعض . ومنه : استواء المضافات المحذوفة من غير ترجيح . ومنه : ترجيح بعض المفاعيل المحذوفة على بعض . ومنه : استواؤها . ومنه : تعين بعضها . ومنه : ترجيح بعض ما تصح الإشارة إليه بذلك على بعض . ومنه : تعين ما يشار إليه بذلك . ومنه : عود الإشارة بذلك إلى ما ليس بمذكور . ومنه : ترجيح بعض الموصوفات على بعض . ومنه تعين بعض الموصوفات المحذوفة . ومنه ترجيح ما تعود إليه الضمائر . ومنه : تردد ما تعود إليه الضمائر . ومنه : عود الضمائر إلى ما ليس بمذكور . ومنه : عود الضمائر إلى ما دل عليه اللفظ وليس بمذكور ، انتهى .

---

(١) [٢ / البقرة / ١٠] ونصها : فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ .

(٢) [١٠ / يونس / ١٠٦] ونصها : وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ، فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ .

سر تكرير قصة موسى مع فرعون

ذكرنا قبل ما قاله العز بن عبد السلام ـ فى التكرير ـ من الأسرار الباهرة التى تشمل قصة موسى مع فرعون . ثم رأيت كلاماً ـ فى ذلك ـ لشيخ الإسلام تقىّ الدين بن تيمية ـ فى خلال رسالةٍ له ـ يقول رحمه الله :

« وثنّى فى القرآن قصة موسى مع فرعون لأنهما فى طرفى نقيض ، فى الحق والباطل . فإن فرعون فى غاية الكفر والباطل ، حيث كفر بالربوبية وبالرسالة . وموسى فى غاية الحق والإيمان من جهة أن الله كلمه تكليما لم يجعل الله بينه وبين خلقه واسطةً من خلقه ، فهو مثبت لكمال الرسالة ، وكمال التكليم ، ومثبت لرب العالمين بما استحقه من النعوت ؛ وهذا بخلاف أكثر الأنبياء مع الكفار ، فإن الكفار أكثرهم لايجحدون وجود الله ؛ ولم يكن أيضاً للرسل ـ من التكليم ـ ما لموسى . فصارت قصة موسى وفرعون أعظم القصص ، وأعظمها اعتباراً لأهل الإيمان ولأهل الكفر . ولهذا كان النبىّ ﷺ يقص على أمته عامة ليله عن بنى إسرائيل ، وكان يتأسّى بموسى فى أمورٍ كثيرة ، ولما بُشِّرَ بقتل أبى جهل يوم بدر قال : « هذا فرعون هذه الأمة » . وكان فرعون وقومه من الصابئة المشركين الكفار ؛ ولهذا كان يعبد آلهة من دون الله ، كما أخبر عنه بقوله : « وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ »[1] وإن كان عالماً بما جاء به موسى ، مستيقناً له ، لكنه كان جاحداً مثبوراً ، كما أخبر الله بذلك فى قوله : « فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ . وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا . . . »[2] الآية . وقال تعالى : « وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ

---

(١) [٧ / الأعراف / ١٢٧] ونصها : وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ، قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِى نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ .

(٢) [٢٧ / النمل / ١٣ و١٤] .

تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ . . . ـ إلى قوله ـ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ . . . » الآية[1] .

---

(١) [١٧ / الإسراء / ١٠١ و ١٠٢] ونصهما : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ ، فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا * قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا .

ما اقتضته الحكمة الربانية فى التنزيل الكريم

قال الشيخ ولىّ الله الدهلوىّ ـ قدس سره ـ فى الفوز الكبير :

ليعلم أن المقصود من نزول القرآن تهذيب طوائف الناس من العرب والعجم ، والحضر والبدو . فاقتضت الحكمة الإلٰهية أن لا يخاطب ، فى التذكير بآلاء الله ، بأكثر مما يعلمه أكثر أفراد بنى آدم . ولم يبالغ فى البحث والتفتيش مبالغة زائدة ، وسيق الكلام فى أسماء الله وصفاته عز وجل بوجه يمكن فهمه والإحاطة به بإدراك وفطانة ، خُلقت أفراد الإنسان ، فى أصل الفطرة عليها . بدون ممارسة الحكمة الإلٰهية ، وبدون مزاولة علم الكلام ، فأثبت ذات المبدأ إجمالا ، لأن هذا العلم سار فى جميع أفراد بنى آدم ، لا ترى طائفة منهم فى الأقاليم الصالحة والأمكنة القريبة من الاعتدال ، ينكرون ذلك . ولما امتنع ، بالنسبة إليهم ، إثبات الصفات بطريق تحقيق الحقائق ، مع أنهم إن لم يطلعوا على الصفات الإلٰهية لم ينالوا معرفة الربوبية التى هى أنفع الأشياء فى تهذيب النفوس ـ اقتضت الحكمة الإلٰهية أن يختار شيء من الصفات البشرية الكاملة مما يعلمونها ، ويجرى التمدح بها فيما بينهم ، فتستعمل بإزاء المعانى الغامضة التى لا مدخل للعقول البشرية فى ساحة جلالها ، وجعل نكتة « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ »(1) ترياقاً للداء المضال من الجهل المركب ، ومنع من الصفات البشرية التى تثير الأوهام بجانب العقائد الباطلة فى إثبات مثلها . كإثبات الولد والبكاء والجزع . وإن تأملتَ بتعمق النظر ، وجدتَ الجريان على مسطر العلوم الإنسانية غير المكتسبة ، وميزتَ صفات يمكن إثباتها ، ولا يقع بها خلل من الصفات التى تثيرها الأوهام الباطلة أمراً دقيقاً لا تدركه أذهان العامة . لا جرم كان هـذا العلم توقيفيا ، ولم يؤذن لهم فى التكلم بكل مايشتهون ، واختار سبحانه وتعالى من آلائه وآيات قدرته ، جل وعلا ، ماتساوت فى فهمه

(1) [٤٢ / الشورى / ١١] ونصها : فَاطِرُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ، يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ .

الحضر والبدو والعرب والعجم ، ولهذا لم يذكر النعم النفسانية المخصوصة بالأولياء والعلماء ، ولم يخبر بالنعم الارتفاقية المخصوصة بالملوك . وإنما ذكر سبحانه وتعالى ما ينبغى ذكره . كخلق السموات والأرضين ، وإنزال الماء من السحاب ، وإجرائها من الأرض ، وإخراج أنواع الثمار والحبوب والأزهار بواسطة الماء ، وإلهام الصناعات الضرورية والقدرة على فعلها. وقد قرر فى مواضع كثيرة من التنبيه على اختلاف أحوال الناس عند هجوم المصائب وانكشافها ، ما كان كثير الوقوع من الأمراض النفسانية . واختار من أيام الله – يعنى الوقائع التى أحدثها الله سبحانه وتعالى كتنعيم المطيعين ، وتعذيب العصاة – ما قرع سمعهم . وذكر لهم إجمالا مثل قصص قوم نوح وعاد وثمود . وكان العرب تتلقاها أبًا عن جدٍّ . ومثل قصص إبراهيم وأنبياء بنى إسرائيل عليهم السلام ، فإنها كانت مألوفة لأسماعهم لمخالطة اليهود والعرب فى قرون كثيرة . لا القصص الشاذة غير المألوفة . ولا أخبار المجازاة بين فارس والهنود . وانتزع من القصص المشهورة جملا تنفع فى تذكيرهم . ولم يسرد القصص بتمامها مع جميع خصوصياتها .

والحكمة فى ذلك أن العوام إذا سمعوا القصص النادرة غاية الندرة ، أو استقصى بين أيديهم ذكر الخصوصيات – يميلون إلى القصص نفسها ، ويفوتهم التذكر الذى هو الغرض الأصلىّ فيها . ونظير هذا الكلام ما قاله بعض العارفين : إن الناس لما حفظوا قواعد التجويد شغلوا عن الخشوع فى التلاوة .

ولما ساق المفسرون الوجوه البعيدة فى التفسير صار علم التفسير نادراً كالمعدوم .

ومما تكرر من القصص قصة خلق آدم من الأرض وسجود الملائكة له وامتناع الشيطان منه وكونه ملعوناً . وسعيه بعد ذلك فى إغواء بنى آدم . وقصة مخاصمة نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب عليهم السلام وأقوامهم ، فى باب التوحيد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وامتناع الأقوام من الامتثال بشبهات ركيكة ، مع ذكر جواب الأنبياء . وابتلاء الأقوام بالعقوبة الإلهية ، وظهور نصرته عز وجل للأنبياء وتابعيهم ، وقصة موسى مع فرعون وقومه ، ومع سفهاء بنى إسرائيل ، ومكابرة هذه الجماعة حضرته

عليه الصلاة والسلام . وقيام الله سبحانه وتعالى بعقوبة الأشقياء . وظهور نصرة نبيه مرة بعد مرة ، وقصة خلافة داود وسليمان وآياتهما وكراماتهما . ومحنة أيوب ويونس ، وظهور رحمة الله سبحانه لهما ، واستجابة دعاء زكريا . وقصص سيدنا عيسى العجيبة : من تولده بلا أب ، وتكلمه فى المهد ، وظهور الخوارق منه. فذكرت هذه القصص بأطوار مختلفة إجمالاً وتفصيلاً بحسب ما اقتضاه أسلوب السور .

ومن القصص التى ذكرت مرة أو مرتين فقط رفع سيدنا إدريس ، ومناظرة سيدنا إبراهيم لنمروذ ورؤيته إحياء الطير ، وذبح ولده . وقصة سيدنا يوسف ، وقصة ولادة سيدنا موسى وإلقائه فى اليم، وقتله القبطىّ ، وخروجه إلى مدين وتزوجه هناك . ورؤية النار على الشجرة . وسماع الكلام منها . وقصة ذبح البقرة . وقصة التقاء موسى والخضر . وقصة طالوت وجالوت . وقصة بلقيس . وقصة ذى القرنين . وقصة أصحاب الكهف . وقصة رجلين تحاورا فيما بينهما . وقصة أصحاب الجنة . وقصة رسل عيسى الثلاثة . والمؤمن الذى قتله الكفار شهيداً . وقصة أصحاب الفيل .

فليس المقصود من هذه القصص معرفتها بأنفسها ، بل المقصود انتقال ذهن السامع إلى وخامة الشرك والمعاصى ، وعقوبة الله عليها ، واطمئنان المخلصين بنصرة الله تعالى ، وظهور عنايته عز وجل بهم .

وقد ذكر جل شأنه من الموت وما بعده كيفية موت الإنسان ، وعجزه فى تلك الساعة، وعرض الجنة والنار عليه بعد الموت ، وظهور ملائكة العذاب .

وقد ذكر أشراط الساعة من نزول عيسى ، وخروج دابة الأرض ، وخروج يأجوج ومأجوج ، ونفخة الصعق، ونفخة القيام ، والحشر والنشر ، والسؤال والجواب ، والميزان ، وأخذ صحف الأعمال باليمين والشمال، ودخول المؤمنين الجنة ، ودخول الكفار النار ، واختصام أهل النار من التابعين والمتبوعين فيما بينهم ، وإنكار بعضهم على بعض ، ولعن بعضهم بعضاً ، واختصاص أهل الإيمان برؤية الله عز وجل ، وتلوّن أنواع التعذيب من السلاسل والأغلال والحميم والغسّاق والزقوم . وأنواع التنعيم من الحور والقصور ، والأنهار والمطاعم الهنيئة ،

والملابس الناعمة ، والنساء الجميلة ، وصحبة أهل الجنة فيما بينهم صحبةً طيبة مفرحة للقلوب .

فتفرقت هذه القصص فى سور مختلفة بإجمال وتفصيل بحسب اقتضاء أسلوبها .

والكلية فى مباحث الأحكام أنه صلى الله عليه وسلم بعث بالملة الحنيفية . فلزم بقاء شرائع تلك الملة ، وعدم التغيير فى أمهات تلك المسائل ، سوى تخصيص العموم ، وزيادة التوقيمات والتحديدات ونحوها .

وأراد الله سبحانه وتعالى أن يزكى العرب بحضرة النبى ﷺ . ويزكى سائر الأقاليم بالعرب. فلزم أن تكون مادة شريعته ﷺ على رسوم العرب وعاداتهم . وإذا نظرت إلى مجموع شرائع الملة الحينفية ، ولاحظت رسوم العرب وعاداتهم ، وتأملت تشريعه ﷺ الذى بمنزلة الإصلاح والتسوية ـ تحققت لكل حكم سبباً ، وعلمت لكل أمر ونهى مصلحة . وتفصيل الكلام طويل .

وبالجملة ، فقد كان وقع فى العبادات من الطهارة والصلاة والصوم والزكاة والحج فتور عظيم من التساهل فى إقامتها ، واختلاف الناس فيها ، بسبب عدم التوقيت فى أكثرها ، ودخول تحريفات أهل الجاهلية فيها ، فأسقط القرآن عدم النسق منها ، وسواها حتى استقام أمرها .

وأما تدبير المنزل فقد كان وقع فيه رسوم ضارة وأنواعُ تمدّ وعتوّ .

وكذلك أحكام السياسة المدنية كانت مختلة ، فضبط القرآن العظيم أصولها ، وحدودها ، ووقتها . وذكر من هذا الباب أنواع الكبائر ، وكثيراً من الصغائر ، وذكرت مسائل الصلاة بطريق الإجمال. وذكر فيها لفظ إقامة الصلاة . ففصّلها رسول الله ﷺ بالأذان وبناء المساجد والجماعة والأوقات . وذكرت مسائل الزكاة أيضاً بالاختصار ، ففصلها ﷺ تفصيلًا . وذكر الصوم فى سورة البقرة . والحج فيها وفى سورة الحج . والجهاد فى سورة البقرة والأنفال ، وفى مواضع متفرقة . والحدود فى المائدة والنور . والميراث والنكاح والطلاق فى سورة البقرة والنساء والطلاق ، وغيرها .

وإذا عرفتَ القسم الذى تعم فائدته جميع الأمة ، فهنالك قسم آخر . وذلك مثل أنه كان يعرض عليه ﷺ سؤال فيجيب ، أو بذل النفس والأموال من أهل الإيمان فى حادثة ،

وإمساك المنافقين واتباعهم الهوى ـ فمدح الله سبحانه المؤمنين ، وذم المنافقين مع تهديدهم . أو وقعت حادثة من قبيل نصرة على الأعداء وكف ضررهم ـ فمنّ الله سبحانه وتعالى على المؤمنين ، وذكّرهم بتلك النعمة . أو عرضت حاجة تحتاج إلى تنبيه وزجر أو تعريض أو إيماء أو أمر أو نهى ـ فأنزل الله سبحانه فى ذلك الباب .

فما كان من هذا القبيل فلابد للمفسر من ذكر تلك القصص بطريق الإجمال .

وقد جاءت تعريضات فى قصة بدر فى الأنفال . وبقصة أُحُد فى آل عمران . وبالخندق فى الأحزاب . وبالحديبية فى الفتح . وبنى النضير فى الحشر . وجاء الحث على فتح مكة وغزوة تبوك فى براءة . والإشارة إلى حجة الوداع فى المائدة . والإشارة إلى قصة نكاح زينب فى الأحزاب . وتحريم السرّية فى سورة التحريم[1] . وقصة الإفك فى سورة النور .

---

(١) جاء فى صحيح مسلم (حديث رقم ١٤٧٤ ، ١٨ ـ كتاب الطلاق ، ح ٢٠) :

عن عائشة أن النبىّ ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش فيشرب عندها عسلا . قالت : فتواطيت أنا وحفصة أن أيتنا ما دخل عليها النبىّ ﷺ فلتقل : إنى أجد منك ريح مغافير، أكلت مغافير؟ فدخل على إحداها فقالت ذلك له . فقال « بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش ولن أعود له » فنزل : لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ [٦٦/التحريم/١] إلى قوله: إِنْ تَتُوبَا (لعائشة وحفصة) [٦٦/التحريم/٤] وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا (لقوله : بل شربت عسلا) [٦٦/التحريم/٣] .

ولقد علقتُ عليه ما يأتى منقولا عن الإمامين النووىّ والقاضى عياض :

هذا ظاهر فى أن الآية نزلت فى سبب ترك العسل . وفى كتب الفقه إنها نزلت فى تحريم مارية . قال القاضى : اختلف فى سبب نزولها . فقالت عائشة : فى قصة العسل . وعن زيد ابن أسلم أنها نزلت فى تحريم مارية ، جاريته ، وحلفه أن لا يطأها . قال . ولا حجة فيه لمن أوجب بالتحريم كفارة . محتجا بقوله تعالى : قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ . لما روى أنه ﷺ قال « والله ! لا أطؤها » ثم قال « هى علىّ حرام » وروى مثل ذلك من حلفه على شربه العسل وتحريمه . ذكره ابن المنذر .

وفى رواية البخارىّ « لن أعود له . وقد حلفت أن لا تخبرى بذلك أحداً » . =

واستماع الجن تلاوته ﷺ فى سورة الجن والأحقاف . ومسجد الضرار فى براءة . وأشير إلى قصة الإسراء فى أول بنى إسرائيل .

وهذا القسم أيضاً فى الحقيقة من باب التذكير بأيام الله . ولكن لما توقف حل التعريضات فيه على سماع القصة ــ ميز من سائر الأقسام .

= وقال الطحاوىّ : قال النبىّ ﷺ فى شرب العسل «لن أعود إليه أبدا» ولم يذكر يمينا . لكن قوله تعالى : قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ــ يوجب أن يكون قد كان هناك يمين.

قلت : ويحتمل أن يكون معنى الآية : قد فرض الله عليكم فى التحريم كفارة يمين . وهكذا يقدره الشافعىّ وأصحابه وموافقوهم .

قال القاضى : ذكر مسلم فى حديث حجاج عن ابن جريج أن التى شرب عندها العسل هى زينب . وأن المتظاهرتين عليه عائشة وحفصة . وكذلك ثبت فى حديث عمر بن الخطاب وابن عباس أن المتظاهرتين عائشة وحفصة ، رضى الله عنهما .

وذكر مسلم أيضاً من رواية أبى أسامة عن هشام أن حفصة هى التى شرب العسل عندها. وأن عائشة وسودة وصفية هن اللواتى تظاهرن عليه . قال : والأول أصح .

قال النسائىّ : إسناد حديث حجاج صحيح ، جيد غاية .

وقال الأصيلىّ : حديث حجاج أصح ، وهو أولى بظاهر كتاب الله تعالى وأكمل فائدة. يريد قوله تعالى : وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ . فهما ثنتان لا ثلاث . وأنهما عائشة وحفصة ، كما قال فيه . وكما اعترف به عمر رضى الله عنه . وقد انقلبت الأسماء على الراوى فى الرواية الأخرى.

كما أن الصحيح فى سبب نزول الآية أنها فى قصة العسل ، لا فى قصة مارية ، المروىّ فى غير الصحيحين . ولم تأت قصة مارية ، من طريق صحيح .

وقال النسائىّ : إسناد حديث عائشة فى العسل جيد . صحيح غاية . هذا آخر كلام القاضى. ثم قال القاضى بعد ذلك : الصواب أن شرب العسل كان عند زينب .

ذكر بديع أسلوب القرآن الكريم

قال الإمام الدهلوىّ فى كتابه المنوه به قبل :

ولنبين هذا المبحث فى فصول :

الفصل الأول

لم يجعل القرآن مبوباً مفصلاً ليطلب كل مطلب منه فى باب أو فصل ، بل كان كمجموع المكتوبات فرضاً ، كما يكتب الملوك إلى رعاياهم ، بحسب اقتضاء الحال ، مثالاً ، وبعد زمان يكتبون مثالاً آخر ، وعلى هذا القياس . حتى تجتمع أمثلة كثيرة ، فيدونها شخص حتى يصير مجموعاً مرتباً . كذلك نزل الملك على الإطلاق جل شأنه على نبيه ﷺ لهداية عباده ، سورة بعد سورة بحسب اقتضاء الحال . وكان فى زمانه ﷺ كل سورة محفوظة ومضبوطة على حدة ، من غير تدوين السور ، ثم رتبت السور فى مجلد بترتيب خاص فى زمان أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، وسمى هذا المجموع بالمصحف، وقد كانت السور مقسومة عند الصحابة إلى أربعة أقسام : القسم الأول : السبع الطوال التى هى أطول السور ، والقسم الثانى : سور فى كل منها مائة آية وتزيد شيئاً قليلا ، والقسم الثالث . ما فيه أقل من المائة وهى المثانى ، والقسم الرابع : المفصّل .

وقد أدخل فى ترتيب المصحف سورتان أو ثلاث من عداد المثانى ، فى المئين . لمناسبة سياقها بسياق المئين . وعلى هذا القياس ربما وقع فى بعض الأقسام أيضاً تصرف . واستنسخ عثمان رضى الله عنه ، من ذلك المصحف ، مصاحف أرسل بها إلى الآفاق ليستفيدوا منها ، ولا يميلوا إلى ترتيب آخر . ولما كان بين أسلوب السور ، وأسلوب أمثلة الملوك مناسبة تامة، روعى فى الابتداء والانتهاء طريق المكاتيب ، كما يبتدئون فى بعض المكاتيب بحمد الله عز وجل ، والبعض الآخر ببيان غرض الإملاء ، والبعض الآخر باسم المرسِل والمرسَل إليه . ومنها ما يكون رقعة وشقة بغير عنوان ، وبعضها يكون مطولاً وبعضها يكون مختصراً

كذلك سبحانه وتعالى صدّر بعض السور بالحمد والتسبيح ، وبعضها ببيان غرض الإملاء ، كما قال عز وجل : « ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ »(١) ، « سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا »(٢) ، وهذا القسم يشبه ما يكتب « هذا ما صالح فلان وفلان » و « هذا ما أوصى به فلان » . وكان النبيّ ﷺ كتب فى واقعة الحديبية(٣) : « هذا ما قاضى عليه محمد ﷺ » .

وبعضها يذكر المرسِل والمرسَل إليه كما قال : « تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ »(٤) ، « كِتَابٌ أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ »(٥) ، وهذا القسم يشبه ما يكتبون : « صدر الحكم من حضرة الخلافة » ، أو يكتبون : « هذا إعلام لسكنة البلدة الفلانية من حضرة الخلافة » .

وقد كان كتب ﷺ : « من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم » .

وبعضها على أسلوب الرقاع والشقق بغير عنوان ، كما قال عز وجل : « إِذَا جَاءَكَ

(١) [٢ / البقرة / ٢] .

(٢) [٢٤ / النور / ١] ونصها : سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .

(٣) يشير إلى حديث البخاريّ (٥٤ ـ كتاب الشروط ، ١٥ ـ باب الشروط فى الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط) الذى رواه المسور بن مخرمة ومروان عن غزوة الحديبية .

(٤) [٣٩ / الزمر / ١] و [٤٥ / الجاثية / ٢] و [٤٦ / الأحقاف / ٢] .

(٥) [١١ / هود / ١] ونصها : الر . كِتَابٌ أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ .

الْمُنَافِقُونَ »(١) ، « قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا »(٢) ، « يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ »(٣) .

ولما كانت للقصائد فى فصاحة الكلام شهرة عند العرب ، وكان من عاداتهم فى مبدأ القصائد التشبيب بذكر مواضع عجيبة ، ووقائع هائلة ـ اختار الله عز وجل هذا الأسلوب فى بعض السور ، كما قال : « وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا »(٤) ، « وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا * فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا »(٥) ، « إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ »(٦) .

وكما كانوا يختمون المكاتيب بجوامع الكلم ، ونوادر الوصايا ، وتأكيد الأحكام السابقة ، وتهديد من يخالفها ـ كذلك الله سبحانه ختم أواخر السور بجوامع الكلم ومنابع الحكم ، والتأكيد البليغ ، والتهديد العظيم .

وقد يصدر فى أثناء السور الكلام البليغ ، العظيم الفائدة ، البديع الأسلوب ، بنوع من الحمد والتسبيح ، أو بنوع من بيان النعم والامتنان . كما صدر بيان التباين بين مرتبة الخالق والمخلوق بـ « قُلِ الْحَمْدُ لِلهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ، ءَاللهُ خَيْرٌ أَمْ مَا يُشْرِكُونَ »(٧) ثم بين هذا المدعى فى خمس آيات بأبلغ وجه ، وأبدع أسلوب .

---

(١) [٦٣ / المنافقون / ١] ونصها : إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ .

(٢) [٥٨ / المجادلة / ١] ونصها : قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِى إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ، إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ .

(٣) [٦٦ / التحريم / ١] ونصها : يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ ، تَبْتَغِى مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٤) [٣٧ / الصافات / ١ و٢] .

(٥) [٥١ / الذاريات / ١ و ٢] .

(٦) [٨١ / التكوير / ١ و ٢] .

(٧) [٢٧ / النمل / ٥٩] .

كما صدر مخاصمة بني إسرائيل في أثناء سورة البقرة بـ « يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا ... » ثم ختمها بهذه الكلمة أيضاً .

وابتداء المخاصمة بهذا الكلام وانتهاؤه به محل عظيم في البلاغة .

وكذلك صدر مخاصمة أهل الكتابين في آل عمران بآية «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ»(١) ليتصور محل النزاع ويتوارد القيل والقال على ذلك المدعى ، والله أعلم بحقيقة الحال .

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٩] .

الفصل الثاني

قد جرت سنة الله عز وجل فى أكثر السور بتقسيمها إلى الآيات . كما كانوا يقسمون القصائد إلى الأبيات . غاية الأمر أن بين الآيات والأبيات فرقا . كل منهما ينشد لالتذاذ نفس المتكلم والسامع . إلا أن الأبيات مقيدة بالعروض والقافية التى دوّنها الخليل وحفظها الشعراء . وبناء الآيات على وزن وقافية إجماليين يشبهان أمراً طبيعياً، لا على أفاعيل العروضيين وتفاعيلهم وقوافيهم المعينة التى هى أمر صناعىّ واصطلاحىّ ، وتنقيح ماوقع من الأمر المشترك بين الأبيات والآيات . وتطلق النشائد بإزاء ذلك الأمر العام ، ثم ضبط أمور وقع فى الآيات التزامها ، وذلك بمنزلة الفصل يحتاج إلى التفصيل . والله ولىّ التوفيق .

تفصيل هذا الإجمال ؛ أن الفطرة السليمة تدرك فى القصائد الموزونة المقفاة والأراجيز الرائقة وأمثالها ، لطفاً وحلاوة بالذوق . وإذا تأملت سبب إدراك اللطف المذكور ، فليكن ورود كلام بعض أجزائه يوافق بعضاً مفيداً للذة فى نفس المخاطب مع انتظار مثله . حتى إذا وقع فى نفسه بيت آخر بتوافق الأجزاء المعلوم ، وتحقق الأمر المنتظر ، تضاعفت اللذة عنده، فحسب كأن البيتين بينهما اشتراك فى القافية . فتضاعفت اللذة ثالثة . فالالتذاذ بالأبيات بهذا السر فطرة قديمة للناس . والأمزجة السليمة من أهل الأقاليم المعتدلة متفقة على ذلك .

ثم وقعت فى توافق الأجزاء من كل بيت ، وفى شرط القافية المشتركة بين الأبيات ، مذاهب مختلفة ورسوم متباينة ، فاختار العرب قانونا وضعه الخليل وأوضحه إيضاحاً .

والهنود يتبعون رسماً يحكم به ذوقهم وقريحتهم ، وكذلك اختار أهل كل زمان وضعاً وسلكوا طريقاً . فإذا انتزعنا من هذه الرسوم والمذاهب المختلفة أمرا جامعاً ، وتأملنا سرًّا منتشراً ، وجدنا الموافقة أمراً تخمينيا لا غير .

مثلا ، يذكر العرب مقام مستفعلن مفاعلن ومفتعلن ، ويعدون مقام فاعلاتن فعلاتن وفاعلتن على القاعدة ، ويجعلون موافقة ضرب بيت بضرب بيت آخر ، وموافقة عروض بيت لعروض بيت آخر — من المهمات . ويجوّزون فى الحشو كثيراً من الزحافات . بخلاف شعراء

الفرس . فإن الزحافات عندهم مستهجنة . وكذلك تستحسن العرب إن كانت القافية فى بيت « قبور » أن يكون فى بيت آخر « مثير » بخلاف شعراء العجم . وكذلك شعراء العرب يعدون « حاصل » و « داخل » و « نازل » من قسم واحد بخلاف شعراء العجم . وكذلك وقوع كلة فى المصراعين ، بحيث يكون نصفها فى مصراع ونصفها الآخر فى مصراع آخر عند العرب لا عند العجم . وبالجملة فإن موافقة الأمر المشترك موافقة تخمينية ، لا موافقة حقيقية. ومبنى أوزان الأشعار عند الهند على عدد الحروف، بغير ملاحظة الحركات والسكنات، وهو أيضاً مما يتلذذ به . وقد سمعنا بعض أهل البدو ، ممن يتلذذ بتغريداته ، يختارون كلاماً متوافقاً بتوافق تخمينىّ ، برديف يكون تارة كلة واحدة وأخرى يزيد عليها . وينشدون تغريداتهم مثل القصائد . فيتلذذون بها . ولكل قوم أسلوب خاص فى نظمهم . وعلى هذا القياس وقع اتفاق الأمم على الالتذاذ بألحان ونغمات واختلافهم فى رسوم التغريد والقواعد محقق.

وقد استنبط اليونانيون أوزاناً سموها بالمقامات . واستخرجوا منها شعبا ودوّنوا لهم فناً شديد التفصيل . وأهل الهند تفطنوا لستّ نغمات وفرّعوا منها نُغَيْمات . وقد رأينا أهل البدو تباعدوا عن هذين الاصطلاحين ، وتفطنوا بحسب سليقتهم للتأليف والإيقاع ، فهذبوا لهم أوزانا معدودة بغير ضبط الكليات وحصر الجزئيات . فإذا نظرنا بعد هذه الملاحظات إلى حكم الحدس لم نجد ههنا أمرا مشتركا سوى الموافقة التخمينية . ولا يتعلق تخمين العقل إلا بذلك المنتزع الإجمالىّ . لا بتفصيل القوافى المردفة الموصلة ، ولا يحب الذوق السليم إلا تلك الحلاوة المحضة ، ، لا الطويل والمديد من البحور .

لما أراد حضرة الخلّاق أن يكالم الإنسان ، الذى هو قبضة من التراب ، نظر إلى ذلك الحسن الإجمالىّ لا إلى قوالب مستحسنة عند قوم دون قوم ، ولما أراد مالك الملك أن يتكلم على منهج الآدميين ، ضبط ذلك الأصل البسيط ، لا هذه القوانين المتغيرة بتغير الأدوار والأطوار . ومنشأ التمسك بالقوانين المصطلح عليها هو العجز والجهل ، وتحصيل الحسن الإجمالىّ ، بلا توسط تلك القواعد بحيث لا يفوت فى الأغوار والأنجاد من البيان شىء ، ولا يضيع فى كل سهل وجبل من الكلام معجز ومفحم .

وأنا أنتزع هنا من جريان الحق سبحانه وتعالى على ذلك السنن أصلا . وأنتقل إلى قاعدة . وتلك القاعدة أنه اعتبر فى أكثر السور امتداد الصوت ، لا الطويل والمديد من البحور مثلاً ، واعتبر فى الفواصل انقطاع النفس بالمدة ، وما تعتمد عليه المدة ، لا قواعد فن القوافى ، وهذه الكلمة أيضاً تقتضى بسطاً . فاستمع لما أقول :

تردُّدُ النَّفَس فى قصبة العنق من جبلة الإنسان . وإن كان تطويل النفس وتقصيره من مقدور البشر . لكنْ إذا خُلّى وطبعه فلابد من امتداد محدود . فيحصل فى أول خروج النفس نشاط ، ثم يضمحل ذلك النشاط تدريجا حتى ينقطع فى آخر الأمر . فيحتاج إلى إعادة نَفَس جديد . وهذا الامتداد أمر محدود بحدّ مبهم . ومقدر بمقدار منتشر لا يتجاوز نقصانه كلمتين ، بل لا يتجاوز الثلث والربع ، والزيادة لا تتجاوز كلمتين ، بل لا تتجاوز الثلث والربع من ذلك الحد . ويسع ذلك اختلاف عدد الأوتاد والأسباب وتقدم بعض الأركان على بعض ، فجعل لامتداد النفس وزن معلوم . وقسم ذلك على ثلاثة أقسام: طويل ومتوسط وقصير .

أما الطويل فنحو سورة النساء ، وأما المتوسط فنحو سورة الأعراف والأنعام ، وأما القصير فنحو سورة الشعراء وسورة الدخان .

وتمام النفَس يعتمد على مدة معتمدة على حرف قافيه متسعة يوافقها ذوق الطبع ، ويتلذذ من إعادتها مرة بعد أخرى ، وإن كانت المدة ، فى موضعٍ ، ألفاً ، وفى موضع آخر ، واوا أوياء. وسواء كان ذلك الحرف الأخير باء فى موضع ، أو جيماً . أو قافا فى موضع آخر ، (فيعلمون) و(مؤمنين) و(مستقيم) متوافقة . و(خروج) و(مريج) و(تحيد) و(تبار) و(فواق) و(عجاب) كلها على قاعدة . وكذلك لحوق الألف فى آخر الكلام قافية متسعة، فى إعادتها لذة . وإن كان حرف الروىّ مختلفاً فيقولون ، فى موضعٍ (كريما) ، وفى موضع آخر ، (حديثا) ، وفى موضع ثالثٍ (بصيرا) فإن التزم فى هذه الصورة موافقة الروىّ ، كان من قبيل التزام ما لا يلزم . كما وقع فى أوائل سورة مريم وسورة الفرقان .

وكذلك توافق الآيات بحرف قبل الميم فى سورة القتال (سورة محمد ﷺ) والنون فى

سورة الرحمن يفيد لذة كما لا يخفى . وكذلك إعادة جملة بعد طائفة تفيد لذة . كما وقع فى سورة الشعراء وسورة القمر وسورة الرحمن وسورة المرسلات ، وقد تخالف فواصلُ آخرِ السورة أولَها لتطريب ذهن السامع وللإشعار بلطافة ذلك الكلام مثل (إدًّا) (وهدًّا) فى آخر سورة مريم ، ومثل (سلاما) و(كراما) فى آخر سورة الفرقان ، و(طين) و(ساجدين) و(ينظرون) فى آخر سورة ص . مع أن أوائل هذه السور مبنية على فاصلة أخرى كما لايخفى . فجمل الوزن والقافية المذكوران فى أكثر السور من المهمات . إن كان اللفظ الأخير من الآية صالحا للقافية فيها . وإلّا وصل بجملة فيها بيان آلاء الله أو تنبيه للمخاطب. كما يقول (وهو الحكيم الخبير) ، (وكان الله عليما حكيما) ، (وكان الله بما تعملون خبيرا) (لعلكم تتقون) (إن فى ذلك لآيات لأولى الألباب) ، (إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) . وقد أطنب فى مثل هذه المواضع أحياناً مثل (فاسأل به خبيرا) ، ويستعمل التقديم والتأخير مرة ، والقلب والزيادة أخرى. مثل (إلياسين) فى إلياس ، و (طورسينين) فى سيناء . وليعلم ههنا أن انسجام الكلام وسهولته على اللسان لكونه مثلا سائرا، أو لتكرر ذكره فى الآية ـ ربما يجعل الكلام الطويل موزوناً مع الكلام القصير . وقد تكون الفقر الأول أقصر من الفقر التالية ، وهو يفيد عذوبة فى الكلام . (خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۞ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۞ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ)(١) كأن المتكلم يقدر فى مثل هذا الكلام أن الفقرة الأولى والثانية، من حيث المجموع، فى كفة ، والثالثة، وحدها، فى كفة.

وربما تكون الآية ذات قوائم ثلاث نحو : (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ)(٢) الآية . (وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ ...)(٣) الآية .

(١) [٦٩ / الحاقة / ٣٠ ـ ٣٢] .

(٢) [٣ / آل عمران / ١٠٦] ونصها : يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ.

(٣) [٣ / آل عمران / ١٠٧] ونصها : وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

والعامة يصلون الأول بالثانى فيحسبون الآية طويلة . وقد تجىء فى آية فاصلتان كما يكون فى البيت أيضاً مثل :

كالزهر فى ترف ، والبدر فى شرف والبحر فى كرم ، والدهر فى همم

وقد تكون الآية أطول من سائر الآيات . والسر ههنا إذا جعل حسن الكلام الناشىء من تقارب الوزن ووجد أن الأمر المنتظر وهو القافية فى كفة ، وجعل حسن الكلام الناشىء من سهولة الأداء وموافقة طبع الكلام وعدم لحوق التغيير فيه فى كفة أخرى ـ ترجح الفطرة السليمة جانب المعنى ، فيترك أحد الانتظارين مهملا ، ويوفى الحق فى الانتظار الثانى.

وإنما قلنا فى صدر المبحث : قد جرت سنة الله عز وجل على هذا فى أكثر السور، لأنه ما ظهرت فى بعض السور رعاية هذا القسم من الوزن والقافية . فوقعت طائفة من الكلام على نهج خطب الخطباء وأمثال أهل النكت . ألم تسمع[1] مسامرة النساء المروية عن سيدتنا عائشة رضى الله عنها فانظر فى قوافيها . وفى بعض السور وقع الكلام على منهج كتب العرب بلا رعاية شىء . كمحاورة بعض الناس لبعض . إلا أنه يختم كل كلام بشىء يكون مبنيا على الاختتام . والسر ههنا أن الأصل فى لغة العرب الوقف فى موضع ينتهى فيه النفَس ويفنى نشاط الكلام . والمستحسن فى محل الوقف انتهاء النفس على المدة ، هذا هو الوجه فى ظهور صورة الآيات . هذا ما فتح الله على الفقير والله أعلم .

إن سألوا . لما تكررت مطالب الفنون الخمسة (أعنى علم الأحكام ، وعلم الرد على الفرق الضالة ، وعلم التذكير بآلاء الله من نحو بيان خلق السموات ، وعلم التذكير بأيام الله كالوقائع التى أوجدها من جنس تنعيم المطيعين وتعذيب المجرمين ، وعلم التذكير بالموت وما بعده) فى القرآن العظيم ، ولِمَ لَمْ يكتف بموضع واحد ؟ قلنا : الذى نريد إفادته للسامع ينقسم إلى قسمين :

(١) يشير إلى حديث أم زرع الذى روته السيدة عائشة رضى الله عنها، وأخرجه البخارىّ فى : ٦٧ ـ كتاب النكاح ، ٨٢ ـ باب حسن المعاشرة مع الأهل . وأخرجه مسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث ٩٢ .

الأول : أن يكون المقصود هناك مجرد تعليم ما لا يعلم ، فالمخاطب لم يكن عالمًا بالحكم، وما كان ذهنه مُدْرِكاً له ، فيعلم ذلك المجهول باستماع الكلام ويصير المجهول معلومًا .

والثانى : أن يكون المقصود استحضار صورة ذلك العلم فى المدركة ليتلذذ به لذة تامة وتفنى القوى القلبية والإدراكية فى ذلك العلم ، ويغلب القوى كلها حتى تنصبغ بذلك العلم، كما نكرر أحياناً معنى شعر علمناه ، وندرك منه لذة فى كل مرة ، ونحب التكرار لتلك اللذة، والقرآن العظيم أراد من قسمى الإفادة بالنسبة إلى كل واحد من مطالب الفنون الخمسة ـ تعليم ما لا يعلم بالنسبة إلى الجاهل ، وصبغ النفوس بتلك العلوم من التكرار بالنسبة إلى العالم . إلا أن أكثر مباحث الأحكام لم يحصل تكرارها . لأن الإفادة الثانية غير مطلوبة فيها . ولذا أمر بتكرار التلاوة فى الشريعة ، ولم يكتف بمجرد الفهم ولكن الفرق أنهم اختاروا فى أكثر الأحوال تكرار تلك المسائل بعبارة جديدة وأسلوب غريب ليكون أوقع فى النفس وألذّ فى الأذهان دون التكرار بلفظ واحد . والذهن يخوض فى صورة اختلاف التعبيرات وتغاير الأسلوب ، ويتعمق الخاطر بأسره .

إن سألوا: لم نشر هذه المطالب فى سور القرآن ، ولم يراع الترتيب فيذكر آلاء الله أولا ، ويستوفى حقها ، ثم يذكر أيام الله ، ثم مخاصمة الكفار ؟ قلنا : وإن كانت القدرة الإلٰهية شاملة للممكنات كلها ، ولكن الحاكم فى هذه الأبواب الحكمة . والحكمة موافقة المبعوث إليهم فى اللسان ، وأسلوب البيان ، وأشير إلى هذا المعنى فى آية : « لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ ، ءَأَعْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ . . . »[1] وما كان فى العرب إلى وقت نزول القرآن كتاب ، لا من الكتب الإلٰهية ، ولا من مؤلف البشر . وما كان العرب يعلمون ما اخترع المصنفون الآن من الترتيب . فإن كنت فى شك من هذا فتأمل قصائد الشعراء المخضرمين ، واقرأ رسائل النبىّ ﷺ ، ومكاتيب عمر الفاروق رضى الله عنه ليتضح هذا المعنى . فلو قيل بخلاف

(١) [٤١ / فصلت / ٤٤] ونصها: وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَاناً أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ ، ءَأَعْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ، قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِى ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ .

طورهم ، لبقوا في حيرة حين يصل إلى سمعهم شيء غير معهود ، فيشوش فهمهم . وأيضاً ليس المقصود مجرد الإفادة ، بل الإفادة مع الاستحضار والتكرار ، وهذا المعنى ، في غير المرتب ، أقوى وأتم .

إن سألوا لمَ لم يختر وزناً وقافية . يعتبران عند الشعراء ، فإنهما ألذّ من هذا الوزن والقافية ؟ قلنا : كونهما ألذّ ، يختلف باختلاف الأقوام والأذهان . وعلى التسليم ، فإبداع طور من الوزن والقيافة على لسان حضرة نبينا ﷺ ، وهو أمّيّ ، آيةٌ ظاهرةٌ على نبوته ﷺ . ولو نزل القرآن على وزن الشعراء وقافيتهم لحسب الكفار أنه هو الشعر المشهور المعروف في العرب ، ولم يأخذوا من ذلك الحسبان فائدة ، كما إذا أراد البلغاء من أهل النظم والنثر أن يثبتوا مزيتهم ورجحانهم على المعاصرين على رؤوس الأشهاد ، استنبطوا صناعة غريبة ، وقالوا : هل يستطيع أحد أن يقول شعرا أو غزلاً على هذا الطور ؟ أو يكتب كتابا على هذا النمط ؟ ولو كان إنشاؤهم على الطور القديم لما ظهرت براعتهم إلا عند المحققين .

إن سألوا عن إعجاز القرآن : من أي وجه هو ؟ قلنا : المحقق عندنا أنه لوجوه كثيرة :

منها الأسلوب البديع . لأن العرب كانت لهم ميادين معلومة يُرْكضون فيها جوادَ البلاغة ويُحرزون قصبات السبق في مسابقة الأقران بالقصائد والخطب ، والرسائل والمحاورات . وما كانوا يعرفون أسلوبا غير هذه الأوضاع الأربعة ، ولا يتمكنون من إبداعه . فإبداع أسلوب غير أساليبهم على لسان حضرته ﷺ ، وهو أمّيّ ، عَيْنُ الإعجاز .

ومنها الإخبار بالقصص والأحكام والملل السابقة ، بحيث كان مصدقاً للكتب السابقة .

ومنها الإخبار بأحوال مستقبلة . فكلما وجد شيء على طبق ذلك الإخبار ظهر إعجاز جديد .

ومنها الدرجة العليا في البلاغة مما ليس مقدورا للبشر . ونحن لما جئنا بعد العرب الأول ، ما كنا لنصل إلى كنه ذلك ، ولكن القدْر الذي علمناه أن استعمال الكلمات والتركيبات العذبة الجزلة مع اللطافة وعدم التكلف في القرآن العظيم – أكثر منه في قصائد المتقدمين والمتأخرين . فإنا لا نجد من ذلك فيها قدر ما نجده في القرآن ، وهذا أمر ذوقيّ يتمكن من معرفته المهرة من الشعراء ، وليس للعامة من الناس ذائقة في هذا الأمر . وأيضاً نعلم من

الغرابة فيه إنه يلبس المعانى من أنواع التذكير والمخاصمة فى كل موضع لباسا يناسب أسلوب السورة ، وتقصر يد المتطاول عن نيله ، وإن كان أحد لا يفهم هذا الكلام فليتأمل إيراد قصص الأنبياء ، فى سورة الأعراف ، وهود والشعراء ، ثم لينظر تلك القصص فى الصافات، ثم فى الذاريات ليظهر له الفرق . وكذلك تعذيب العصاة وتنعيم المطيعين فإنه يذكر فى كل مقام بأسلوب جديد . ويذكر مخاصمة أهل النار فى كل مقام بصورة على حدة . والكلام فى هذا يطول .

وأيضاً نعلم إنه لا يتصور رعاية مقتضى المقام ، الذى تفصيله فى فن المعانى، والاستعارات، والكنايات ، التى تكفل بها فن البيان مع رعاية حال المخاطبين الأميين الذين لا يعرفون هذه الصناعات ــ أحسن مما يوجد فى القرآن العظيم . فإن المطلوب ههنا أن يذكر فى المخاطبات المعروفة التى يعرفها كل من الناس نكتة رائقة للعامة ، مرضية عند الخاصة ، وهذا المعنى كالجمع بين النقيضين .

يزيدك وجهه حسنا إذا ما زدته نظراً

ومن جملة وجوه الإعجاز ما لا يتيسر فهمه لغير المتدبرين فى أسرار الشرائع . وذلك أن العلوم الخمسة نفسها . تدل على أن القرآن نازل من عند الله لهداية بنى آدم ، كما أن عالم الطب إذا نظر فى القانون ولاحظ تحقيقه وتدقيقه فى بيان أسباب الأمراض وعلاماتها ، ووصف الأدوية ــ لا يشك أن المؤلف كامل فى صناعة الطب . كذلك إذا علم عالِمُ أسرار الشرائع ما ينبغى إلقاؤه على أفراد الناس فى تهذيب النفوس ، ثم يتأمل فى الفنون الخمسة ــ يتحقق أن هذه الفنون قد وقعت موقعها بوجه لا يتصور أحسن منه . والنور يدل نفسه على نفسه. انتهى المنقول من الفوز الكبير .

الرخصة بقراءة القرآن على سبعة أحرف فى العهد النبوىّ

ورد عن النبىّ ﷺ ، من رواية جمع من الصحابة أنافوا على المشرين ـ كما فى الإتقان ـ وعدّ أبو عبيد الحديث المروىّ فيه متواتراً[١] : أن القرآن أنزل على سبعة أحرف .

ومما خرجه رواة الصحاح من طرقه : ما وقع لعمر بن الخطاب رضى الله عنه[٢] وتلبيبه هشام بن حكيم بردائه ، وانطلاقه به يقوده إلى رسول الله صلوات الله عليه وقوله : يارسول الله سمعت هشاماً يقرأ على حرف لم تقرئنيه . فاستقرأه عليه السلام فقرأ عليه . فقال : « كذلك أنزلت » . ثم استقرأ عمرَ فقرأ . فقال له عليه السلام : « كذلك أنزلت » . ثم قال صلوات الله عليه : « إن هـذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه . » زيد

---

(١) من حديث عمر بن الخطاب الطويل الذى أخرجه البخارىّ فى : ٤٤ ـ كتاب الخصومات ، ٤ ـ باب كلام الخصوم بعضهم فى بعض .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٦ ـ كتاب فضائل القرآن ، ٦ ـ باب أنزل القرآن على سبعة أحرف :

عن عمر بن الخطاب : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان، فى حياة رسول الله ﷺ ، فاستمعت لقراءته . فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ . فكدت أساوره فى الصلاة . فتصبّرت حتى سلّم . فلبّبته بردائه . فقلت : من أقرأك هذه السورة التى سمعتك تقرأ ؟ قال : أقرأنيها رسول الله ﷺ . فقلت : كذبتَ . فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأتَ . فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ . فقلت : إنى سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها . فقال رسول الله ﷺ « أرسلْه . اقرأ ياهشام » فقرأ عليه القراءة التى سمعته يقرأ . فقال رسول الله ﷺ « كذلك أنزلت » ثم قال « اقرأ ياعمر » فقرأت القراءة التى أقرأنى . فقال رسول الله ﷺ « كذلك أنزلت . إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف . فاقرؤا ما تيسر منه » .

فى رواية : « كلها شاف كاف »[١] ، وفى رواية أم أيوب رضى الله عنها[٢] : « أيها قرأت أصبت » وصح من رواية أبىّ بن كعب ؛ أن النبىّ عليه السلام استزاد جبريل لما قرأه على حرف حتى بلغ سبعة أحرف ، وفى رواية لأبىّ[٣] قال : قال النبىّ لجبريل عليهما السلام : « إنى بعثت إلى أمة أميين . منهم الغلام والخادم والشيخ الفانى والعجوز » فقال جبريل : فليقرؤوا القرآن على سبعة أحرف . زاد فى رواية : فأيما حرف قرءوا عليه فقد أصابوا .

أخرج ابن جرير عن الأعمش قال : قرأ أنس هـذه الآية : « إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَصْوَبُ قِيلًا » فقال له بعض القوم : يا أبا حمزة ! إنما هى أقوم . فقال : أقوم وأصوب وأهنأ واحد .

---

(١) أبو داود فى : ٨ ـ كتاب الوتر ، ٢٢ ـ باب أنزل القرآن على سبعة أحرف ، حديث ١٤٧٧ :

عن أبىّ بن كعب قال : قال النبىّ ﷺ «ياأبىّ ! إنى أقرئت القرآن فقيل لى : على حرف أو حرفين ؟ فقال الملك الذى معى : قل : على حرفين . فقيـل لى : على حرفين أو ثلاثة ؟ فقال الملك الذى معى : قل : على ثلاثة . قلت : على ثلاثة . حتى بلغ سبعة أحرف . ثم قال : ليس منها إلا شاف كاف إن قلت سميعا عليما، عزيزا حكيما . مالم تختم آية عذاب برحمة أو آية رحمة بعذاب » .

(٢) مسند الإمام أحمـد ، جزء سادس ، ص ٤٣٣ و ٤٦٢ عن أم أيوب قالت : إن رسول الله ﷺ قال « نزل القرآن على سبعة أحرف أيها قرأت أجزأك »

(٣) الترمذىّ فى : ٤٣ ـ كتاب القراءات ، ٩ ـ باب ما جاء أنزل القرآن على سبعة أحرف :

عن أبىّ بن كعب قال : لقى رسول الله ﷺ جبريل . فقال « يا جبريل . إنى بعثت إلى أمة أميين . منهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذى لم يقرأ كتاباً قط » فقال : يا محمد . إن القرآن أنزل على سبعة أحرف .

وعن شقيق قال : قال عبد الله بن مسعود : إنى قد سمعت القرآء فوجدتهم متقاربين فاقرؤوا كما علمتم . وإياكم والتنطع . فإنما هو كقول أحدكم : هلمّ وتعال .

وقال ابن سيرين : لا تختلف السبع فى حلال ولا حرام ولا أمر ولا نهى : هو كقولك : تعال وهلُمّ وأقْبِلْ . كذا فى ابن جرير .

قال الإمام ابن قتيبة فى كتاب المشكل : كان من تيسير الله تعالى أن أمر نبيه عليه الصلاة والسلام أن يُقْرِئ كل أمة بلغتهم وما جرت عليه عادتهم ، فالهذلىّ يقرأ : (عتّى حين) يريد (حتى) كذا يلفظ بها ويستعملها ، والتميمىّ يهمز . والقرشىّ لا يهمز . والآخر يقرأ : « قيل وغُيضَ » باشمام الضم مع الكسر و « بضاعتنا رِدّت » بإشمام الكسر مع الضم .

ولو أراد كل فريق من هؤلاء أن يزول عن لغته وما جرى عليه اعتياده طفلاً وناشئاً وكهلاً ـ لاشتد ذلك عليه وعظمت المحنة فيه ، ولم يمكنه إلا بعد رياضة للنفس طويلة ، وتذليلٍ للسان وقطع العادة . فأراد الله ، برحمته ولطفه ، أن يجعل لهم مُتَّسعاً فى اللغات ومتصرَّفاً فى الحركات ، كتيسيره عليهم فى الدين .

قال أبو شامة : معنى قول كثير من الصحابة والتابعين : القراءة سنة يأخذها الآخر عن الأول ، فاقرؤوا كما علمتم . هو أن السنة المشار إليها ما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قرأه ، أو أذن فيه على ما صح عنه « أن القرآن أُنزل على سبعة أحرف » فلأجل ذلك كثر الاختلاف فى القراءة فى زمانه وبعده . إلى أن كان ما كان فى عهد عثمان وجمعهم على حرف واحد ـ كما سيأتى بيانه مفصّلا .

معنى السبع فى حديث « أنزل على سبعة أحرف »

ليس المراد بالسبع حقيقة العدد المعلوم . بل كثرة الأوجه التى تقرأ بها الكلمة ، على سبيل التيسير والتسهيل والسعة . ولفظ السبعة يطلق على الكثرة فى الآحاد ، كما يطلق السبعون فى العشرات ، والسبعمائة فى المئين ، ولا يراد العدد المعين . كذا فى الإتقان .

وحمل بعضهم العدد على ألسُن سبعة . وحمل ابن قتيبة وغيره العدد المذكور فى الحديث على الوجوه التى يقع بها التغاير . كتغير الحركة مع بقاء المعنى والصورة . وتغير الفعل ماضيا أو أمرا . وتغير بإعجام حرف أو إهماله . وتغير بإبدال حرف قريب من مخرج حرف آخر . وتغير بالتقديم والتأخير ، وتغير بزيادة كلمة أو نقصانها ، وتغير بإبدال كلمة بكلمة ترادفها .

والأظهر ما ذكرنا من إرادة الكثرة من السبعة ، لا التحديد . فيشمل ما ذكره ابن قتيبة وغيره من تغيرٍ بإدغام أو إظهار أو تفخيم أو إشمام أو غيرها .

وقال ابن جرير : فإن قال لنا قائل : فهل لك من علم بالألسن السبعة التى نزل بها القرآن ؟ وأى الألسن هى من ألسن العرب ؟ قلنا : أما الألسن التى قد نزلت القراءة بها فلا حاجة بنا إلى معرفتها . لأنا لو عرفناها لم نقرأ اليوم بها مع الأسباب المتقدمة ـ يعنى فى كلامه من سبب الاقتصار على حرف واحد كما ستراه قريبا ـ وقد قيل إن خمسة منها لعجز هوازن واثنين منها لقريش وخزاعة . وروى ذلك عن ابن عباس . وليست الرواية عنه من رواية من يجوز الاحتجاج بنقله .

قال ابن جرير : العجز من هوازن سعد بن بكر وجشم بن بكر ونصر بن معاوية وثقيف. ثم قال ابن جرير :

أما معنى قول النبى ﷺ : إذا ذكر نزول القرآن على سبعة أحرف « إن كلها شاف كاف » فإنه كما قال جل ثناؤه فى وصفه القرآن[1] : « يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ

(١) [١٠ / يونس / ٥٧] .

مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ » شفاء يستشفون بمواعظه من الأدواء العارضة لصدورهم من وساوس الشيطان وخطراته ، فيكفيهم ويغنيهم عن كل ما عداه من المواعظ ببيان آياته .

وقال الإمام أبو شامة : إن القرآن نزل أولاً بلسان قريش وَمَنْ جاورهم من العرب الفصحاء ، ثم أبيح للعرب أن تقرأه بلغاتهم التى جرت عادتهم باستعمالها على اختلافهم فى الألفاظ والإعراب. قال الطحاوى : إنما كان ذلك رخصة لما كان يتعسر على كثير منهم التلاوة بلفظ واحد . لعدم علمهم بالكتابة والضبط ، وإتقان الحفظ ، ثم نسخ بزوال العذر وتيسير الكتابة والحفظ اه يعنى بالنسخ ما أقره عثمان فى المصاحف التى كتبها كما سيأتى:

◆◆◆◆◆◆◆

معنى الأحرف فى الحديث

قال الدانى : الأحرف الأوجه . أى أن القرآن أنزل على سبعة أوجه من اللغات . لأن الأحرف جمع فى القليل . كفَلْس وأفلس . والحرف قد يراد به الوجه بدليل قوله تعالى : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ... »(١) الآية . فالمراد بالحرف الوجه . أى على النعمة والخير وإجابة السؤال والعافية . فإذا استقامت له هذه الأحوال اطمأنَّ وعبدَ اللهَ . وإذا تغيرت عليه وامتحنه الله بالشدة والضر ترك العبادة وكفر . فهذا عَبَدَ الله على وجه واحد . فلهذا سمّى النبىّ ﷺ هذه الأوجه المختلفة من القراءات والمتغايرة من اللغات ، أحرفا. على معنى أن كل شىء منها وجه . وذكر الإمام ابن جرير فى قول ابن مسعود : من قرأ القرآن على حرف فلا يتحولن منه إلى غيره ـ أنه عنى ، رضى الله عنه ، أن من قرأ بحرفه ، وحرفه قراءته . قال : وكذلك تقول العرب لقراءة رجل : حرف فلان . وتقول للحرف من حروف الهجاء المقطعة : حرف . كما تقول لقصيدة من قصائد الشاعر : كلمة فلان اه .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية فى تحقيق أن المراد بالحرف الكلمة ، فيما نقله عنه الحافظ ابن الجزرىّ ، فى أواخر النشر ، ما مثاله : وأما تسمية الاسم وحده كلمة والفعل وحده كلمة ، والحرف وحده كلمة مثل : هل و بل ، فهذا اصطلاح محض لبعض النحاة . ليس هذا من لغة العرب أصلا . وإنما سمى العرب هذه المفردات حروفا . ومنه قول النبىّ ﷺ(٢) : « من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات . أمَا إنى لا أقول آلم حرف ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف » والذى عليه محققو العلماء أن المراد بالحرف الاسم وحده ، والفعل وحده، وحرف المعنى وحده . لقوله : ألف حرف، وهذه اسم . ولهذا ، لما سأل الخليل أصحابه عن النطق بالزاى من زيد فقالوا : زاى . فقال : نطقتم بالاسم . وإنما الحرف زه اه .

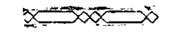
---

(١) [٢٢ / الحج / ١١] ونصها : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ، فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ، ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ .

(٢) الدارمىّ فى : ٢٣ ـ كتاب فضائل القرآن ، ١ ـ باب فضل من قرأ القرآن .

الرد على من توهم أن بعض الصحابة يجوّز التلاوة بالمعنى

قال ابن الجزرىّ فى النشر : أما من يقول بأن بعض الصحابة ، كابن مسعود ، كان يجيز القراءة بالمعنى فقد كذب عليه . إنما قال: نظرت القراء فوجدتّهم متقاربين فاقرؤوا كما علمتم. نعم كانوا ربما يدخلون التفسير فى القراءة إيضاحاً وبياناً ، لأنهم محقّقون لما تلقّوْه عن النبىّ ﷺ قرآنا . فهم آمنون من الالتباس . وربما كان بعضهم يكتبه معه . لكن ابن مسعود رضى الله عنه كان يكره ذلك ويمنع منه . رواه عنه مسروق . وروى عنه : جرّدوا القرآن ، ولا تلبسوا به ما ليس منه .



اقتصار عثمان رضى الله عنه ، فى جمعه ، على الحرف المتواتر

قال ابن الجزرىّ فى النشر : لما كان فى حدود سنة ثلاثين من الهجرة ، فى خلافة عثمان رضى الله عنه ، حضر حُذَيفة بن اليمان فتح إِرْمِينِيَةَ وأَذْرَبِيجَانَ ، فرأى الناس يختلفون فى القرآن . ويقول أحدهم : قراءتى أصح من قراءتك . فأفزعه ذلك . وقدم على عثمان وأشار إليه بأن يتدارك هـذا الأمر . فأمر بالصحف الموجودة أن تنسخ فى المصاحف . وأشار أن يكتب بلسان قريش لأنه أنزل بلسانهم . فـكتب منها عدة مصاحف . فوجّه منها إلى مكة واليمن والبحرين والبصرة والـكوفة والشام. وترك بالمدينة مصحفاً. وأمسك لنفسه مصحفاً (الذى يقال له الإمام) وأجمعت الأمة على ما تضمنته هـذه المصاحف ، وترك ما خالفها من زيادة ونقص وإبدال كلمة بأخرى . مما كان مأذوناً فيـه ، توسعةً عليهم ، ولم يثبت عندهم ثبوتاً مستفيضاً أنه من القرآن .

وقال ابن الحصار : ترتيب السور ووضع الآيات مواضعها إنمـا كان بالوحى . كان رسـول الله ﷺ يقول : « ضعوا آية كذا فى موضع كذا » وقد حصل اليقين من النقل المتواتر ، بهذا الترتيب ، من تلاوة رسول الله ﷺ . ومما أجمع الصحابة على وضعه هكذا فى المصحف .

وقال الحارث المحاسبىّ : إنما حمل عثمانُ الناسَ على القراءة بوجه واحد ، على اختيار وقع بينه وبين من شهده من المهاجرين والأنصار ، لمَّا خشى الفتنة عنـد اختلاف أهل العراق والشام فى حروف القراآت . فأما قبل ذلك فقدكانت المصاحف بوجوهٍ من القراءات المطلقات على الحروف السبعة التى أنزل بها القرآن . فأما السابق إلى جمع الجملة فهو الصديق .

وقال ابن التين : اقتصر عثمان ، من سائر اللغات ، على لغـة قريش . محتجا بأنه نزل بلغتهم . وإن كان قد وسع فى قراءته بلغة غيرهم رفعا للحرج والمشقة فى ابتداء الأمر . فرأى أن الحاجة إلى ذلك قد انتهت . فاقتصر على لغة واحدة .

وقال القاضى أبو بكر ، فى الانتصار : لم يقصد عثمان قصد أبى بكر فى جمع نفس القرآن

بين لوحين ، وإنما قصد جمعهم على القراءات الثابتة المعروفة عن النبىّ ﷺ ، وإلغاء ما ليس كذلك . وأخذهم بمصحف لاتقديم فيه ولا تأخير ، ولا تأويل أُثْبِتَ مع تنزيل ، ولا منسوخ تلاوته ، كتب مع مثبت رسمه ومفروض قراءته وحفظه ، خشية دخول الفساد والشبهة، على ما يأتى بعدُ .

ينتج من ذلك مسألة وهى : هل الأحرف السبعة موجودة فى المصحف اليوم ؟ جوابه ما قاله ابن جرير : إنا لم ندّع أن ذلك موجود اليوم . وإنما أخبرنا أن معنى قول النبىّ ﷺ « أنزل القرآن على سبعة أحرف » على نحو ما جاءت به الأخبار التى تقدم ذكرناها (يعنى عن ابن مسعود وغيره) .

ثم قال ابن جرير :

فإن قال : فما بال الأحرف الأخر الستة غير موجودة وقد أقرأهن رسول الله ﷺ أصحابَه ، وأمر بالقراءة بهن . وأنزلهن الله من عنده على نبيه ﷺ : أَنُسختْ فرُفعت ؟ فما الدلالة على نسخها ورفعها ؟ أم نسيتْهن الأمة ؟ فذلك تضييع ما قد أُمِرُوا بحفظه . أم ما القصة فى ذلك ؟

قيل له : لم تنسخ فترفع ، ولا ضيعتها الأمة ، وهى مأمورة بحفظها ، ولكن الأمة أُمِرت بحفظ القرآن ، وخيِّرت فى قراءته وحفظه بأى تلك الأحرف السبعة شاءت . كما أمرت ، إذا هى حنثت فى يمين وهى موسرة ، أن تكفّر بأى الكفارات الثلاث شاءت . إما بعتق أو إطعام ، أو كسوة . فلو أجمع جميعُها على التكفير بواحدة من الكفارات الثلاث دون حظرها التكفير بأى الثلاث شاء المكفر ، كانت مصيبةً حُكْمَ الله ، مؤدّيةً ، فى ذلك، الواجبَ عليها من حق الله . فكذلك الأمة . أمرت بحفظ القرآن وقراءته . وخيرت فى قراءته بأى الأحرف السبعة شاءت ، فرأت ، لعلّة من العلل أوجبت عليها الثبات على حرف واحد ، قراءتَه بحرف واحد . ورفضَ القراءة بالأحرف الستة الباقية . ولم تحظُرْ قراءته بجميع حروفه على قارئه بما أذن له فى قراءته به اه . يعنى ممن كان فى عهد النبوة متلقيا لذلك من الحضرة النبوية .

ثم قال ابن جرير :

لما جمع إمام المسلمين وأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه على تلاوة القرآن بحرف واحد فى مصحف واحد ، رأت الأمة أن فيما فعل الرّشد والهداية ، فتركت القراءة بالأحرف الستة حتى درست من الأمة معرفتُها ، وتعفت آثارها . فلا سبيل لأحد اليوم إلى القراءة بها ، لدثورها ، وعفوّ آثارها ، وتتابع المسلمين على رفض القراءة بها ، من غير جحودٍ منها صحتَها وصحةَ شيء منها ، فلا قراءة اليوم للمسلمين إلا بالحرف الواحد الذى اختاره لهم إمامهم الشفيق الناصح ، دون ماعداه من الأحرف الستة الباقية .

فإن قال بعض من ضعفت معرفته : كيف جاز لهم ترك قراءةٍ اقرأهموها الرسول صلوات الله عليه وأمرهم بقراءتها ؟

قيل : إن أمره إياهم بذلك لم يكن أمر إيجاب وفرض ، وإنما كان أمر إباحة ورخصة ، لأن القراءة بها ، لو كانت فرضاً عليهم ، لوجب أن يكون العلمُ بكل حرف من تلك الأحرف السبعة ، عند من تقوم بنقله الحجة ، ويقطع خَبَرُهُ العذر ، ويزيل الشك من قَرَأَة الأمة . وفى تركهم نقل ذلك كذلك أوضح الدليل على أنهم كانوا فى القراءة بها مخيرين ، بعد أن يكون فى نقلة القرآن من الأمة من تجيب بنقله الحجة ببعض تلك الأحرف السبعة .

وإذ كان ذلك كذلك ، لم يكن القوم بتركهم نقلَ جميع القراءات السبع ، تاركين ما كان عليهم نقله ، بل كان الواجب عليهم من الفعل ما فعلوا إذ كان الذى فعلوا من ذلك ، كان هو النظَرَ للإسلام وأهله . فكان القيامُ بفعل الواجب عليهم ، بهم أولى من فعل ما لو فعلوه كانوا إلى الجناية على الإسلام وأهله أقربَ منهم إلى السلامة ، من ذلك . (أى من الجناية على الإسلام) .

بيان أن اختلاف القراءة فى رفع حرف ونصبه ونحوه
ليس من السبعة الأحرف

قال ابن جرير : وأما ما كان من اختلاف القراءة فى رفع حرف وجره ونصبه ، وتسكين حرف وتحريكه ، ونقل حرف إلى آخر مع اتفاق الصورة - . فمن معنى قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: « أمرت أن أقرأ القرآن على سبعة أحرف » بمعزل. لأنه معلوم أنه لا حرف من حروف القرآن - مما اختلفت القَرَأَة فى قراءته بهذا المعنى يوجب المراءُ به كفر المارى به، فى قول أحد من علماء الأمة . وقد أوجب عليه الصلاة والسلام بالمراء فيه الكفر من الوجه الذى تنازع فيه المتنازعون إليه ، وتظاهرت عنه بذلك الرواية .

سبب الاقتصار على قراءات الأئمة المشهورين

لما جمع عثمان رضى الله عنه الناس على حرف واحد، وأمر بأن يرسل للآفاق مصاحف على ما جمعه، كما تقدم، وكانت كتابتها مجردة من الشكل والنقط، فقرأ أهل كل مصر بما فى مصحفهم، وتلقوا ما فيه عن الصحابة الذين تلقوه من فى النبىّ صلى الله عليه وسلم.

وأول من نقط المصحف وشكله الحجاج، بأمر عبد الملك بن مروان. وقيل أبو الأسود الدؤلىّ. وقيل الحسن البصرىّ ويحيى بن يعمر. ثم لما كثر الاختلاف فيما يحتمله الرسم، وقرأ أهل البدع والأهواء بما لا يحل لأحد تلاوته وفاقا لبدعهم. كمن قال من المعتزلة: ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً﴾[1]، بنصب الهاء – رأى المسلمون أن يجمعوا على قراءات أئمة ثقات تجردوا للاعتناء بشأن القرآن العظيم. فاختاروا من كل مصر، وُجِّه إليه مصحف، أئمة مشهورين بالثقة والأمانة بالنقل وحسن كمال الدين، وكمال العلم. أفنوا عمرهم فى القراءة والإقراء، واشتهر أمرهم وأجمع أهل مصرهم على عدالتهم فيما نقلوا، والثقة بهم فيما قرؤوا، ولم تخرج قراءاتهم عن خط مصحفهم. فمنهم بالمدينة أبو جعفر وشيبة، ونافع. وبمكة عبد الله بن كثير وابن محيصن والأعرج. وبالكوفة يحيى بن وثاب وعاصم بن أبى النجود، والأعمش، وحمزة، والكسائىّ. وبالشام عبد الله بن عامر، وعطية بن قيس الكلابىّ، ويحيى بن الحارث الزمارىّ. وبالبصرة عبد الله بن أبى إسحق، وأبو عمرو بن العلاء، وعاصم الجحدرىّ، ويعقوب الحضرمىّ.

ثم إن القراء بعد ذلك تفرقوا فى البلاد وخلفهم أمم بعد أمم. إلا أنهم كان فيهم المتقن وغيره، فلذا كثر الاختلاف وعسر الضبط، وشق الائتلاف، وظهر التخليط، وانتشر التفريط، واشتبه متواتر القراءات بفاذّها، ومشهورها بشاذها. فمن ثَمَّ وضع الأئمة لذلك ميزاناً يرجع إليه، ومعياراً يعول عليه. وهو السند والرسم والعربية. فكل ما صح سنده

(١) [٤/ النساء / ١٦٤] ونصها: وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ، وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً.

واستقام وجهه فى العربيـة ، ووافق لفظه خط مصحف الإمام فهو من السبعة المنصوصة ، فعلى هذا الأصل بنى قبول القراءات على سبعة ، كانوا لولاه سبعة آلاف ، ومتى سقط شرط من هذه الثلاثة فهو شاذ . هذا لفظ الـكواشىّ فى أول تفسيره .

إلا أن بعضهم لم يكتف بصحة السند فقط ، بل اشترط معها التواتر . ذاهباً إلى أن ماجاء مجىء الآحاد لايثبت به قرآن ، وقوّاه أبو القاسم النويرىّ بأن عدم اشتراط التواتر قول حادث مخالف لإجماع الفقهاء والمحدثين وغيرهم، لأن القرآن عند الجمهور من أئمة المذاهب هو ما نقل بين دفتى المصحف نقلا متواترا . وكل من قال بهذا الحد اشترط التواتر .

ثم قال النويرىّ : ولم يخالف من المتأخرين إلا مكىّ ، وتبعه بعض المتأخرين : يعنى فى الاكتفاء بالمعيار الذى ذكره الـكواشىّ .

قال القسطلانىّ فى اللطائف : وهـذا (يعنى اشتراط التواتر) بالنظر لمجموع القرآن . وإلا فلو اشترطنا التواتر فى كل فرد فرد من أحرف الخلاف انتفى كثير من القراءات الثابتة عن هؤلاء الأئمة السبعة وغيرهم . كذا فى اللطائف للقسطلانىّ .

ورود القراءات عن أئمة الأمصار على موافقة مصاحفهم العثمانية

ثبتت أحرف فى بعض المصاحف العثمانية المرسلة إلى البلاد المتقدمة لم توجد فى البقية . فاتبع أئمة كل مصر منها مصحفهم، فمن ذلك قراءة ابن عامر « قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا »[1] بغير واو ، فى البقرة « وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ »[2] بزيادة الباء فى الاسمين . ونحو ذلك. فإن ذلك ثابت فى المصحف الشامىّ . وكقراءة ابن كثير «جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ»[3] فى الموضع الأخير من سورة براءة بزيادة (من) فإن ذلك ثابت فى المصحف المكىّ . وكذلك «إِنَّ اللهَ الْغَنِىُّ »[4] فى سورة الحديد بحذف (هو) ، وكذا «سَارِعُوا»[5] بحذف (الواو) وكذا « مِنْهُمَا مُنْقَلَبًا »[6] بالتثنية فى الكهف . إلى غير ذلك فى مواضع كثيرة فى القرآن . اختلفت المصاحف فيها فوردت القراءة عن أئمة تلك الأمصار فى موافقة مصحفهم. كذا فى النشر.

---

(١) [٢ / البقرة / ١١٦] ونصها : وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا ، سُبْحَانَهُ ، بَلْ لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ .

(٢) [٣ / آل عمران / ١٨٤] ونصها : فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ .

(٣) [٩/ التوبة/ ١٠٠] ونصها : وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِىَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، ذٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

(٤) [٥٧ / الحديد / ٢٤] ونصها : الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ، وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِىُّ الْحَمِيدُ .

(٥) [٣ / آل عمران / ١٣٣] ونصها : وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ .

(٦) [١٨ / الكهف / ٣٦] ونصها : وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا .

موافقة القراءات لرسم المصحف العثمانى تحقيقا أو تقديرا

قال ابن الجزرى ، فى النشر : موافقة الرسم قد تكون تحقيقاً وهى الموافقة الصريحة ، وقد تكون تقديرا ، وهى الموافقة احتمالا . فإنه قد خولف صريح الرسم فى مواضع إجماعا نحو « السَّمٰوَات ، وَالرِّبَوا » ونحو « لِنَنْظُرْ كَيْفَ تَعْمَلُونَ »(١) « وَجِيءَ »(٢) حيث كتب بنون واحدة ، وبألف بعد الجيم فى بعض المصاحف .

وقد توافق بعض القراءات الرسم تحقيقاً ، وتوافق بعضها تقديرا نحو « مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ »(٣) فإنه كتب بغير ألف فى جميع المصاحف. فقراءة الحذف تحتمله تحقيقاً كما كتب « مَلِكِ النَّاس »(٤) وقراءة الألف تحتمله تقديرا كما كتب « مَالِكِ الْمُلْك »(٥) فتكون الألف حذفت اختصارا . وكذلك « النَّشْأَة »(٦) حيث كتبت بالألف وافقت قراءة المد

---

(١) [١٠ / يونس / ١٤] ونصها : ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِى الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ .

(٢) [٣٩ / الزمر / ٦٩] ونصها : وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

و [٨٩ / الفجر / ٢٣] ونصها : وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ، يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ .

(٣) [١ / الفاتحة / ٤] ونصها : مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ .

(٤) [١١٤ / الناس / ٢] .

(٥) [٣ / آل عمران / ٢٦] ونصها : قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ ، إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

(٦) [٢٩ / العنكبوت / ٢٠] ونصها : قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ، ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

تحقيقاً ووافقت قراءة القصر تقديرا ، إذ يحتمل أن تكون الألف صورة الهمزة على غير قياس . وقد يوافق اختلاف القراءات الرسم تحقيقاً نحو « يَغْفِرْ لَكُمْ »(١) « وَتَعْمَلُونَ ، وَهَيْتَ لَكَ »(٢). مما يدل تجرده عن النقط والشكل وحذفه وإثباته - على فضل عظيم للصحابة رضى الله عنهم فى علم الهجاء خاصة ، وفهم ثاقب فى تحقيق كل علم .

وقال أيضا بعد أوراق : ثم إن الصحابة رضى الله عنهم لم يكن بينهم فيها إلا الخلاف اليسير المحفوظ بين القراء ، ثم إنهم لمّا كتبوا تلك المصاحف جردوها من النقط والشكل ليحتمله ما لم يكن فى العرضة الأخيرة مما صح عن النبىّ صلى الله عليه وسلم

وإنما أخلوا المصاحف من النقط والشكل لتكون دلالةُ الخط الواحد على كلا اللفظين المنقولين المسموعين المتلوّين - شبيهةً بدلالة اللفظ الواحد على كلا المعنيين المعقولين المفهومين . فإن الصحابة ، رضوان الله عليهم ، تلقوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أمره الله تعالى بتبليغه إليهم من القرآن، لفظه ومعناه جميعاً ، ولم يكونوا ليسقطوا شيئاً من القرآن الثابت عنه صلّى الله عليه وسلم ، ولا يمنعوا من القراءة به .

= و [٥٣ / النجم / ٤٧] ونصها : وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ .

و [٥٦ / الواقعة / ٦٢] ونصها : وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ .

(١) [٣ / آل عمران / ٣١] ونصها : قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٢) [١٢ / يوسف / ٢٣] ونصها : وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ، قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ .

ما لا يعد مخالفاً لصريح الرسم من القراءات الثابتة

قال فى النشر بعد ما تقدم : على أن مخالفَ صريح الرسم فى حرف مدغم أو مبدل أو ثابت أو محذوف أو نحو ذلك لايعد مخالفا إذا ثبتت القراءة به ووردت مشهورة مستفاضة . ألا ترى أنهم لم يعدوا إثبات ياءات الزوائد وحذف ياء « تَسْأَلنِى »(1) فى الـكهف ، وقراءة « وَأَكُونَ مِنَ الصَّالِحِينَ » والظاء من « بِضَنِينٍ »(2) ونحو ذلك ، من مخالف الرسم المردود . فإن الخلاف فى ذلك يغتفر ، إذ هو قريب يرجع إلى معنى واحد ، وتمشية صحة القراءة وشهرتها وتلقيها بالقبول ـ وذلك بخلاف زيادة كلمة ونقصانها وتقديمها وتأخيرها حتى لو كانت حرفا من حروف المعانى ، فإن حكمه فى حكم الـكلمة لايسوغ مخالفة الرسم فيه. وهذا هو الحد الفاصل فى حقيقة اتباع الرسم ومخالفته .

(١) [١٨ / الـكهف / ٧٠] ونصها : قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْأَلْنِى عَنْ شَىْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا .

(٢) [٨١ / التكوير / ٢٤] ونصها : وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ .

مدار القراءات على صحة النقل لا على الأقيَس، عربيةً

قال الدانى فى جامع البيان : أئمة القراءة لا تعمل فى شىء من حروف القرآن على الأفشى فى اللغة والأقيس فى العربية . بل على الأثبت فى الأثر والأصح فى النقل والرواية . إذا ثبتت عنهم لم يردها قياس عربية ولا فشوّ لغة . لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها .

ذكر من ذهب إلى أن مرجع القراءات ليس هو السماع بل الاجتهاد

يفهم من مواضع من الكشاف اعتماده أن مرجع القراءات اجتهاد الأئمة القارئين . ولذلك جاء فى سورة الكهف عند آية « هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلّهِ الْحَقِّ »(١) ما مثاله : وقرأ عمرو بن عبيد بالنصب على التأكيد كقولك : هذا عبد الله الحقَّ لا الباطلَ . وهى قراءة حسنة فصيحة ، وكان عمرو بن عبيد من أفصح الناس وأنصحهم . فكتب الناصر فى الانتصاف يتعقبه ما مثاله : قد تقدم الإنكار عليه فى مثل هذا القول ، فإنه يوهم أن القراءات موكولة إلى رأى الفصحاء واجتهاد البلغاء ، فتتفاوت فى الفصاحة لتفاوتهم فيها ، وهذا منكر شنيع . والحق أنه لا يجوز لأحد أن يقرأ إلا بما سمعه فوعاه متصلاً بفَلْق فيه ﷺ ، منزلاً كذلك من السماء ، فلا وقع لفصاحة الفصيح . وإنما هو ناقل كغيره . ولكن الزمخشرىّ لا يفوته الثناء على رأس البدعة ومعدن الفتنة. فإن عمرو بن عبيد أول مصمم على إنكار القدَر وهلم جرًّا إلى سائر البدع الاعتزالية. فمن ثم أثنى عليه اه. يعنى بما تقدم له، ماذكره فى سورة الأنعام فى آية «وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ»(٢) وذلك أن الزمخشرىّ قال هناك : وأما قراءة ابن عامر: قَتْلُ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائِهِمْ. برفع القتل ونصب الأولاد وجر الشركاء على إضافه القتل إلى الشركاء والفصل بينهما بغير الظرف ــ فشىء لو كان فى مكان الضرورات ، وهو الشعر ، لكان سمجا مردودا كما سمج وردَّ :

* زجَّ القلوص أبى مزادة *

فكيف به فى الكلام المنثور ؟ فكيف به فى القرآن المعجز بحسن نظمه وجزالته ؟ والذى حمله على ذلك أنه رأى فى بعض المصاحف (شركائهم) مكتوبا بالياء .

---

(١) [١٨ / الكهف / ٤٤] ونصها : هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلّهِ الْحَقِّ ، هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٣٧] ونصها : وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ، وَلَوْ شَاءَ اللّهُ مَافَعَلُوهُ، فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ .

فكتب الناصر عليه ما ملخصه : إن الزمخشريّ ركب متن عمياء ، فإنه تخيل أن القراء ، أئمة الوجوه السبعة ، اختار كل منهم حرفاً قرأ به اجتهاداً ، لا نقلا وسماعا . فلذلك غلّط ابن عامر فى قراءته هذه. وأخذ يبين أن وجه غلطه رؤيته الياء ثابتة فى شركائهم ، فاستدل بذلك على أنه مجرور ، وتعين عنده نصب أولادهم بالقياس ، إذ لا يضاف المصدر إلى أمرين معا . فقرأه منصوبا – إلى أن قال – فهذا كله كما ترى ظنٌّ من الزمخشريّ أن ابن عامر قرأ قراءته هذه رأيا منه ، وكان الصواب خلافه ، والفصيح سواه . ولم يعلم الزمخشريّ أن هذه القراءة ، بنصب الأولاد ، والفصل بين المضاف والمضاف إليه ، بها يعلم ضرورةً أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأها على جبريل كما أنزلها عليه كذلك ثم تلاها النبيّ صلى الله عليه وسلم على عدد التواتر من الأئمة ، ولم يزل عدد التواتر يتناقلونها ويقرؤون بها خلفا عن سلف . إلى أن انتهت إلى ابن عامر فقرأها أيضا كما سمعها . فهذا معتقد أهل الحق فى جميع الوجوه السبعة أنها متواترة ، جملة وتفصيلا ، عن أفصح من نطق بالضاد ﷺ . فإذا علمت العقيدة الصحيحة فلا مبالاة بعدها بقول الزمخشريّ ولا بقول أمثاله ، ممن لحن ابن عامر ، وظن أن القراءة تثبت بالرأى ، غير موقوفة على النقل . والحامل هو التغالى فى اعتقاد اطراد الأقيسة النحوية . فظنها قطعية حتى يرد ما خالفها . انتهى .

فتأمل . والأمر يحتاج إلى كلام من خالف بحروفه وتمحيص بالنظر فى أطرافه وما برهنوا عليه .

ثم رأيت فى « مفاتيح الأصول فى علم الأصول » للسيد الطباطبائيّ بحثاً مسهبا فى بيان تواتر القراءات وعدمه . سأذكره بعد ورقات .

بحث أسانيد الأئمة السبعة هل هى متواترة أم آحاد

قال الزركشىّ ، فى البرهان : القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان. فالقرآن هو الوحى المنزل على محمد ﷺ للبيان والإعجاز . والقراءات اختلاف ألفاظ الوحى المذكور فى الحروف وكيفيتها ، من تخفيف وتشديد وغيرهما . والقراءات السبع متواترة عند الجمهور ، وقيل بل هى مشهورة ، ثم قال الزركشىّ : والتحقيق أنها متواترة عن الأئمة السبعة . أما تواترها عن النبىّ ﷺ ففيه نظر ، فإن إسنادهم بهذه القراءات السبعة موجود فى كتب القراءات . وهى نقل الواحد عن الواحد اهـ . نقله فى الإتقان .

ونقل السروجىّ الحنفىّ فى « باب الصوم » من كتاب « الغاية شرح الهداية » : عن المعتزلة ؛ أن السبع آحاد . وعن جميع أهل السنة ؛ أنها متواترة اهـ. ومراده بالجميع المجموع . وإلا فقد اختار صاحب البدائع ، من متأخرى الحنفية ، فيما نقله الكمال ابن أبى شريف ؛ أن السبع مشهورة . حكاه القسطلانىّ فى اللطائف . ثم قال :

(فإن قلت) الأسانيد إلى الأئمة السبعة وأسانيدهم إلى النبىّ ﷺ ، على ما فى كتب القراءات ، آحاد . لايبلغ عدد التواتر . فمن أين جاء التواتر ؟

(أجيب) بأن انحصار الأسانيد المذكورة فى طائفة لايمنع مجىء القراءات عن غيرهم . وإنما نسبت القراءات إلى الأئمة . ومن ذكر فى أسانيدهم ، والأسانيد إليهم ، لتصدّيهم لضبط الحروف وحفظ شيوخهم فيها . ومع كل منهم فى طبقته ما يبلغها عدد التواتر . لأن القرآن قد تلقاه من أهل كل بلد ، بقراءة إمامهم ، الجمّ الغفير عن مثلهم . وكذلك دائماً، مع تلقى الأمة لقراءة كل منهم بالقبول اهـ .

وقال السخاوىّ : ولا يقدح فى تواتر القراءات السبع إذا أسندت من طريق الآحاد . كما لو قلت : أخبرنى فلان عن فلان أنه رأى مدينة سمرقند ، (وقد عُلِم وجودها بطريق التواتر) ـ لم يقدح ذلك فيما سبق من العلم بها . فقراءة السبع كلها متواترة .

رأى الإمام أبى شامة فى تواتر ما أجمع عليه من غير نكير

نقل ابن الجزرىّ فى النشر ، عن الإمام الكبير أبى شامة ، فى مرشده ؛ أنه قال : قد شاع عن ألسنة جماعة من المقرئين المتأخرين وغيرهم من المقلدين ؛ أن القراءات السبع كلها متواترة . أى كل فرد فرد مما روى عن هؤلاء الأئمة السبعة ، قالوا : والقطع بأنها منزلة من عند الله واجب . ونحن بهذا نقول . ولكن فيما اجتمعت على نقله عنهم الطرق ، واتفقت عليه الفرق من غير نكير له . مع أنه شاع واشتهر واستفاض . فلا أقل من اشتراط ذلك إذ لم يتفق التواتر فى بعضها اه .

رأى ابن الحاجب وغيره فى تواتر ما ليس من قبل الأداء

قال ابن الحاجب : القراءات السبع متواترة فيما ليس من قِبَل الأداء . كالمد والإمالة وتحقيق الهمزة ونحوه . أى فإنه غير متواتر . (قالوا) : ليس المراد من قوله : كالمد ، أصل المد فإنه متواتر . بل مقدار المزيد فيه على أصله . هل يقتصر فيه على مقدار ألف ونصف ، كما قدّر به مدّ الكسائىّ ؟ أو ثلاثة كما قدر به مد ورش وحمزة ؟ وكل هذه الهيئات غير متواترة عند ابن الحاجب وأبى حنيفة . كما صرح به غير واحد من أئمة التحقيق (كذا فى اللطائف) .

وقال القاضى ابن خلدون فى مقدمة تاريخه ، فى بحث علوم القرآن من التفسير والقراءات، ما مثاله :

القرآن كلام الله المنزل على نبيّه ، المكتوب بين دفتى المصحف، وهو متواتر بين الأمة. إلا أن الصحابة رَوَوْه عن رسول الله ﷺ على طرق مختلفة فى بعض ألفاظه ، وكيفيات الحروف فى أدائها . وتُنُوقِلَ ذلك واشتهر . إلى أن استقرت منها سبع طرق معينة . تواتر نقلها أيضاً بأدائها . واختصت بالانتساب إلى من اشتهر بروايتها من الجم الغفير . فصارت هذه القراءات السبع أصولا للقراءة . وربما زيد بعد ذلك قراءات أخر لحقت بالسبع . إلا أنها عند أئمة القراءة لا تقوى قوتها فى النقل .

وهذه القراءات السبع معروفة فى كتبها . وقد خالف بعض الناس فى تواتر طرقها لأنها عندهم كيفيات للأداء ، وهو غير منضبط . وليس ذلك عندهم بقادح فى تواتر القرآن . وَأَبَاهُ الأكثر . وقالوا بتواترها . وقال آخرون بتواتر غير الأداء منها ، كالمدّ والتسهيل . لعدم الوقوف على كيفيته بالسمع . وهو الصحيح اه .

بحث القراءات الشاذة

قال الحافظ ابن الجزرىّ فى النشر : قال الإمام أبو محمد مكىّ : إن جميع ما روى فى القرآن على ثلاثة أقسام : قسم يقرأ به اليوم . وذلك ما اجتمع فيه ثلاث خلال . وهى أن ينقل عن الثقات عن النبىّ ﷺ ، ويكون وجهه فى العربية التى نزل بها القرآن سائغا ، ويكون موافقا لخط المصحف ـ فإذا اجتمعت فيه هذه الخلال الثلاث قرئ به وقطع على مغيّبه وصحته وصدقه . لأنه أخذ عن إجماع من جهة موافقة خط المصحف . وكفر من جحده .

القسم الثانى

ما صح نقله عن الآحاد ، وصح وجهه فى العربيـة ، وخالف لفظه خط المصحف . فهذا يقبل ولا يقرأ به . لعلتين : إحداهما : أنه لم يؤخذ بإجماع، إنما أخذ بأخبار الآحاد . ولا يثبت قرآن ، يُقرأ به ، بخبر الواحد . والعلة الثانية : أنه مخالف لـا قد أجمع على مغيّبه وصحته ، وما لم يقطع على صحته لا تجوز القراءة به ولا يكفر من جحده . ولبئس ماصنع ، إذا جحده .

القسم الثالث

هو ما نقله غير ثقة ، أو نقله ثقة ولا وجه له فى العربية ، فهذا لا يقبل ، وإن وافق خط المصحف .

قال ابن الجزرىّ : مثال القسم الأول : مالك ، وملك . يخدعون ، ويخادعون . وأوصى، ووصى . وتطوع ، ويطوع . ونحو ذلك من القراءات المشهورة . ومثال القسم الثانى : قراءة عبد الله بن مسعود وأبى الدرداء (والذكر والأنثى) فى « وما خلق الذكر والأنثى » وقراءة ابن عبـاس « وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » ، « وأما الغلام فـكان كافرا » ونحو ذلك مما ثبت برواية الثقات .

واختلف العلماء فى جواز القراءة بذلك فى الصـلاة . فأجازها بعضهم . لأن الصحابة والتابعين كانوا يقرؤون بهذه الحروف فى الصلاة . وهـذا أحد القولين لأصحاب الشافعىّ وأبى حنيفة . وإحدى الروايتين عن مالك وأحمد . وأكثر العلماء على عدم الجواز . لأن

هذه القراءات لم تثبت متواترة عن النبيّ ﷺ . وإن ثبتت بالنقل ، فإنها منسوخة بالعرضة الأخيرة ، أو بإجماع الصحابة على المصحف العثمانيّ . أو أنها لم تنقل إلينا نقلا يثبت بمثله القرآن . أو أنها لم تكن من الأحرف السبعة .

ومثال القسم الثالث، مما نقله غير ثقة : كثير مما فى كتب الشواذ مما غالبه إسناده ضعيف. كقراءة ابن السَّميفع وأبى السمال وغيرهما فى (ننجيك ببدنك) ننحيك بالحاء المهملة. وكالقراءة المنسوبة إلى الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه التى جمعها أبو الفضل محمد بن جعفر الخزاعىّ ونقلها عنه أبو القاسم الهذلىّ وغيره فإنها لا أصل لها . ومنها « إنما يخشى اللهُ من عباده العلماءَ » برفع الهاء ونصب الهمزة . وقد راج ذلك على أكثر المفسرين ونسبها إليه وتكلف توجيهها .

قال ابن الجزرىّ : وإن أبا حنيفة لبرىء منها .

ومثال مانقله ثقة ولا وجه له فى العربية ، ولا يصدر مثله إلا على وجه السهو والغلط ، وعدم الضبط . يعرفه الأئمة المحققون ، والحفاظ الضابطون ، وهو قليل جدا ، بل لا يكاد يوجد ، وقد جعل بعضهم منه رواية خارجة عن نافع (ومعائش) ــ بالهمزة ــ وما رواه ابن بكار عن أيوب عن يحيى عن ابن عامر من فتح ياء (أدرىَ أقريب) ، مع إثبات الهمزة ، وهى رواية زيد وأبى حاتم عن يعقوب ؛ وما رواه أبو علىّ العطار عن العباس عن أبى عمرو (ساحران تظّاهرا) بتشديد الظاء ، والنظر فى ذلك لا يخفى .

ثم قال ابن الجزرىّ :

وبقى قسم مردود أيضاً ، وهو ما وافق العربية والرسم ، ولم ينقل ألبتة ، فهذا رده أحق ، ومنعه أشد . وقد ذُكِر جواز ذلك عن أبى بكر محمد بن الحسن بن مقسم البغدادىّ المقرى النحوىّ ، وكان بعد الثلاثمائة . قال الإمام أبو طاهر بن أبى هاشم فى كتابه «البيان» وقد نبغ نابغ فى عصرنا فزعم أن كل من صح عنده وجه فى العربية بحرف من القرآن يوافق المصحف ، فقراءته جائزة فى الصلاة وغيرها . فابتدع بدعة ضل بها عن قصد السبيل .

(قلت) وقد عقد له بسبب ذلك مجلس ببغداد ، حضره الفقهاء والقراء ، وأجمعوا على منعه ، وأوقف للضرب فتاب ورجع ، وكُتِبَ عليه بذلك محضر ، كما ذكره الحافظ أبو بكر الخطيب فى تاريخ بغداد .

قلت : ونقله القاضى أبو بكر فى الانتصار ، ورده . وعبارته : وقال قوم من المتكلمين: إنه يسوغ إعمال الرأى والاجتهاد فى إثبات قراءةٍ وأوجهٍ وأحرفٍ ، إذا كانت تلك الأوجه صواباً فى العربية وإن لم يثبت أن النبىّ ﷺ قرأ بها . قال : وأبى ذلك أهل الحق وأنكروه وخطّؤوا من قال به اه .

قال ابن الجزرىّ : ومن ثَمَّ امتنعت القراءة بالقياس المطلق ، وهو الذى ليس له أصل فى القراءة يرجع إليه ، ولا ركن وثيق فى الأداء يعتمد عليه ، كما روينا عن عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت وكثير من التابعين أنهم قالوا : القراءة سنة يأخذها الآخر عن الأول ، فاقرأوا كما علمتوه .

ثم قال ابن الجزرىّ :

أما إذا كان القياس على إجماع انعقد ، أو عن أصل يعتمد ، فيصار إليه عند عدم النص، وغموض وجه الأداء ، فإنه مما يسوغ قبوله ، ولا ينبغى رده ، لا سيما فيما تدعو إليه الضرورة ، وتمس الحاجة ، كمثل ما اختير فى تخفيف بعض الهمزات لأهل الأداء ، وفى إثبات البسملة وعدمها لبعض القراء ، ونقل « كتابيه انى » وإدغام « ما ليه هلك » قياساً عليه ، وكذلك قياس « قال رجلان، وقال رجل » على « قال رب » فى الإدغام ، كما ذكره الدانى وغيره . ونحو ذلك مما لا يخالف نصاً ، ولا يرد إجماعاً ولا أصلاً ، مع أنه قليل جداً . وإلى ذلك أشار مكىّ بن أبى طالب رحمه الله فى كتابه « التبصرة » حيث قال : فجميع ما ذكرنا فى هذا الكتاب ينقسم ثلاثة أقسام : قسم قرأت به ونقلته وهو منصوص فى الكتب موجود ، وقسم قرأت به وأخذته لفظاً أو سماعاً وهو غير موجود فى الكتب ، وقسم لم أقرأ به ولا وجدته فى الكتب ، ولكن قسته على ما قرأت به ، إذ لا يمكن فيه إلا ذلك عند عدم الرؤية فى النقل والنص ، وهو الأقل .

وقال ابن الجزرىّ :

وقد زلّ بسبب ذلك قوم وأطلقوا قياس مالا يُروى على ما رُوِىَ ، وماله وجه ضعيف على الوجه القوىّ ، كأخذ بعض الأغبياء بإظهار الميم المقلوبة من النون والتنوين .

بيان أن كل قراءة صحت عن النبيّ ﷺ وجب قبولها والإيمان بها

قال الحافظ ابن الجزريّ فى النشر : كل ماصح عن النبيّ ﷺ من القراءات ، فقد وجب قبوله ، ولم يسع أحداً من الأمة رده ، ولزم الإيمان به ، وأنّ كله منزل من عند الله ، إذ كل قراءة منها مع الأُخرى بمنزلة الآية مع الآية ، يجب الإيمان بها كلها ، واتباع ما تضمنته من المعنى علماً وعملاً ، لا يجوز ترك موجب إحداهما لأجل الأُخرى ظناً أن ذلك تعارض ، وإلى ذلك أشار عبد الله بن مسعود رضى الله عنه بقوله : « لا تختلفوا فى القرآن ولا تتنازعوا فيه ، فإنه لا يختلف ولا يتساقط . ألا ترون أن شريعة الإسلام فيه واحدة حدودها وقراءتها وأمر الله فيها واحد ، ولو كان من الحرفين حرف يأمر بشىء ينهى عنه الآخر ، كان ذلك الاختلاف . ولـكنه جامع ذلك كله ، ومن قرأ على قراءة فلا يدعها رغبة عنها ، فإنه من كفر بحرف منه كفر به كله » .

قال ابن الجزريّ : قلت : وإلى ذلك أشار النبيّ ﷺ حيث قال لأحد المختلفين «أحسنت» وفى الحديث الآخر « أصبت » وفى الآخر « هكذا أنزلت » فصوّب النبيّ ﷺ قراءة كل من المختلفين وقطع بأنها كذلك أنزلت من عند الله .

افتراق اختلاف القراء من اختلاف الفقهاء

قال ابن الجزرى ، بعد ما تقدم : وبهذا افترق اختلاف القراء من اختلاف الفقهاء ، فإن اختلاف القراء كله حق وصواب نزل من عند الله وهو كلامه لا شك فيه . واختلاف الفقهاء اختلاف اجتهادى ، والحق فى نفس الأمر واحد ، فكل مذهب بالنسبة إلى الآخر صواب يحتمل الخطأ ، وكل قراءة بالنسبة إلى الأخرى حق وصواب فى نفس الأمر ، نقطع بذلك ونؤمن به .

معنى إضافة القراءة إلى من قرأ بها

ثم قال ابن الجزرى ، بعد ما تقدم : ونعتقد أن معنى إضافة كل حرف من حروف الاختلاف إلى من أضيف إليه من الصحابة وغيرهم إنما هو من حيث أنه كان أضبط له وأكثر قراءة وإقراء به وملازمة له وميلا إليه ، لا غير ذلك . وكذلك إضافة الحروف والقراءات إلى أئمة القراءة ورواتهم . المراد بها أن ذلك القارئ ، وذلك الإمام اختار القراءة بذلك الوجه من اللغة حسبما قرأ به . فآثره على غيره وداوم عليه ولزمه حتى اشتهر وعرف به ، وقُصِد فيه وأُخِذ عنه ، فلذلك أضيف إليه دون غيره من القراء ، وهذه الإضافة إضافة اختيار ودوام ولزوم ، لا إضافة اختراع ورأى واجتهاد .

ثمرة اختلاف القراءات وتنوعها

قال فى النشر : «وأما فائدة اختلاف القراءات وتنوعها فإن فى ذلك فوائد غير ما قدمنا من سبب التهوين والتسهيل والتخفيف على الأمة . فمنها : ما فى ذلك من نهاية البلاغة وكمال الإعجاز ، وغاية الاختصار وجمال الإيجاز ؛ لأنّ كلّ قراءة بمنزلة الآية ، إذ كان تنوع اللفظ بكلمة تقوم مقام آيات . ومنها : ما فى ذلك من عظيم البرهان وواضح الدلالة ، إذ هو مع كثرة هذا الاختلاف وتنوعه لم يتطرق إليه تضادٌّ ولا تناقض ولا تخالف، بل كله يصدق بعضه بعضاً ، ويبيّن بعضه بعضاً ، ويشهد بعضه لبعض على نمطٍ واحدٍ وأسلوب واحد ، وما ذلك إلا آية بالغة وبرهان قاطع على صدق من جاء به صلى الله عليه وسلم . ومنها : سهولة حفظه ، وتيسير نقله على هذه الأمة ؛ إذ هو على هذه الصفة من البلاغة والوجازة . فإنه من يحفظ كلمةً ذات أوجهٍ أسهل عليه وأقرب إلى فهمه ، وأدعى لقبوله من حفظه جملا من الكلام تؤدى معانى تلك القراءات المختلفات ، لاسيما فى ما كان خطه واحداً، فإن ذلك أسهل حفظاً، وأيسر لفظاً . ومنها : إعظام أجور هذه الأمة ـ من حيث أنهم يفرغون جهدهم ليبلغوا قصدهم ـ فى تتبع معانى ذلك ، واستنباط الحكم والأحكام : من دلالة كلّ لفظ ، واستخراج كمين أسراره ، وخفىّ إشاراته بقدر ما يبلغ غاية علمهم ، ويصل إليه نهاية فهمهم، والأجر على قدر المشقّة . ومنها : بيان فضل هذه الأمة وشرفها على سائر الأمم من حيث تلقّيهم كتاب ربهم هذا التلقى ، وإقبالهم عليه هذا الإقبال ، والبحث عن لفظةٍ لفظة ، والكشف عن صيغةٍ صيغة ، وتحرير تصحيحه ، وإتقان تجويده ، حتى حموه من خلل التحريف ، وحفظوه من الطغيان والتطفيف ، فلم يهملوا تحريكاً ولا تسكيناً ولا تفخيماً ولا ترقيقاً، حتى ضبطوا مقادير المدات ، وتفاوت الإمالات ، وميّزوا بين الحروف بالصفات، مما لم يهتد إليه فكر أمّة من الأمم ، ولا يوصل إليه إلا بإلهام بارئ النسم . ومنها : ماذخره الله تعالى من المنقبة العظيمة ، والنعمة الجليلة الجسيمة لهذه الأمة ، من إسنادها كتاب ربها واتصال هذا السبب الإلهىّ بسببها ، فكلّ قارئٍ يوصل حرفه بالنقل إلى أصله ، ويرفع

ارتياب الملحد قطعاً بوصله . ومنهـا : ظهور سر الله تعالى فى تولِّيه حفظ كتابه العزيز ، وصيانة كلامه المنزل بأوفى البيان والتميز ، فإنه تعالى لم يُخل عصراً من الأعصار ، ولو فى قطر من الأقطار ، من إمام حجة قائم بنقل كتاب الله تعالى وإتقان حروفه ورواياته ، وتصحيح وجوهه وقراءاته ، يكون وجودُه سبباً لوجود هـذا السبب القويم على ممر الدهور ، وبقاؤه دليلاً على بقاء القرآن العظيم فى المصاحف والصدور » انتهى .

إجمال المباحث المتقدمة في تواتر القراءات وعدمها

قال السيد محمد الطباطبائيّ ـ أحد أعلام الإمامية ـ في كتابه « مفاتيح الأصول » في : باب أدلّة الأحكام في القول في الكتاب الكريم . ما مثاله :

اختلفوا في أنّ القراءات السبع المشهورة ، هل هي متواترة ، أوْ لا ؟ على أقوال :

الأول : إنها متواترة مطلقاً ، وإن الكلّ مما نزل به الروح الأمين على قلب سيد المرسلين . وهو للعلامة ابن المطهر ، وابن فهد ، والمحقق الثاني في المعالم ، والشهيد الثاني في المقاصد العلية ، والمحدث الحر العاملي ، والمحكيّ عن الفاضل الجواد ، وفي شرح الوافية للسيد صدر الدين : معظم المجتهدين من أصحابنا حكموا بتواتر القراءات السبع . وفي التفسير الكبير للرازيّ : ذهب إليه الأكثرون .

الثاني : إن القراءات السبع منها ماهو من قبيل الهيئة كالمدّ واللين وتخفيف الهمزة والإمالة ونحوها ، وذلك لا يجب تواتره وغير متواتر . ومنها : ما هو من جوهر اللفظ كملك ومالك وهذا متواتر . وهذا للفاضل البهائيّ ، وابن الحاجب في مختصره ، والعضديّ في شرحه .

الثالث : إنها ليست بمتواترة مطلقاً ولو كانت من جوهر اللفظ ؛ وهو للشيخ في « التبيان » ونجم الأئمة في « شرح الكافية » ، وجمال الدين الخونساريّ ، والسيد نعمة الله الجزائريّ ، والشيخ يوسف البحرانيّ ، والسيد صدر الدين ، والمحكيّ عن ابن طاوس في كتاب « سعد السعود » ، والرازيّ ، والزمخشريّ ، وإليه يميل كلام الحرفوشيّ .

للقول الأول وجوه :

منها : تضمن جملة من العبارات الإجماع على تواتر السبع : وقد يناقش فيه :

أولاً : بأنّ غاية ما يستفاد ـ مما ذكر ـ الظن بتواتر السبعة ، ومحل الكلام حصول العلم به . وثانيا : باحتمال أن يريدوا ما ذكره الشهيد الثاني في « المقاصد العلية » وولد الشيخ البهائيّ فقالا : « ليس المراد أن كل ما ورد من هذه القراءات متواتر ، بل المراد انحصار المتواتر الآن فيما نقل من هذه القراءات ، فإن بعض ما نقل عن السبعة شاذٌّ فضلاً

عن غيرهم » انتهى . وباحتمال أن يريدوا جواز القراءة بالسبعة . وفى هذين الاحتمالين نظر لبعدها عن ظاهر العبارة فتأمّل ! وثالثاً : بالمعارضة بما ذكره الشيخ فى « التبيان » من أن المعروف من مذهب الإمامية ، والتطلّع فى أخبارهم ورواياتهم ؛ أن القرآن نزل بحرفٍ واحد على نبيٍّ واحد . فتأمّل!

ومنها : ماروى عن النبيّ ﷺ قال : « نزل القرآن على سبعة أحرف كلها شافٍ وافٍ » فإن المراد من الأحرف القراءات . وقد يناقش فيه :

أولا : بضعف السند . سلمنا الصحة . ولكنه خبر واحد ، فلا يفيد العلم بالمدّعَى .

وثانياً : بضعف الدلالة، لعدم الدليل على إرادة القراءات من الأحرف . وقد اختلفوا فى تفسيرها .

ومنها : أن القراءات السبع لو لم تكن متواترة ، ومن القرآن المنزل ، لوجب أن يتواتر ذلك ، ويعلم عدم كونها منه ، والتالى باطل فالمقدّم مثله . أما الملازمة فلأن العادة قاضية بأنه يجب أن يكون ما ليس بقرآن معلوماً أنه ليس بقرآن لتوفر الدواعى على تمييز القرآن عن غيره ، وهو مستلزم لذلك . وفيه نظر .

ومنها : ما تمسك به العلامة فى « نهاية الأصول » ، والحاجبىّ فى « مختصره » ، والعضدىّ فى « شرحه » من أن القراءات السبع « لو لم تكن متواترة لخرج بعض القرآن عن كونه متواتراً ـ كمالك وملك وأشباههما ـ والتالى باطل فالمقدم مثله . بيان الشرطية أنهما وردا عن القراء السبعة ، وليس تواتر أحدهما أولى من تواتر الآخر ، فإمّا أن يكونا متواترين وهو المطلوب ، أولا يكون شيء منهما بمتَوَاتر وهو باطل ، وإلاّ يخرج عن كونه قرآناً ، وهذا خلف » . وأورد عليه جمال الدين الخونسارىّ فقال : « لا يخفى أن دليل وجوب تواتر القرآن ـ وهو توفر الدواعى على نقله ـ لو تم إنّما يدل على وجوب تواتره إلى زمان الجمع . وأمّا بعده ، فالظاهر أنهم اكتفوا فيه بتكثير نسخ هذا الكتاب الذى جمع ، بحيث يصير متواتراً فى كل زمان ، واستغنوا به عن جعل أصل القرآن المنزل متواتراً بالحفظ من خارج ، كيف وقد عرفت أن الظاهر أنه لم يقع التواتر فى كثير من أبعاض القرآن إلاّ

بهذا الوجه ، وهو وجوده فى هذا الكتاب المتواتر ؛ على هذا ، فالاستدلال على تواتر القراءات السبع بما ذكره العضدىّ ضعيف جداً ، إذ بتواتر ذلك الكتاب ـ على الوجه المذكور ـ لا يعلم إلاّ تواتر إحدى القراءات لا بعينها . لا خصوص بعضها ولا جميعها . فالظاهر أنه لابد ـ فى إثبات تواترها ـ من التفحص والتفتيش فى نَقَلَتِها ورُواتها ، فإن ظهر بلوغهم إلى حد التواتر فهو متواتر وإلاّ فلا . والذى ظهر لنا من خارج ، شهرة القراءات السبع دون ما عداها ، وأما بلوغ الجميع أو بعضها حد التواتر فكأنه لا يظهر فى هذه الأعصار .

وللقول الثانى : على تواتر ما هو من جوهر اللفظ ، الوجه الأخير الذى تمسَّك به الجماعة المتقدم إليهم الإشارة لإثبات تواتر السبع ؛ وعلى عدم تواتر ما هو من قبيل الهيأة ـ كالمدّ واللين والإمالة وغيرها ـ ما ذكره بعضٌ مِن أنّ القرآن هو الكلام ، وصفات الألفاظ ـ أعنى الهيأة ـ ليست كلاماً . وأورد عليه الباغنوىّ فقال : « ههنا بحث ، وهو أنه لاشك أن القرآن ههنا عبارة عن اللفظ . وكما أنّ الجوهر جزء مادىّ له ، كذلك الهيأة جزء صورىّ له . فإذا ثبت أن القرآن لابد أن يكون متواتراً ثبت أن الهيأة لابدّ أن تكون متواترةً أيضاً . ولو سلم أنّ الهيأة ليست جزءًا للفظ فلا شك أنها من لوازمه . ولا يمكن نقله بدون نقلها ، فإذا تواتر نقله تواتر نقلها . فإن قلت : نقله لا يستلزم نقلها بخصوصها بل إنما يستلزم نقل إحداها لا بعينها ، فاللازم تواتر القدر المشترك بين تلك الهيئات ، والظاهر أنّ الهيئات المخصوصة لا يوجب تواترها ، فلا منافاة . قلت : ما ذكر من توفر الدواعى على نقل القرآن لا يجرى فى الجواهر المخصوصة أيضاً ، إذ كما أن اختلاف بعض الهيئات لا يؤثر فى صلاحية كون القرآن متحدًى به ، وفى كونه من أصول الأحكام ، كذلك اختلاف بعض الجواهر لا يؤثر فى ذلك ، فلم يلزم أن كلّ ما هو من قبيل الجوهر لابدّ أن يكون متواتراً ، فليتأمّل ..! » انتهى .

واعترض عليه جمال الدين الخونسارىّ فقال ـ بعد الإشارة إليه ـ : « لايخفى أن ماذكر من دليل وجوب تواتر القرآن ـ وهو توفُّر الدواعى على نقله للتحدى به ولكونه أصل سائر الأحكام ـ لايدل إلا على وجوب تواتر مادته وهيأته التى يختلف باختلافها المعنى والفصاحة

والبلاغة . وأمّا ما يكون من قبيل الأداء بالمعنى الذى ذكر ، فلا يدلُّ على وجوب تواتره ، إذ لا مدخل له فيما هو مناط توفُّر الدواعى . أمّا استنباط الأحكام فظاهر . وأمّا التحدى والإعجاز فلأنهما لايوجبان إلا نقل أصل الكلام الذى وقما به من مادّته وصورته التى لهما مدخل فيهما . وأمّا الهيأة التى لا مدخل لها فى ذلك ـ كالمدّ واللين مثلًا ـ فلا حاجة إلى تواترهما ، بل يكفى فيهما الحوالة إلى ما هو دأب العرب فى كلامهم فى المد فى مواضعه ، واللين فى مواقعه ، وكذا فى أمثالها » .

ثمَّ قال : « لا يخفى أنه إذا جوز تغيير بعض الجواهر ، مما يكون من هذا القبيل ، فقد يؤدى خطأً إلى تغيير ما يختلف ويختل به المعنى والفصاحة والبلاغة ، فلابد من سد ذلك الباب بالكلية ، حذراً من أن ينتهى إلى ذلك ، وأما تحريف النقلة فى المد واللين وأمثالها فلا يخل بشىء ، إذ يكفى فيهما الرجوع إلى قوانين العرب فيهما . فإذا نقل إلينا متواتراً جوهر الكلام وهيأته التى لها دخل فى المعنى والفصاحة والبلاغة ، فلنرجع فى المد واللين وأمثالها إلى قوانين العرب ، ولا حاجة إلى أن يتواتر عندنا أنَّه فى أىّ موضع مُدَّ ، وفى أىّ موضع قصر ، وهو ظاهر» .

وللقول الثالث وجوه :

منها : خبر الفضيل بن يسار قال: « قلت لأبى عبدالله عليه السلام : إنَّ الناس يقولون: نزل القرآن على سبعة أحرف ، فقال : بل نزل على حرف واحد من عند واحد » . ويؤيِّده خبر زرارة عن أبى جعفر عليه السلام قال: «إنَّ القرآن واحد نزل من عند الواحد» ولكن الاختلاف يجىء من قبل الرواة .

ومنها : ما ذكره السيد نعمة الله من أنَّ كتب القراءة والتفسير مشحونة من قولهم : قرأ حفص وعاصم كذا ، وفى قراءة علىّ بن أبى طالب وأهل البيت عليهم السلام كذا ، بل ربما قالوا : وفى قراءة رسول الله ﷺ كذا . يظهر من الاختلاف المذكور فى قراءة غير المغضوب عليهم ولا الضالين . والحاصل أنهم يجعلون قراءة القراء قسيمة لقراءة المعصومين . فكيف تكون القراءات السبع متواترة عن الشارع تواتراً يكون حجة على الناس ؟

ومنها : ما ذكره السيد المذكور أيضاً من أن قراءات السبع استندوا بالقراءات بآرائهم ، وإن أسندوا بعض قراءاتهم إلى النبيّ ﷺ ، فلا يجوز أن يدعى تواتر قراءاتهم . وذلك لأن المصحف الذي وقع إليهم خال من الإعراب والنقط . كما هو الآن موجود في المصاحف التي هي بخط مولانا أمير المؤمنين عليه السلام وأولاده . وقد شاهدنا عدة منها في خزانة الرضا عليه السلام . نعم ذكر جمال الدين السيوطيّ في كتابه الموسوم بـ « المطالع السعيدة » : أن أبا الأسود الدؤليّ أعرب مصحفاً واحداً في خلافة معاوية . وبالجملة : لما وقعت إليهم المصاحف على ذلك الحال تصرفوا في إعرابها ونقطها وإدغامها وإمالتها ونحو ذلك من القوانين المختلفة بينهم على ما يوافق مذهبهم في اللغة والعربية ، كما تصرفوا في النحو ، وصاروا إلى ما دوّنوه من القواعد المختلفة .

قال محمد بن بحر الرهنيّ : « إن كل واحد من القراء قبل أن يتجدد القارئ الذي بعده كانوا لا يجيزون إلا قراءته ، ثم لما جاء القارئ الثاني انتقلوا عن ذلك المنع إلى جواز قراءة الثاني ، وكذلك في القراءات السبع . فاشتمل كلّ واحدٍ على إنكار قراءته ، ثم عادوا إلى خلاف ما أنكروه ، ثم اقتصروا على هؤلاء السبعة ، مع أنه قد حصل في علماء المسلمين والعالمين بالقرآن أرجح منهم ، مع أنّ في زمان الصحابة ما كان هؤلاء السبعة ... الخ » .

ومنها : ما ذكره الرازيّ في تفسيره الكبير فإنّه قال : « اتفق الأكثرون على أن القراءات المشهورة منقولة بالتواتر ، وفيه إشكال ، وذلك لأنا نقول هذه القراءات ، إمّا أن تكون منقولة بالنقل المتواتر ، أو لا تكون ، فإن كان الأول فحينئذ قد ثبت بالنقل المتواتر أنّ الله قد خيّر المكلفين بين هذه القراءات وسوّى بينها بالجواز ، وإذا كان كذلك كان ترجيح بعضها على بعض واقعاً ، على خلاف الحكم الثابت بالتواتر ، فيجب أن يكون الذاهبون إلى ترجيح البعض على البعض مستوجبين للفسق إن لم يلزمهم الكفر ، كما ترى أنّ كلّ واحد من هؤلاء القراء يختصّ بنوع معين من القراءة ، ويحمل الناس عليه ويمنعهم عن غيره . وأمّا إنْ قلنا : إنّ هذه القراءات ما ثبتت بالتواتر ، بل بطريق الآحاد فحينئذ يخرج القرآن عن كونه مفيداً للجزم والقطع وذلك باطل بالإجماع » . ثمّ قال : « ولقائل أن

يجيب عنه ، فيقول : بعضها متواتر ، ولا خلاف بين الأمة فيه ، وفى تجويز القراءة بكل واحدٍ منها . وبعضها من باب الآحاد ، وكون بعض القراءات من باب الآحاد لا يقتضى خروج القرآن بالكلية عن كونه قطعياً » انتهى .

ومنها : أنها لو كانت متواترة لكان ترك البسملة من أوائل السور ، عدا الحمد ، متواتراً. لأنه من قراءة بعض السبعة ، فيلزم جواز تركها فى الصلاة ، وهو باطل للأدلّة الدالة على عدمه ، وقد بيّناها فى المصابيح .

ومنها : ما ذكره العلامة الشيرازىّ ـ فيما حكى عنه ـ من : « إن الذين يستند إليهم القراء سبعة . والتواتر لا يحصل بسبعة فضلاً فيما اختلفوا فيه ـ ثم قال ـ أجيب عنه أولا : بأنا لا نسلم أن التواتر لا يحصل بسبعة لأنه لا يتوقف على حصول عدد معيّن ، بل المعتبر فيه حصول اليقين . وثانيا : بأن التواتر ما حصل من هؤلاء السبعة لأن القارئين لكل واحدةٍ من القراءات السبع كانوا بالغين حدّ التواتر ؛ إلاّ أنهم استندوا ـ كل واحدٍ منهم ـ إلى واحدٍ منهم ، إما لتجرده بهذه القراءة ، أو لكثرة مباشرته بها ؛ ثم أسندوا الرواية عن كل واحد منهم إلى اثنين لتجردهما لروايتها » انتهى .

وفى جميع الوجوه المذكورة نظر .

والتحقيق أن يقال : إنه لم يظهر دليل قاطع على أحد الأقوال فى المسألة . نعم يمكن استظهار القول الأول للإجماعات المحكية المتضدة بالشهرة العظيمة بين الخاصة والعامة والمؤيدة بالمروىّ عن الخصال ـ كذا ـ المتقدم إليه الإشارة وغيره مما ذكر حجةً عليه . ولا يعارضها خبر الفضيل وزرارة لقصور دلالتهما جداً . فإن المناقشة فى حديث « نزل القرآن على سبعة أحرف » جار فيهما كما لا يخفى . ولا يقدح فيها ما ذكره السيد نعمة الله والرازىّ وغيرهما مما ذكر ، حجة على القول الثالث ، كما لا يخفى على المتدبر .

وينبغى التنبيه على أمور :

الأول : قال العلامة الشيرازىّ فيما حكى عنه : « السبع متواترة بشرط صحة إسنادها إليهم ، واستقامة وجهها فى العربية ، وموافقة لفظها خط المصحف المنسوب إلى صاحبها

كذلك ـ كمالك بالألف ، وملك بغير الألف ـ المنسوب أولهما إلى الكسائى وعاصم بإسناد صحيح ، مع كونه مكتوباً بالألف فى مصحفهما ، واستقامة وجهه فى العربيـة » . ثم قال : « وفيه نظر ، لأنّ المتواتر مايفيد العلم ، فإذا حصل ثبت أنه قرآن ، والعربية ينبغى أن تكون متبعة بالقرآن دون العكس . ثم إنه لا مدخل لموافقة الخط وعدمها عند ثبوت التواتر .

الثانى : اعلم أنه إذا قلنا بأنّ القراءات السبع كلها متواترة يقيناً ، فيتفرع عليه أمور : منها : جواز استفادة الأحكام الشرعية من كل منها . ومنها : وجوب الاجتناب من كل منها أصالة إذا كان محدثاً . ومنهـا : لزوم الجمع بين القراءات عند تعارضها ، كما يجب الجمع بين الآيات عند تعارضها . وإن قلنا بأنّ تواترها غير ثابت يقيناً، فيتفرع عليه أمور : منها : عدم وجوب الاجتناب عن جميع القراءات أصالة إذا كان محدثاً ، بل يجب من باب المقدمة على القول بأنّ المنهىّ عنه ـ إذا كان مشتبهاً بغيره وكان محصورًا ـ وجب الاجتناب عن الجميع. وأمّا على القول بعـدم وجوب ذلك فلا يجب الاجتناب ـ عمّا ذكر ـ لا أصالة ولا مقدّمة . ومنها : عدم جواز الاستدلال بشيء من القراءات ، ولزوم الجمع بينها عند التعارض . لكنّ هذا إنّما يصحّ إذا منعنا الظنّ بتواترها ، وأمّا إذا قلنا به ، فيجوز الاستدلال بكلٍّ منها ، ويجب الجمع بينها ، كما إذا علم به ، بناءً على أنّ الأصل فى كل ظن الحجية ، فإنْ منع منه ، ففى الأمرين نظر .. ! » انتهى بحروفه ملخصاً .

فصل

فى ذكر ملخص وجوه التفسير ومراتبه

هذا الفصل ننقله عن مقدّمة التفسير الذى شرع فيه ، فى هذا العهد ، الأستاذ النحرير الشيخ محمد عبده مفتى مصر . قال ـ حرسه الله وأيّده ورعاه ـ :

« التكلم فى تفسير القرآن ليس بالأمر السهل ، وربما كان من أصعب الأمور وأهمّها ، وما كل صعب يترك . ولذلك لاينبغى أن يمتنع الناس عن طلبه . ووجوه الصعوبة كثيرة ، أهمُّها : أنَّ القرآن كلام سماوىّ تنزّل من حضرة الربوبية ، التى لا يكتنه كنهها ، على قلب أكمل الأنبياء ، وهو يشتمل على معارف عالية ، ومطالب سامية ، لا يُشرف عليها إلا أصحاب النفوس الزاكية والعقول الصافية ، وأنَّ الطالب له يجد أمامه من الهيبة والجلال ، الفائضيْن من حضرة الكمال ، ما يأخذ بتلبيبه ، ويكاد يحول دون مطلوبه . ولكن الله تعالى خفف علينا الأمر بأن أمرنا بالفهم والتعقّل لكلامه ، لأنه إنما أنزل الكتاب نورًا وهدًى مبيناً للناس شرائعه وأحكامه ، ولا يكون كذلك إلا إذا كانوا يفهمونه . والتفسير الذى نطلبه هو فهم الكتاب من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم فى حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة . فإنَّ هذا هو المقصد الأعلى منه ، وما وراء هذا من المباحث تابع له ، أو وسيلة لتحصيله .

التفسير له وجوه شتّى :

أحدها : النظر فى أساليب الكتاب ومعانيه وما اشتمل عليه من أنواع البلاغة ليعرف به علوّ الكلام ، وامتيازه على غيره من القول . سلك هذا المسلك الزمخشرىّ ، وقد ألمّ بشىء من المقاصد الأخرى ، ونحا نحوه آخرون .

ثانيها : الإعراب، وقد اعتنى بهذا أقوام توسّعوا فى بيان وجوهه، وما تحتمله الألفاظ منها.

ثالثها : تتبّع القصص ، وقد سلك هذا المسلك أقوام زادوا فى قصص القرآن ما شاؤوا من كتب التاريخ ، والإسرائيليات ، ولم يعتمدوا على التوراة والإنجيل والكتب المعتمدة

عند أهل الكتاب وغيرهم ، بل أخذوا جميع ماسمعوه عنهم من غير تفريق بين غثٍ وسمين ، ولا تنقيح لما يخالف الشرع ولا يطابق العقل .

رابعها : غريب القرآن .

خامسها : الأحكام الشرعية من عبادات ومعاملات ، والاستنباط منها .

سادسها : الكلام فى أصول العقائد ، ومقارعة الزائغين ، ومحاجّة المختلفين . وللإمام الرازىّ العناية الكبرى بهذا النوع .

سابعها : المواعظ والرقائق ، وقد مزجها ، الذين وَلِعوا بها ، بحكايات المتصوفة والعبّاد. وخرجوا ببعض ذلك عن حدود الفضائل والآداب التى وضعها القرآن .

ثامنها : ما يسمّونه بالإشارة ، وقد اشتبه على الناس فيه كلام الباطنية بكلام الصوفية .

وقد عرفت أنّ الإكثار فى مقصد خاص من هذه المقاصد يخرج بالكثيرين عن المقصود من الكتاب الإلهىّ ، ويذهب بهم فى مذاهب تنسيهم معناه الحقيقىّ . لهذا كان الذى نُعْنَى به من التفسير هو ما سبق ذكره ، ويتبعه بلا ريب بيان وجوه البلاغة بقدر ما يحتمله المعنى ، وتحقيق الإعراب على الوجه الذى يليق بفصاحة القرآن وبلاغته .

ويمكن أن يقول بعض أهل هذا العصر : لا حاجة إلى التفسير والنظر فى القرآن ، لأن الأئمة السابقين نظروا فى الكتاب والسنة ، واستنبطوا الأحكام منهما ، فما علينا إلا أن ننظر فى كتبهم ، ونستغنى بها .. ! هكذا زعم بعضهم !! ولو صحّ هذا الزعم ، لكان طلب التفسير عبثاً يضيع به الوقت سدًى ، وهو ـ على ما فيه من تعظيم شأن الفقه ـ مخالف لإجماع الأمة ، من النبىّ ﷺ إلى آخر واحدٍ من المؤمنين .. ! ولا أدرى كيف يخطر هذا على بال مسلم .. ؟ !

الأحكام العملية التى جرى الاصطلاح على تسميتها فقهاً هى أقلّ ماجاء فى القرآن . وإن فيه من التهذيب ودعوة الأرواح إلى ما فيه سعادتها ورفعها من حضيض الجهالة إلى أوج المعرفة ، وإرشادها إلى طريقة الحياة الاجتماعية، مالايستغنى عنه من يؤمن بالله واليوم الآخر، وماهو أجدر بالدخول فى الفقه الحقيقىّ ، ولا يوجد هذا الإرشاد إلافى القرآن. وفيما أخذمنه،

كإحياء العلوم ، حظّ عظيم من علم التهذيب . ولكن سلطان القرآن على نفوس الذين يفهمونه، وتأثيره فى قلوب الذين يتلونه حقّ تلاوته لا يساهمه فيه كلام ؛ كما أنّ الكثير من حِكَمِهِ ومعارفه لم يكشف عنها اللثام ، ولم يفصح عنها عالم ولا إمام .

ثمّ إنّ أئمة الدين قالوا : إن القرآن سيبقى حجّة على كل فردٍ من أفراد البشر إلى يوم القيامة لحديث : « والقرآن حجة لك أو عليك » . (أول حديث فى كتاب الطهارة من صحيح مسلم . عن أبى مالك الأشعرىّ) ولا يعقل هذا إلاّ بفهمه والإصابة من حكمته وحُكْمِهِ .

خاطب الله بالقرآن من كان فى زمن التنزيل ، ولم يوجه الخطاب إليهم لخصوصية فى أشخاصهم ، بل لأنّهم من أفراد النوع الإنسانىّ الذى أنزل القرآن لهدايته ، يقول الله تعالى : « يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ »(١) فهل يعقل أنه يرضى منا بأن لا نفهم قوله هذا ونكتفى بالنظر فى قول ناظر نظر فيه ، ولم يأتنا من الله وحىٌ بوجوب اتباعه، لا جملةً ولا تفصيلاً .. ؟ كلا . إنه يجب على كل واحد من الناس أن يفهم آيات الكتاب بقدر طاقته، لا فرق بين عالمٍ وجاهل ، يكفى العامىّ من فهم قوله تعالى : « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ . . . الخ »(٢) مايعطيه الظاهر من الآيات ، وأن الذين جُمِعَت أوصافهم فى الآيات الكريمة لهم الفوز والفلاح عند الله تعالى ، ويكفى فى معرفة الأوصاف أن يعرف معنى الخشوع ، والإعراض عن اللغو ، ومالا خير فيه ، والإقبال على ما فيه فائدة له دنيوية أو أخروية ، وبذل المال فى الزكاة ، والوفاء بالعهد ، وصدق الوعد ، والعفة عن إتيان الفاحشة . وأنّ من فارق ، هذه الأوصاف إلى أضدادها فهو المعتدى حدود

(١) [٤/ النساء/ ١] ونصها : يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ، وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا .

(٢) [٢٣ / المؤمنون / ١-٦] ونصها: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَامَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ.

الله ، المتعرض لغضبه . وفهم هذه المعانى مما يسهل على المؤمن من أى طبقة كان ، ومن أهل أىّ لغة كان . ومن الممكن أن يتناول كلّ أحد من القرآن بقدر ما يجذب نفسه إلى الخير ، ويصرفها عن الشر ، فإنّ الله تعالى أنزله لهدايتنا ، وهو يعلم منا كلّ أنواع الضعف الذى نحن عليه . وهناك مرتبة تعلو على هذه وهى من فروض الكفاية .

للتفسير مراتب : أدناها أن يبين بالإجمال ما يُشرب القلب عظمة الله تعالى وتنزيهه ، ويصرف النفس عن الشرّ ويجذبها إلى الخير ، وهذه هى التى قلنا إنها متيسرة لكلّ أحد « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ». [٥٤/القمر/١٧،٢٢،٣٢،٤٠]

وأما المرتبة العليا فإنها لا تتم إلا بأمور :

أحدها : فهم حقائق الألفاظ المفردة التى أودعها القرآن ، بحيث يحقق المفسر ذلك من استعمالات أهل اللغة ، غير مكتفٍ بقول فلان ، وفهم فلان ، فإن كثيراً من الألفاظ كانت تستعمل فى زمن التنزيل لمعان ، ثم غلبت على غيرها بعد ذلك بزمن قريب أو بعيد ؛ من ذلك لفظ التأويل. اشتهر بمعنى التفسير مطلقاً أو على وجه مخصوص. ولكنه جاء فى القرآن بمعان أخرى ، كقوله تعالى : [٧ / الأعراف / ٥٣] « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ، يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ »[1] فما هذا التأويل ؟

يجب على من يريد الفهم الصحيح أن يتتبع الاصطلاحات التى حدثت فى الملة ليفرق بينها وبين ما ورد فى الكتاب . فكثيرا ما يفسر المفسرون كلمات القرآن بالاصطلاحات التى حدثت[2] فى الملة بعد القرون الثلاثة الأولى . فعلى المدقق أن يفسر القرآن بحسب المعانى التى كانت مستعملة فى عصر نزوله . والأحسن أن يفهم اللفظ من القرآن نفسه. بأن يجمع

(١) لا يخفى أن معناه العاقبة وما يَعِد به القرآن من المثوبة والعقوبة . اهـ .

(٢) من ذلك : لفظ (الولىّ) معناه فى القرآن غالبا : الناصر . والموالى . وأولياء الله: أنصار دينه من أهل الإيمان والتقوى . وقد اصطلحوا بعد ذلك على أنّ الأولياء صنف من الناس تظهر على أيديهم الخوارق ، ويتصرفون فى الكون بما وراء الأسباب ، ولم يعرف الصحابة هذا المعنى . اهـ .

ما تكرر فى مواضع منه ، وينظر فيه . فربما استعمل بمعانٍ مختلفةٍ . كلفظ « الهداية » ـ سيأتى تفسيره فى الفاتحة ـ وغيره ، ويحقق كيف يتفق معناه مع جملة معنى الآية، فيعرف المعنى المطلوب من بين معانيه ؛ وقدقالوا : إنّ القرآن يفسّر بعضه ببعض . وإن أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ : موافقته لما سبق له من القول ، واتفاقه مع جملة المعنى، وائتلافه مع القصد الذى جاء له الكتاب بجملته .

ثانيها : الأساليب : فينبغى أن يكون عنده من علمها ما يفهم به هذه الأساليب الرفيعة، وذلك يحصل بممارسة الكلام البليغ ومزاولته ، مع التفطن لنكته ومحاسنه والعناية بالوقوف على مراد المتكلم منه . نعم، إننا لانتسامى إلىفهم مراد الله تعالى كلّه على وجه الكمال والتمام، ولكن يمكننا فهم مانهتدى به بقدر الطاقة ، ويحتاج فى هذا إلى علم الإعراب وعلمالأساليب ـ المعانى والبيان ـ ولكن مجرّد العلم بهذه الفنون، وفهم مسائلها، وحفظ أحكامها ، لايفيد المطلوب . ترون فى كتب العربيّة أنّ العرب كانوا مسدَّدين فى النطق يتكلمون بما يوافق القواعد قبل أن توضع ! أتحسبون أنّ ذلك كان طبيعياً لهم ؟ كلا ! وإنما هى ملكة مكتسبة بالسماع والمحاكاة ، ولذلك صار أبناء العرب أشدّ عجمةً من العجم عند ما اختلطوا بهم ، ولو كان طبيعياً ذاتياً لهم لما فقدوه فى مدَّة خمسين سنة من بعد الهجرة ..!

ثالثها : علم أحوال البشر : فقد أنزل الله هذا الكتاب وجعله آخر الكتب وبيّن فيه ما لم يبيّنه فى غيره . بيّن فيه كثيراً من أحوال الخلق وطبائعه ، والسنن الإلهية فى البشر ، وقصّ علينا أحسن القصص عن الأمم وسيَرها الموافقة لسنته فيها ، فلابدّ للناظر فى هذا الكتاب من النظر فى أحوال البشر فى أطوارهم ، وأدوارهم ، ومناشئ اختلاف أحوالهم من قوّةٍ وضعف ، وعزٍّ وذلّ ، وعلمٍ وجهل ، وإيمانٍ وكفر . ومن العلم بأحوال العالم الكبير علويّه وسفليّه ، ويحتاج فى هذا إلى فنون كثيرةٍ من أهمّها : التاريخ بأنواعه .

أجمل القرآن الكلام عن الأمم، وعن السنن الإلهية ، وعن آياته فى السموات والأرض وفى الآفاق والأنفس ؛ وهو إجمال صادر عمّن أحاط بكل شىء علماً ؛ وأمرنا بالنظر والتفكر والسير فى الأرض لنفهم إجماله بالتفصيل الذى يزيدنا ارتقاء وكمالاً . . ! ولو اكتفينا من علم

الـكون بنظرة فى ظاهره، لـكنّا كمن يعتبر الـكتاب بلون جلده، لا بما حواه من علم وحكمة..!

رابعها : العلم بوجه هداية البشر كلهم بالقرآن . فيجب على المفسِّر القائم بهذا الفرض الـكفائىّ أنْ يعلم ما كان عليه الناس فى عصر النبوَّة من العرب وغيرهم ، لأن القرآن ينادى بأنَّ الناس كلهم كانوا فى شقاء وضلال ، وأن النبىّ ﷺ بعث به لهدايتهم وإسعادهم . . !
وكيف يفهم المفسِّر ما قبحته الآيات من عوائدهم على وجه الحقيقة ــ أو ما يقرب منها ــ إذا لم يكن عارفاً بأحوالهم وما كانوا عليه ؟ هل يكتفى من علماء القرآن ــ دعاة الدين والمناضلين عنه ــ بالتقليد بأن يقولوا ــ تقليداً لغيرهم ــ إنَّ الناس كانوا على باطل ، وإن القرآن دحض أباطيلهم فى الجملة ؟ كلا . . !

خامسها : العلم بسيرة النبىّ ﷺ وأصحابه ، وما كانوا عليه من علم وعمل ، وتصرُّف فى الشؤون دنيويّها وأخرويّها .

فعلم ــ مما ذكرنا ــ أنَّ التفسير قسمان :

أحدها : جافٌّ مُبْعِدٌ عن الله وكتابه ، وهو مايقصد به : حلّ الألفاظ ، وإعراب الجمل، وبيان ما ترمى إليه تلك العبارات والإشارات من النكت الفنية . وهـذا لاينبغى أن يسمّى تفسيراً ، وإنما هو ضرب من التمرين فى الفنون كالنحو والمعانى وغيرها .

وثانيهما : (وهو التفسير الذى قلنا إنه يجب على الناس على أنه فرض كفاية) هو الذى يستجمع تلك الشروط لأجل أن تستعمل لغايتها ، وهو ذهاب المفسِّر إلى فهم مراد القائل من القول وحكمة التشريع فى العقائد والأخلاق والأحكام على الوجه الذى يجذب الأرواح ويسوقها إلى العمل والهداية المودعة فى الـكلام ، ليتحقق فيه معنى قوله : « هدى ورحمة » ونحوها من الأوصاف .

فالمقصد الحقيقىّ وراء كل تلك الشروط والفنون ، وهو الاهتداء بالقرآن .

وهذا هو الغرض الأول الذى أرمى إليه فى قراءة التفسير » .

ثم تـكلم عن التفسير والتأويل فى اصطلاح العلماء ، وبيّن عظم شأن التفسير وفهمه بما مثاله :

« مثل الناطقين بالعربية الآن ـ من العراق إلى نهاية بلاد مَرَّاكُش ـ بالنسبة إلى العرب فى لغتهم، كمثل قومٍ من الأعاجم ـ مخالطين للعرب ـ وجد فى كلامهم ـ بسبب المخالطة ـ مفردات كثيرة من العربية . فهؤلاء الأقوام أشدّ حاجةً إلى التفسير وفهم القرآن من المسلمين الأوّلين ، لا سيما من كانوا فى القرن الثالث حيث بدىء بكتابة التفسير وأحسّ المسلمون بشدّة حاجتهم إليه . ولا شك أن من يأتى بعدنا يكون أحوج منا إلى ذلك ، إذا بقينا على تقهقرنا ؛ ولكن إذا يسّر الله لنا نهضةً لإحياء لغتنا وديننا فربما يكون مَنْ بعدنا أحسن حالاً منا .. !

التفسير عند قومنا ـ اليوم ومن قبل اليوم بقرون ـ هو عبارة عن الاطلاع على ما قاله بعض العلماء فى كتب التفسير ، على ما فى كلامهم من اختلاف يتنزه عنه القرآن « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيرًا »[1] وليت أهل العناية بالاطلاع على كتب التفسير ـ يطلبون لأنفسهم معنى تستقر عليه أفهامهم فى العلم بمعانى الكتاب ، ثم يبثونه فى الناس ويحملونهم عليه ـ لم يطلبوا ذلك ، وإنما طلبوا صناعة يفاخرون بالتفنن فيها ، ويمارون فيها من يباريهم فى طلبها ، ولا يخرجون ـ لإظهار البراعة فى تحصيلها ـ عن حدّ الإكثار من القول ، واختراع الوجوه من التأويل ، والإغراب فى الإبعاد عن مقاصد التنزيل . إن الله تعالى لا يسألنا يوم القيامة عن أقوال الناس ، وما فهموه ، وإنما يسألنا عن كتابه الذى أنزله لإرشادنا وهدايتنا ، وعن سنة نبيه الذى بيّن لنا مانزل إلينا « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »[2] . يسألنا : هل بلغتكم الرسالة ؟ هل تدبّرتم ما بُلِّغتم ؟ هل عقلتم ما عنه نُهيتم وما به أُمرتم ؟ وهل عملتم بإرشاد القرآن ، واهتديتم بهدى النبيّ ، واتبعتم سنّته ؟

(١) [٤ / النساء / ٨٢] ونصها : أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيرًا .

(٢) [١٦ / النحل / ٤٤] ونصها : بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ، وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ .

عجباً لنا ! ننتظر هـذا السؤال ، ونحن فى هذا الإعراض عن القرآن وهديه . . ! فياللغفلة والغرور .

معرفتنا بالقرآن كمعرفتنا بالله تعالى . أول ما يلقّن الوليد عندنا من معرفة الله تعالى هو اسم « الله » تبارك وتعالى ، يتعلمه بالأيمان الكاذبة ، كقوله : والله لقد فعلت كذا وكذا ، والله ما فعلت كذا ... وكذلك القرآن ! يسمع الصبىّ ممن يعيش معهم : أنه كلام الله تعالى ، ولا يعقل معنى ذلك ، ثم لا يعرف من تعظيم القرآن إلا ما يعظمه به سائر المسلمين الذين يتربّى بينهم ، وذلك بأمرين :

أحدهما : اعتقاد أنّ آية كذا إذا كتبت ومحيت بماء وشربه صاحب مرض كذا ، يشفى ! وأنّ من حمل القرآن لا يقربه جنّ ولا شيطان ! ويبارك له فى كذا وكذا ... إلى غيرذلك مماهو مشهور ومعروف للعامةأكثر مما هو معروف للخاصة ..! ومع صرف النظرعن صحةهذا وعدم صحته ، نقول : إنّ فيه مبالغةفىالتعظيمعظيمة جداً ، ولكنهاـوياللأسف..!ـ لا تزيد عن تعظيم التراب الذى يؤخذ من بعض الأضرحة ابتغاء هذه المنافع والفوائد نفسها ..! ونحو هذا ما يعلق على الأطفال من التعاويذ والتناجيس : كالخرق ، والعظام ، والتمائم المشتملة على الطلسمات والكلمات الأعجمية المنقولة عن بعض الأمم الوثنية ..!

هذا الضرب من تعظيم القرآن نسميه ـ إذا جرينا على سنة القرآن ـ عبادةً للقرآن لا عبادة لله به !

ثانيهما : الهزّة ، والحركة المخصوصة ، والكلمات الملومة ... التى تصدر ممن يسمعون القرآن إذا كان القارىء رخيم الصوت ، حسن الأداء ، عارفاً بالتطريب على أصول النغم ..

والسبب فى هذه اللذة والنشوة هو حُسْن الصوت والنغم ، بل أقوى سبب لذلك هو بُعْدُ السامع عن فهم القرآن .. ! وأعنى بالفهم : ما يكون عن ذوق سليم تصيبه أساليب القرآن بعجائبها ، وتملكه مواعظها ، فتشغله عمّا بين يديه مما سواه . لا أريد الفهم المأخوذ بالتسليم الأعمى من الكتب أخذاً جافاً ، لم يصحبه ذلك الذوق وما يتبعه من رقّة الشعور ولطف الوجدان اللذين هما مدار التعقل والتأثر والفهم والتدبر ...

لهذا كلّه ، يمكننا أن نقول : إن الجاهلية اليوم أشدّ من الجاهلية والضالين فى زمن النبيّ ﷺ ، لأن مِن أولئك مَن قال الله تعالى فيهم: «يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ»(١) ومعرفة الحقّ أمرٌ عظيم شريف . . ! نعم ، ربما كان إثم صاحبها مع الجحود أشد ، ولكنه يكون دائما ملوماً من نفسه على الإعراض عن الحقّ . وهذا اللوم يزلزل ما فى نفسه من الإصرار على الباطل .

كان البدويّ راعى الغنم يسمع القرآن فيخرّ له ساجداً لما عنده من رقّة الإحساس ولطف الشعور ..! فهل يقاس هذا بأىّ متعلم اليوم؟ أرأيت أهل جزيرة العرب كيف انضوَوْا إلى الإسلام بجاذبية القرآن لما كان لهم من دقّة الفهم التى كانت سبب الانجذاب إلى الحقّ..!

ـ وأشار الأستاذ هنا إلى البنت الأعرابية التى فطنت لاشتمال الآية الآتية على أمرين ونهيين وبشارتين ـ ومجمل الخبر : أنّ الأصمعىّ قال : سمعت بنتاً من الأعراب خماسية أو سداسية تنشد :

أستغفر الله لذنبى كلّهِ قتلت إنساناً بغير حلّهِ
مثل غزالٍ ناعمٍ فى دلّهِ وانتصف الليل ولم أصلّهِ

فقلت لها : قاتلك الله ما أفصحك ! فقالت : ويحك ! أيُعَدُّ هذا فصاحةً مع قوله تعالى: « وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ، فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي، إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ »(٢) فجمع فى آيةٍ واحدةٍ بين أمرين ونهيين وبشارتين ..!

---

(١) [٢/ البقرة/ ١٤٦] ونصها: الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ، وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

و [٦ / الأنعام / ٢٠] ونصها : الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ . الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

(٢) [٢٨ / القصص / ٧] .

لما رأى علماء المسلمين فى الصدر الأول تأثير القرآن فى جذب قلوب الناس إلى الإسلام، وأنّ الإسلام لا يحفظ إلّا به ؛ ولما كان العرب قد اختلطوا بالعجم ، وفهم من دخل فى الإسلام من الأعاجم ما فهمه علماء العرب ، أجمع كلٌّ على وجوب حفظ اللغة العربية ، ودوّنوا لها الدواوين ، ووضعوا لها الفنون .

نعم ، إنّ الاشتغال بلغة الأمة وآدابها فضيلة فى نفسه ، ومادّة من موادّ حياتها ، ولا حياة لأمة ماتت لغتها . ولكن لم يكن هذا وحده هو الحامل لسلف الأمة على حفظ اللغة بمفرداتها وأساليبها وآدابها ، وإنّما الحامل لهم على ذلك ما ذكرنا .

ألّف العلّامة الأسفرايينى كتاباً فى الفِرَق ، ختمه بذكر أهل السنّة ومزاياهم ، وعدّ من فضائلهم ـ التى امتازوا بها على سائر الفرق ـ التبريز فى اللغة وآدابها ، وبيّن ذلك بأجلى بيان . فأين هذه المزايا ؟ وأين آثارها فى فهم القرآن؟ بل وفهم مادونه من الكلام البليغ..؟ وقد بيّنا وجه الحاجة فى التفسير إلى تحصيل ملكة الذوق العربىّ ، وإلى غير ذلك من الأمور التى يتوقف عليها فهم القرآن » انتهى .

فصل

فى بيان دقائق المسائل العلمية الفلكية الواردة فى القرآن الكريم

قال بعض علماء الفلك ما مثاله : إنّ القرآن الكريم قد أتى فى هذا الباب بمسائل علمية دقيقة لم تكن معروفة فى زمن النبيّ ﷺ . وهذه المسائل تعتبر من معجزات القرآن العلمية الخالدة . وها كها ملخصة :

المسألة الأولى ـ : الأرض كوكب كباقى الكواكب السيارة « اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ »(١) وهما من مادّةواحدة « كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا »(٢) . وهىتدور حول الشمس « وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ »(٣) .

المسألة الثانية : السيارات الأخرى مسكونة بالحيوانات « وَمَابَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ »(٤) ـ

---

(١) [٦٥ / الطلاق / ١٢] ونصها : اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا .

(٢) [٢١/ الأنبياء/ ٣٠] ونصها: أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ، وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ، أَفَلَا يُؤْمِنُونَ .

(٣) [٢٧ / النمل / ٨٨] ونصها : وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ، صُنْعَ اللَّهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ، إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ .

(٤) [٤٢ / الشورى / ٢٩] ونصها : وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ ، وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ .

تُسَبِّحُ لَهُ السَّمٰوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ [١] - يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » [٢] ومجموع هذه الآيات يدلّ على أنّ فى السموات حيوانات عاقلة كالإنسان ، لا كما كان يزعم القدماء : أنّ الكواكب كلّها أجرام فارغة خلقت ليتلذذ بمنظرها الإنسان ..!

المسألة الثالثة : ليس القمر خاصاً بالأرض ، بل للسيارات الأخرى أقمار « وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا » [٣] فالألف واللام فى « القمر » للجنس لا للعهد ، كما فى قوله تعالى : « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ » [٤].

المسألة الرابعة : ليست السيارات مضيئةً بذاتها ، بل إنّ الشمس هى مصباحها جميعاً « وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا » [٥] أى لهن ، كما يدلّ عليه السياق ؛ فالنور الذى نشاهده فيها منعكس عليها من الشمس .

المسألة الخامسة : السماوات والسيارات السبع شىء ، والشمس والقمر شىء آخر ، فهما ليسا من السيارات كما كان يتوهم القدماء « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ... » [٦] الآية وغيرها كثير .

المسألة السادسة : العوالم متعدّدة : ولذلك يقول القرآن فى كثير من المواضع :

---

(١) [١٧/الإسراء/٤٤] ونصها: تُسَبِّحُ لَهُ السَّمٰوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا.

(٢) [٥٥ / الرحمن / ٢٩] ونصها : يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ .

(٣) [٧١/ نوح / ١٦] ونصها : وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا.

(٤) [٩٥ / التين / ٤] .

(٥) [٧١ / نوح / ١٦] ونصها : وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا.

(٦) [٢٩/ العنكبوت / ٦١] ونصها: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ، فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ .

« الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ »(١) والعوالم هى منظومات من الكواكب المتجاذبة « وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ »(٢) . لا كما كان يتوهم القدماء : أن العالم واحد وأنّ الإنسان أشرف الموجودات . . !

المسألة السابعة ـ ليست جميع العوالم مخلوقة لأجل هذا الإنسان « لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ »(٣) أى الناس المعهودين على وجه الأرض . والإنسان الأرضىّ أفضل من بعض المخلوقات لا كلها « وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا »(٤) . ولا ينافى ذلك قوله تعالى : « وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ »(٥) إذ لا يلزم من هذا القول أنها غير مسخرة لغيرنا من الأحياء ، فالبحر مثلاً ، قال الله تعالى فيه : « سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ »(٦) مع أنه مسخّر لغيرنا من الحيوانات البحرية تسخيراً أتمّ وأعمّ ، فمنه تأكل وتشرب وتتنفس ، وفيه تسكن وتحيي وتموت . فما هو مسخّر لبعض الحيوانات تسخيراً جزئياً قد يكون مسخراً لغيرها تسخيراً كلياً . فكذلك النجوم مسخرة لنا ـ لنهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ـ مع أنها لغيرنا شموس عليها قوام حياتهم ، كما إن شمسنا عليها قوام حياتنا وهى ـ بالنسبة لهم ـ نجمٌ من نجوم الثوابت .

---

(١) [١ / فاتحة الكتاب / ٢] .

(٢) [٥١ / الذاريات / ٧] .

(٣) [٤٠ / غافر / ٥٧] ونصها : لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

(٤) [١٧ / الإسراء / ٧٠] ونصها : وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا .

(٥) [٤٥ / الجاثية / ١٣] ونصها : وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

(٦) [٤٥ / الجاثية / ١٢] ونصها : اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

وبالجملة : فإن جميع العوالم ـ بما بينها من الارتباط العام والتجاذب الذى بينها ـ مسخرة بعضها لبعض بالنفع الكلىّ أو الجزئىّ .

المسألة الثانية ـ : كان القدماء يعتقدون أن جميع الثوابت مركوزة فى كرةٍ مجوّفة يسمونها كرة الثوابت ـ أو فلك الثوابت ـ وبحركة هذه الكرة تتحرك الكواكب كما تقدم . ومعنى ذلك : أن الكواكب لا حركة لها بذاتها ، وأن فلك جميع الثوابت واحد وأنه جسم صلب . والحقيقة خلاف ذلك . فإن لكل كوكبٍ فلكاً يجرى فيه وحده ، وكل كوكبٍ يتحرك بذاته لا بحركة غيره ، والكواكب جميعاً سابحة فى الفضاء ، أو بعبارة أصحّ فى الأثير ـ مادّة العالم الأصلية ـ غير مركوزة فى شىء مما يتوهمون . وبهذه الحقائق جاء الكتاب الحكيم والناس فى الظلمات والأوهام يتخبطون .. ! قال الله تعالى : « وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ »[1] والتنوين فى لفظ « كلّ » عوض عن الإضافة . والمعنى : كل واحدٍ من الكواكب فى فلكٍ خاصّ به يسبح بذاته . وفى قوله « يَسْبَحُونَ » إشارة إلى مادة العالم الأصليه ـ الأثير ـ التى تسبح فيها الكواكب كما تسبح الأسماك فى الماء . فليست الأفلاك أجساماً صلبةً تدور بالكواكب كما كانوا يزعمون .. !

المسألة التاسعة : نصّ الكتاب العزيز على وجود الجذب العام للكواكب كافّة من جميع جهاتها ، فقال : « وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ[2] ـ أَمِ السَّمَاءُ بِنَاهَا[3] ـ هَلْ تَرَى مِنْ

(١) [٢١ / الأنبياء / ٣٣] ونصها : وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ .

و [٣٦ / يس / ٤٠] ونصها : لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ، وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ .

(٢) [٥١ / الذاريات / ٧] .

(٣) [٧٩ / النازعات / ٢٧] ونصها : ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ ، بَنَاهَا .

فُطُورٍ[١] » فالكون كله : كالجسم الواحد الكبير ، محكم البناء ، لا خلل فيه ، كما قال : « وما لها من فروج » ويتخلله الأثير كما يتخلل ذرات الجسم الصغير « فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ »[٢] .

المسألة العاشرة : كان الناس فى سالف الأزمان لايدرون من أين يأتى ماء المطر ، ولهم فى السحاب أوهام عجيبة ، كما كانت لهم فى كل شىء سخافات وخرافات.! ولكن القرآن الشريف تنزَّه عن الجهل والخطأ فقال : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِى سَحَاباً » ـ إلى قوله ـ : « فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ »[٣]. وقال: « أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ »[٤]. ومقتضى الآيتين: أنَّ الماء العذب الذى نشربه ونسقى به الأرض ـ سواء كان من الينابيع أو من الأنهار ـ هو من الأمطار الناشئة من السحاب ، ومن أين يأتى السحاب ؟ هو بخار من بحار هذه الأرض ! أى : أنَّ السحاب هو من الأرض، وهو عين

(١) [٦٧ / الملك / ٣] ونصها : الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا، مَاتَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ ، فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ .

(٢) [٢٣ / المؤمنون / ١٤] ونصها : ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ، فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ .

(٣) [٢٤ / النور / ٤٣] ونصها : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِى سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ ، يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ .

(٤) [٣٩ / الزمر / ٢١] ونصها : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ .

قوله تعالى : « أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا »(١) أى : أن الماء جميعه أصله من الأرض وإن شوهد أنه ينزل من السحاب . . !

فهذه كلها آيات بيّنات ، ومعجزات باهرات ، دالّة على صدق النبىّ ﷺ ، وصحة القرآن » . اهـ كلامه بحروفه .

وقال أيضاً :

« من عجيب أمر هذا القرآن أنْ يذكر أمثال هذه الدقائق العلمية العالية، التى كانت جميع الأمم تجهلها، بطريقةٍ لا تقف عثرةً فى سبيل إيمان أحدٍ به ، فى أىّ زمنٍ كان ، مهما كانت معلوماته . فالناس قديماً فهموا أمثال هذه الآية بما يوافق علومهم ، حتى إذا كشف العلم الصحيح عن حقائق الأشياء ، علمنا أنهم كانوا واهمين ، وفهمنا معناها الصحيح . فكأنّ هذه الآيات جعلت فى القرآن معجزات للمتأخرين ، تظهر لهم كلما تقدّمت علومهم . . ! وأمّا المعاصرون للنبىّ ﷺ ، فمعجزته لهم : إتيانه بأخبار الأوّلين ، وبالشرائع التى أتى بها ، وبالمغيّبات التى تحقّقت فى زمنه ... وغير ذلك ، مع علمهم بصدقه وحالِه ، وبُعدِه عن العلم ، والتعلم بالمشاهدة والعيان . فآيات القرآن ـ بالنسبة لهم ـ بعضها معناه صريح لا يقبل التأويل، وفيها بيان كلّ شىءٍ مما يحتاجون إليه ؛ والبعض الآخر يقبل التأويل، وتتشابه عليهم معانيه لنقص علومهم . وهذا القسم لا يهمهم كثيراً ، فإنه خاصّ بعلومٍ لم يكونوا وصلوا إليها ، وهو معجزات للمتأخرين يشاهدونها ، وتتجلّى لهم كلما تقدّموا فى العلم الصحيح . قال تعالى : « هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ »(٢) أى : لها معانٍ كثيرة يشبه بعضها بعضاً ، وتتشابه عليهم فى ذلك الزمن ،

---

(١) [٧٩ / النازعات / ٣١] .

(٢) [٣ / آل عمران / ٧] ونصها : هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ . وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ .

فلا يمكنهم الجزم بالصحيح منها « فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ » بتشكيك الناس فى دينهم بسببه « وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ » فى زمنهم لنقص علمهم « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا »[1]. « وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ... » الخ ، فإذا جعل قوله تعالى « وَالرَّاسِخُونَ » معطوفاً على لفظ الجلالة كان المعنى : أنَّ تأويله لا يعلمه أحدٌ فى جميع الأزمنة إلا الله والراسخون فى العلم يعلمونه ، وإذا كان لفظ « وَالرَّاسِخُونَ » مستأنفاً كان المعنى : أنَّ الراسخين فى العلم فى زمنهم لا يعلمون تأويله ـ كما قلنا ـ وإنما يؤمنون به لظهور الدلائل الأخرى لهم على صدق النبيّ ، ويفوّضون علم هذه الأشياء إلى المستقبل من الزمان ، كما نفوض الآن نحن ، مسألة رجم الشياطين بالشهب ، للمستقبل ونؤمن بالقرآن لثبوت صدقه بالدلائل الأخرى القطعية » اهـ بحروفه .

---

(١) [١٧ / الإسراء / ٨٥] ونصها : وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا .

بيـــــان

أن الصواب فى آيات الصفات هو مذهب السلف

قد بَسَطَ الـكلامَ فى أنّ مذهبَ السلف هو الحق غيرُ واحد من الأئمة الأعلام . وهو، وإن كان غنياً فى نفسه عن إقامة البرهان ، فقد رأينا أن نورد شذرةً مما يؤيد ذلك ، تنبيهاً للغبىّ ، وتأييداً للألمعىّ . فنقول : قال حجّة الإسـلام الغزالىّ قدّس الله روحه فى كتابه « إلجام العوام عن علم الـكلام » .

الباب الثانى فى إقامة البرهان على أن الحق مذهب السلف ، وعليه برهانان عقلىّ وسمعىّ:

« أمّا العقلىّ فاثنان : كلىّ وتفصيلىّ . أما البرهان الـكلىّ على أنّ الحق مذهب السلف، فينكشف بتسليم أربعة أصول هى مسلّمة عند كل عاقل :

الأول : أنّ أعرَفَ الخلْق بصلاح أحوال العباد ، بالإضافة إلى حسن المعاد هو النبىّ ﷺ ، فإن ماينتفع به فى الآخرة ـ أو يضرّ ـ لاسبيل إلى معرفته بالتجربة ـ كما عرف الطبيب ـ إذ لا مجال للعلوم التجريبية إلا بما يشاهد على سبيل التكرر ، ومن الذى رجع من ذلك العالم فأدرك بالمشاهدة مانفع وضرّ ، وأخبر عنه ؟ ولا يدرك بقياس العقل ، فإن العقول قاصرة عن ذلك ، والعقلاء بأجمعهم معترفون بأنّ العقل لايهتدى إلى مابعد الموت ، ولايرشد إلى وجه ضرر المعاصى ونفع الطاعات ، لاسيما على سبيل التفصيل والتحديد ـ كما وردت به الشرائع ـ بل أقرُّوا بجملتهم : أن ذلك لايدرك إلا بنور النبوّة ، وهى قوة وراء قوة العقل، يدرك بها من أمر الغيب فى الماضى والمستقبل أمور لا على طريق التعرف بالأسباب العقلية . وهذا مما اتفق عليه الأوائل من الحـكماء ، فضلًا عن الأولياء والعلماء الراسخين ، القاصرين نظرهم على الاقتباس من حضرة النبوّة ، المقرِّين بقصور كل قوّة سوى هذه القوة .

الأصل الثانى : أنه ﷺ أفاض إلى الخلق ما أُوحى إليـه من صلاح العباد فى معادهم ومعاشهم ، وأنه ما كتم شيئاً من الوحى وأخفاه وطواه عن الخلق ، فإنه لم يبعث إلا لذلك ؛ ولذلك كان رحمةً للعالمين ، فلم يكن متهماً فيه ، وعرف ذلك علماً ضرورياً من قرائن أحواله فى حرصه على إصلاح الخلق ، وشغفه بإرشادهم إلى صلاح معاشهم ومعادهم ؛ فما ترك شيئاً

مما يقرب الخلق إلى الجنة ورضاء الخالق إلا دلَّهم عليه ، وأمرهم به ، وحثَّهم عليه ؛ ولا شيئاً مما يقرّبهم إلى النار وإلى سخط الله إلا حذَّرهم منه ونهاهم عنه ، وذلك في العلم والعمل جميعاً .

الأصل الثالث : أن أعرف الناس بمعاني كلامه ، وأحراهم بالوقوف على كنهه ودرك أسراره ، الذين شاهدوا الوحي والتنزيل ، وعاصروه ، وصاحبوه ، بل لازموه آناء الليل والنهار ، متشمّرين لفهم معاني كلامه وتلقيه بالقبول : للعمل به أولاً ، وللنقل إلى من بعدهم ثانياً ، وللتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بسماعه وفهمه وحفظه ونشره . وهم الذين حثهم رسول الله ﷺ على السماع والفهم والحفظ والأداء فقال :

« نضر[1] الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأدّاها كما سمعها ... » الحديث . فليت شعري أيتّهم رسول الله ﷺ بإخفائه وكتمانه عنهم ؟ ! حاشا منصب النبوة عن ذلك ..! أو يتهم أولئك الأكابر في فهم كلامه وإدراك مقاصده .. ؟ أو يتهمون في إخفائه وإسراره بعد الفهم ؟ أو يتهمون في معاندته من حيث العمل ومخالفته على سبيل المكابرة ، مع الاعتراف بتفهيمه وتكليفه ؟ فهذه أمور لا يتسّع لتقديرها عقل عاقل .. !

الأصل الرابع : أنهم في طول عصرهم إلى آخر أعمارهم مادعوا الخلق إلى البحث والتفتيش والتفسير والتأويل والتعرّض لمثل هذه الأمور . بل بالغوا في زجر من خاض فيه ، وسأل عنه ، وتكلّم به على ما سنحكيه عنهم ؛ فلو كان ذلك من الدين أو كان من مدارك الأحكام وعلم الدين لأقبلوا عليه ليلاً ونهاراً ، ودعوا إليه أولادهم وأهليهم ، وتشمّروا عن ساق الجدّ في تأسيس أصوله ، وشرح قوانينه تشمراً أبلغ من تشمّرهم في تمهيد قواعد الفرائض والمواريث . فنعلم ـ بالقطع من هذه الأصول ـ أنّ الحقّ ماقالوه ، والصواب مارأوه . وقد أثنى عليهم رسول الله ﷺ وقال : « خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثمّ الذين يلونهم »[2] وقال ﷺ : « ستفترق أمتي

---

(١) سنن ابن ماجه ، المقدمة ، ١٨ ـ باب من بلّغ علما ، حديث ٢٣١ عن جبير بن مطعم قال : قام رسول الله ﷺ بالخيف من منى ، فقال « نضر الله امرأً سمع مقالتي فبلغها . فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » .

(٢) صحيح البخاريّ في : ٥٢ ـ كتاب الشهادات ، ٩ ـ باب لا يشهد على شهادة =

نيفاً وسبعين فرقة، الناجية منهم واحدة»[١] فقيل: من هم؟ فقال: «ماأنا عليه الآن وأصحابى».

البرهان الثانى، وهو التفصيلىّ : فنقول :

ادعينا أنّ الحق هو مذهب السلف ، وأنّ مذهب السلف هو : توظيف الوظائف السبع على عوامّ الخلق فى ظواهر الأخبار المتشابهة . وقد ذكرنا برهان كلّ وظيفة معها فهو برهان كونه حقاً ، فمن يخالف ـ ليت شعرى ! ـ أيخالف فى قولنا الأول : إنه يجب على العامىّ التقديس للحقّ عن التشبيه ومشابهة الأجسام . أو فى قولنا الثانى : أنه يجب عليه التصديق والإيمان بما قاله الرسول عليه الصلاة والسلام بالمعنى الذى أراده . أوفى قولنا الثالث : إنه يجب عليه الاعتراف بالعجز عن درك حقيقة تلك المعانى . أو فى قولنا الرابع: إنه يجب عليه السكوت عن السؤال والخوض فيما هو وراء طاقته . أو فى قولنا الخامس : إنه يجب عليه إمساك اللسان عن تغيير الظواهر بالزيادة والنقصان والجمع والتفريق . أو فى قولنا السادس: إنه يجب عليه كف القلب عن التذكر فيه والفكر مع عجزه عنه ، وقد قيل لهم : تفكروا فى الخلق ولا تفكروا فى الخالق . أو فى قولنا السابع : إنه يجب عليه التسليم لأهل المعرفة من الأنبياء والأولياء والعلماء الراسخين. فهذه أمور بيانها برهانها، ولا يقدر أحد على جحدها وإنكارها ، إن كان من أهل التمييز ، فضلاً عن العلماء والعقلاء. فهذه هى البراهين العقلية !

النمط الثانى : البرهان السمعىّ على ذلك . وطريقه أن نقول :

الدليل على أن الحق مذهب السلف أن نقيضه بدعة ـ والبدعة مذمومة وضلالة ـ

= جور إذا أشهد : عن عبد الله رضى الله عنه ، عن النبىّ ﷺ قال « خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يجىء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته .

(١) سنن الترمذى فى : ٣٨ ـ كتاب الإيمان ، ١٨ ـ باب ماجاء فى افتراق هذه الأمة.

عن عبدالله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ « ليأتين على أمتى ما أتى على بنى إسرائيل حذو النعل بالنعل . حتى إن كان منهم من أتى أمّه علانية لكان فى أمتى من يصنع ذلك . وإن بنى إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة ، وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة . كلهم فى النار إلا أمة واحدة » . قالوا : ومن هى ؟ يا رسول الله . قال « ما أنا عليه وأصحابى » .

والخوض من جهة العوام فى التأويل ، والخوض فيه من جهة العلماء بدعة مذمومة ، وكان نَقِيضُهُ ـ وهو الكف عن ذلك ـ سنة محمودة . فهاهنا ثلاثة أصول :

أحدها : إن البحث والتفتيش والسؤال عن هذه الأمور بدعة .

والثانى : أن كلّ بدعة فهى مذمومة .

والثالث : أن البدعة إذا كانت مذمومة كان نقيضها، وهى السنة القديمة ، محمودة .

ولا يمكن النزاع فى شىء من هذه الأصول ؛ فإذا سلم ذلك ، ينتج : أن الحق مذهب السلف . ثم أطال ـ قُدِّس سرّه ـ فى إيضاح هذه الأصول وأطاب ، فارجع إليه إن شئت .

والقول الشامل فى هذا الباب ما قاله الإمام أحمد رضى الله عنه :

« لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله، لا يتجاوز القرآن والحديث. ونعلم أن ما وصف الله به من ذلك فهو حقّ ليس فيه لغز ولا أحاجى ؛ بل معناه يعرف من حيث يعرف مقصود المتكلم بكلامه . وهو سبحانه، مع ذلك، ليس كمثله شىء فى نفسه المقدسة المذكورة بأسمائه وصفاته ، ولا فى أفعاله . فكما نتيقن أن الله سبحانه له ذات حقيقة ، وله أفعال حقيقة، فكذلك له صفات حقيقة ، وهو ليس كمثله شىء لا فى ذاته ، ولا فى صفاته ، ولا فى أفعاله ؛ وكل ما أوجب نقصاً أو حدوثاً فإن الله منزّه عنه حقيقة ، وأنه سبحانه مستحق الكمال الذى لا غاية فوقه ، وممتنع عليه الحدوث لامتناع العدم عليه ، واستلزام الحدوث سابقة العدم. ومذهب السلف بين التعطيل وبين التمثيل . فلا يمثلون صفات الله بصفات خلقه ، كما لا يمثلون ذاته بذات خلقه ، ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ، فيعطلون أسماءه الحسنى وصفاته العليا ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، ويلحدون فى أسماء الله وآياته » .

روى البيهقىّ فى كتاب « الأسماء والصفات » بإسناد صحيح عن الأوزاعىّ ، قال :

« كنّا ـ والتابعون متوافرون ـ نقول : إنّ الله ، تعالى ذكرُه ، فوق عرشه ، ونؤمن بما وردت السنة به من صفاته . فقد حكى الأوزاعىّ ـ وهو أحد الأئمة الأربعة فى عصر تابعى التابعين الذين هم : مالك إمام أهل الحجاز ، والأوزاعىّ إمام أهل الشام ، والليث إمام أهل مصر، والثورىّ إمام أهل العراق ـ حكى شهرة هذا القول فى زمن التابعين بالإيمان بأن الله

فوق العرش ، وبصفاته السمعية ؛ وإنما قال الأوزاعىّ هذا بعد ظهور مذهب جَهْمٍ المنكر لكون الله فوق عرشه ، والنافى لصفاته ، ليعرف الناس أن مذهب السلف كان بخلاف هذا .

وروى أبو بكر الخلال فى كتاب « السنّة » عن الأوزاعىّ ، قال :

« سئل مكحول والزهرىّ عن تفسير الأحاديث فقالا : أَمِرُّوها كما جاءت » .

وروى أيضاً عن الوليد بن مسلم قال :

« سألت مالك بن أنس ، وسفيان الثورىّ ، والليث بن سعد ، والأوزاعىّ عن الأخبار التى جاءت فى الصفات ، فقالوا : أَمِرُّوها كما جاءت » . وفى رواية ، فقالوا : « أَمِرُّوها كما جاءت بلا كيف » . فقولهم رضى الله عنهم « أَمِرُّوها كما جاءت » ردّ على المعطلة ، وقولهم « بلا كيف » ردّ على الممثّلة . والزهرىّ ومكحول هما أعلم التابعين فى زمانهم . والأربعة الباقون أئمة الدنيا فى عصر تابعى التابعين ـ أفاده شيخ الإسلام ابن تيمية فى بعض فتاويه .

وقال تلميذه الإمام شمس الدين بن القيِّم الدمشقىّ فى كتابه « طريق الهجرتين » فى شرح حديث « فرح الله بتوبة عبده » ماصورته ، بعد جمل :

« وتحت هذا سر عظيم يختص الله بفهمه من يشاء ، فإن كنت ممن غلظ حجابه وكثفت نفسه وطباعه فمليك بوادى الخفا ، وهو وادى المحرفين للكلم عن مواضعه ، الواضعين له على غير المراد منه ، فهو واد قد سلكه خلق ، وتفرّقوا فى شعابه وطرقه ومتاهاته ، ولم يستقر لهم فيه قدم ، ولا لجئوا منه إلى ركن وثيق ، بل هم كحاطب الليل ، وحاطم السيل . وإن نجاك الله من هذا الوادى ، فتأمّل هذه الألفاظ النبوية المعصومة التى مقصود المتكلم بها غاية البيان ، مع مصدرها عن كمال العلم بالله ، وكمال النصيحة للأمة ، ومع هذه المقامات الثلاث ـ أعنى كمال بيان المتكلم وفصاحته وحسن تعبيره عن المعانى ، وكمال معرفته وعلمه بما يعبر عنه ، وكمال نصحه وإرادته لهداية الخلائق ـ يستحيل عليه أن يخاطبهم بشىء ، وهو لا يريد منهم مايدل عليه خطابه ، بل يريد منهم أمراً بعيداً عن ذلك الخطاب ، إنما يدل عليه ـ كدلالة الألغاز والأحاجى ـ مع قدرته على التعبير عن ذلك المعنى بأحسن عبارة وأوجزها ، فكيف يليق به أن يعدل عن مقتضى البيان الرافع للإشكال المزيل للإجمال ،

ويوقع الأمة فى أودية التأويلات وشعاب الاحتمالات والتجويزات . سبحانك هـذا بهتان عظيم . وهل قدر الرسولَ حق قدره ، أو مُرْسِلَه حقّ قدره مَنْ نسب كلامَه سبحانه ، أو كلامَ رسوله إلى مثل ذلك؟ ففصاحة الرسول وبيانه وعلمه ومعرفته ونصحه وشفقته يحيل عليه أن يكون مراده من كلامه ما يحمله عليه المحرفون للـكلم عن مواضعه ، المتأوِّلون له غير تأويله ، وأن يكون كلامه من جنس الألغاز والأحاجى. والحمد لله رب العالمين .

فإن قلت : فهل من مسلك غير هذا الوادى الذى ذممتَه فنسلكَ فيـه ، أو من طريق يستقيم عليه السالك ؟ قلت : نعم . بحمد الله ، الطريق واضحة المنار ، بيّنة الأعلام ، مضيئة للسالـكين ، وأولها : أن تحذف خصائص المخلوقين عن إضافتها إلى صفات ربّ العـالمين ، فإنَّ هـذه العُقدة هى أصل بلاء الناس . مَنْ حلها ، فما بعدها أيسر منها . ومن هلك بها ، فما بعدها أشدّ منها . وهل نفى أحد ما نفى من صفات الرب ونعوت جَلاله إلّا لسبق نظره الضعيف إليها ، واحتجابه بها عن أصل الصفة ، وتجرّدها عن خصائص المحدَث؟ فإن الصفة يلزمها لوازم باختلاف محالها ، فيظنّ القاصر ، إذا رأى ذلك اللازم فى المحل المحدَث ، أنه لازم لتلك الصفة مطلقاً ، فهو يفرّ من إثباتها للخالق سبحانه ، حيث لم يتجرَّد فى ظنه عن ذلك اللازم . وهذا كما فعل من نفى عنه سبحانه الفرح والمحبّة والرضى والغضب والـكراهة والمقت والبغض ، وردَّها كلَّها إلى الإرادة . فإنه فهم فرحاً مستلزماً لخصائص المخلوق من انبساط دم القلب ، وحصول ماينفعه ؛ وكذلك فهم غضباً هو غليان دم القلب طلباً للانتقام؛ وكذلك فهم محبة ورضى وكراهة ورحمة مقرونة بخصائص المخلوقين ، فإن ذلك هو السابق إلى فهمه . وهو المشهود فى علمه الذى لم تصل معرفته إلى سواه ، ولم يحط علمه بغيره ؛ ولما كان هو السابق إلى فهمه لم يجد بداً من نفيه عن الخالق . والصفة لم تتجرد فى عقله عن هذا اللازم ، فلم يجد بدًا من نفيها .

ثم لأصحاب هذه الطريق مسلـكان :

أحدهما : مسلك التناقض البيّن وهو إثبات كثيرٍ من الصفات . ولا يلتفت فيهـا إلى هـذا الخيال ، بل يثبتها مجردة عن خصائص المخلوق ـ كالعلم والقدرة والإرادة والسمع

والبصر وغيرها ــ فإن كان إثبات تلك الصفات التى نفاها يستلزم المحذور الذى فرَّ منــه ، فـكيف لم يستلزمه إثبات ما أثبته ؟ وإن كان إثبات ما أثبته لا يستلزم محذوراً ، فـكيف يستلزمه إثبات ما نفاه ؟ وهل فى التناقض أعجب من هذا ..؟

المسلك الثانى: مسلك النفى العام والتعطيل المحض هرباً من التناقض، والتزاماً لأعظم الباطل وأمحل المحال ، فإذاً ، الحق المحض فى الإثبات المحض الذى أثبته الله لنفسه فى كلامه ، وعلى لسانه رسوله ، من غير تشبيه ولا تمثيل ، ومن غير تحريف ولا تبديل ، ومنشأ غلط المحرفين إنما هو ظنهم أن ما يلزم الصفة فى المحلّ المعين يلزمها لذاتها ، فينفون ذلك اللازم عن الله ، فيضطرون، فى نفيه ، إلى نفى الصفة . ولا ريب أنّ الأمور ثلاثة : أمر يلزم الصفة لذاتها من حيث هى ، فهذا لا يجب بل لا يجوز نفيه كما يلزم العلم والسمع البصر من تعلقها بمعلوم ومسموع ومبصَر ، فلا يجوز نفى هذه التعلقات عن هذه الصفات إذ لا تحقق لها بدونها . وكذلك الإرادة ، مثلاً ، تستلزم العلم لذاتها فلا يجوز نفى لازمها عنها. وكذلك السمع والبصر والعلم يستلزم الحياة فلا يجوز نفى لوازمها . وكذلك كون المرئىّ مرئياً حقيقة له لوازم لا ينفكّ عنها . ولا سبيل إلى نفى تلك اللوازم إلاّ بنفى الرؤية . وكذلك الفعل الاختيارىّ له لوازم لابدّ فيه منها ، فمن نفى لوازمه نفى الفعل الاختيارىّ ولا بدّ .

من هنا كان أهل الـكلام أكثر الناس تناقضاً واضطراباً ، فإنهم ينفون الشىء ، ويثبتون ملزومه ، ويثبتون الشىء ، وينفون لازمه ، فَتَتَنَاقَضُ أقوالهم وأدلّتهم ؛ ويقع السالك خلفهم فى الحيرة والشك . ولهذا يكون نهاية أمر أكثرهم الشك والحيرة ، حاشا من هو فى خفارة بلادته منهم ، أو من قد خرق تلك الخيالات وقطع تلك الشبهات وحكّم الفطرة والشرعة والعقل المؤيد بنور الوحى عليها فنقَدها نقد الصيارف ، فنفى زغلها ، وعلم أن الصحيح منها : إمّا أن يكون قد تولت النصوص بيانه ، وإمّا أن يكون فيها غنية عنه ، بما هو خير منه ، وأقرب طريقاً ، وأسهل تناولاً لا يستفيد المؤمن البصير ، بما جاء به الرسول العارف به ، من المتكلمين سوى مناقضة بعضهم بعضاً ، وممارضته وإبداء بعضهم عوار بعض ومحاربة بعضهم بعضاً ، فيتولى بعضهم محاربة بعض ، ويسلم ما جاء به الرسول .

فإذا رأى المؤمن العالم الناصح لله ولرسوله أحدَهم قد تعدى إلى ما جاء به الرسول ، يناقضه أو يعارضه . فليعلم أنهم لا طريق لهم إلى ذلك أبداً ، ولا يقع ردّهم إلاّ على آراء أمثالهم وأشباههم . وأمّا ما جاء به الرسول فمحفوظ محروس مصون من تطرّق المعارضة والمناقضة إليه . فإن وجدت شيئاً من ذلك فى كلامهم ، فبَدَارِ بَدَارِ إلى إبداء فضائحهم ، وكشف تلبيسهم ومحالهم وتناقضهم وتبيّن كذبهم على العقل والوحى فإنهم لا يردون شيئاً مما جاء به الرسول إلّا بزخرف من القول يغترّ به ضعيف العقل والإيمان . فاكشفه ولا تهنه تجده « كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ » . [٢٤ / النور / ٣٩]

ولولا أن كلّ مسائل القوم وشبههم، التى خالفوا فيها النصوص، بهذه المثابة لذكرنا من أمثلة ذلك ما تقرُّ به عيون أهل الإيمان السائرين إلى الله على طريق الرسول وأصحابه . وإنْ وَفّق اللهسبحانه جرّدنا لذلك كتاباً مفرداً. وقد كفانا شيخ الإسلام ابن تيميّة هذا المقصد فى عامة كتبه ، لاسيما كتابه الذى وسمه ببيان « موافقة العقل الصريح للنقل الصحيح »، فمزّقَ فيه شملهم كلّ ممزّق ، وكشف أسرارهم ، وهتك أستارهم . فجزاه الله عن الإسلام وأهله من أفضل الجزاء .

واعلم أنه لا ترد شبهة صحيحة على ما جاء به الرسول ، بل الشبهة التى توردها أهل البدع والضلال على أهل السنة لا تخلو من قسمين :

إمّا أن يكون القول الذى أوردت عليه ليس من أقوال الرسول ، بل يكون نسبته إليه غلطاً ، وهذا لا يكون متفقاً عليه بين أهل السنة أبدا . بل يكون قد قاله بعضهم ، وغلط فيه ، فإنّ العصمة إنما هى لمجموع الأمة ، لا لطائفةٍ معينة منها .

وإما أن يكون القول الذى أوردت عليه قولاً صحيحاً ، لكن لا ترد تلك الشبهة عليه، وحينئذٍ فلابد لها من أحد أمرين : إما أن تكون لازمة ، وإما أن لا تكون لازمة، فإن كانت لازمة لما جاء به الرسول ، فهى حق لا شبهة ، إذ لازم الحق حق ، ولا ينبغى الفرار منها ، كما يفعل الضعفاء من المنتسبين إلى السنة ، بل كل ما لزم من الحق فهو حق يتعين القول به كائناً ما كان .

وهل تسلط أهل البدع والضلال على المنتسبين للسنة إلاّ بهذه الطريق ؟ ألزموهم بلوازم تلزم الحق فلم يلتزموهم ودفعوها وأثبتوا ملزوماتها ، فتسلطوا عليهم بما أنكروه لا بما أثبتوه. فلو أثبتوا لوازم الحق ولم يفروا منها لم يجد أعداؤهم إليهم سبيلاً . وإن لم تكن لازمة لهم ، فإلزامهم إياها باطل ؛ وعلى التقدين ، فلا طريق لهم إلى رد أقوالهم . وحينئذٍ فلهم جوابان : مركّب مجمل ، ومفرد مفصّل . أما الأول ، فيقولون لهم : هذه اللوازم التى تلزمونا بها ، إمَّا أن تكون لازمة فى نفس الأمر ، وإمَّا أن لا تكون لازمة . فإن كانت لازمة فهى حقّ ، إذ قد ثبت أن ما جاء به الرسول فهو الحق الصريح ، ولازم الحقّ حقّ. وإن لم تكن لازمة فهى مندفعة ، ولا يجوز إلزامها ولا التزامها . وأما الجواب المفصّل فيفردون كلّ إلزام بجواب ، ولا يردونه مطلقاً ، بل ينظرون إلى ألفاظ ذلك الإلزام ومعانيه، فإن كان لفظها موافقاً لما جاء به الرسول يتضمّن إثبات ما أثبته ، ونفى ما نفاه ، فلا يكون المعنى إلا حقاً ، فيقبلون ذلك الإلزام. وإن كان مخالفاً لما جاء به الرسول متضمّنًا لنفى ما أثبته، أو إثبات ما نفاه كان باطلًا لفظاً ومعنًى ، فيقابلونه بالردّ ؛ وإن كان لفظاً مجملًا محتملًا لحقٍ وباطلٍ لم يقبلوه مطلقاً ، ولم يردوه مطلقاً ، حتى يستفسروا قائله : ماذا أراد به ؟ فإن أراد معنًى صحيحاً مطابقاً لما جاء به الرسول قبلوه ، ولم يطلقوا اللفظ المحتمل إطلاقاً . وإن أراد معنى باطلًا ردّوه ولم يطلقوا نفى اللفظ المحتمل أيضاً . فهذه قاعدتهم التى بها يعتصمون ، وعليها يعولون ؛ وبسط هذه الكلمات يستدعى أسفاراً لا سفراً واحداً ، ومن لا ضياء له لا ينتفع بها ، ولا بغيرها ، فلنقتصر عليها » انتهى بحروفه .

ذكر انطواء القرآن على البراهين والأدلة

قال الإمام الراغب الأصفهانيّ رحمه الله فى مقدّمة تفسيره :

« ما من برهانٍ ولا دلالةٍ وتقسيم وتحديد مبنيٍّ على كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله تعالى قد نطق به . لكن أورده تعالى على عادة العرب ، دون دقائق طرق الحكماء والمتكلمين لأمرين : أحدهما بسبب ماقاله : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ... »[1] الآية . والثانى : إن المائل إلى دقيق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجلىّ من الكلام. فإنَّ من استطاع أن يفهم بالأوضح الذى يفهمه الأكثرون لم ينحط إلى الأغمض الذى لايعرفه إلاّ الأقلون مالم يكن ملغزاً . فأخرج تعالى مخاطباته فى محاجة خلقه فى أجلّ صورة تشتمل على أدقّ دقيق لتفهم العامة من جليّها مايقنعهم ويلزمهم الحجة، ويفهم الخواصّ من أثنائها مايوفى على ماأدركه فهم الحكماء . وعلى هذا النحو، قال عليه السلام[2] « إنّ لكلّ آية ظهراً وبطناً ولكلّ حرف حداً ومطلعاً » ، لا على ما ذهب إليه الباطنية .

ومن هذا الوجه كل من كان حظه فى العلوم أوْفرَ ، كان نصيبه من علم القرآن أكثر . ولذلك ، إذا ذكر تعالى حجة إلى ربوبيته ووحدانيته أتبعها مرةً بإضافتها إلى أولى العقل ، ومرّةً إلى أولى العلم ، ومرّةً إلى السامعين ومرّةً إلى المفكرين ، ومرّةً إلى المتذكرين تنبيهاً على أن بكلّ قوة من هذه القوى يمكن إدراك حقيقة منها ، وذلك نحو قوله تعالى : « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ »[3] وغيرها من الآيات .

---

(١) [١٤ / إبراهيم / ٤] ونصها : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ، فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

(٢) جاء فى « كتاب الإتقان فى علوم القرآن » للحافظ السيوطىّ . جزء ثان صفحة ١٨٤ طبعة المطبعة الأزهرية المصرية سنة ١٣١٨ هجرية . ما نصه :

قال الفريابىّ : حدثنا سفيان عن يونس بن عبيد عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ « لكل آية ظهر وبطن ، ولكل حرف حدّ ، ولكل حد مطلع » .

(٣) [١٣ / الرعد / ٤] ونصها : وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

شرف علم التفسير

قال الإمام الراغب الأصفهانىّ فى مقدّمة تفسيره :

« أشرف صناعةٍ يتعاطاها الإنسان تفسير القرآن وتأويله . وذلك أن الصناعات الحقيقية إنما تشرف بأحد ثلاثة أشياء :

إمّا بشرف موضوعاتها ، وهى المعمول فيها ، نحو أن يقال : الصياغة أشرف من الدباغة لأنّ موضوعها ـ وهو الذهب والفضة ـ أشرف من جلد الميتة ـ الذى هو موضوع الدباغة ـ.

وإمّا بشرف صورها ، نحو أن يقال : طبع السيوف أشرف من طبع القيود .

وإمّا بشرف أغراضها وكمالها ، كصناعة الطب ـ التى غرضها إفادة الصحة ـ فإنها أشرف من الكناسة ـ التى غرضها تنظيف المستراح .

« فإذا ثبت ذلك ، فصناعة التفسير قد حصل لها الشرف من الجهات الثلاث ، وهو أنّ موضوع التفسير كلام الله تعالى : الذى هو ينبوع كل حكمة ، ومعدن كل فضيلة ؛ وصورة فعله : إظهار خفيات ما أودعه مُنزله من أسراره ليدّبروا آياته وليتذكر أولو الألباب ؛ وغرضه التمسك بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها ، والوصول إلى السعادة الحقيقية التى لا فناء لها . ولهذا عظّم الله محله بقوله : « وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا »(١) قيل : هو تفسير القرآن » انتهى .

انتهى ، بحمد الله ، الجزء الأول وهو المقدمة المشتملة على قواعد التفسير .

ويتبعه ، إن شاء الله ، الجزء الثانى وهو المشتمل على

تفسير سورة فاتحة الكتاب وسورة البقرة

من أولها حتى الآية رقم ١٥٧ .

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٦٩] ونصها : يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ .

فهرس الجزء الأول من تفسير القاسمىّ

المسمى : محاسن التأويل

تصويبات

ص	س	صواب
٣٥	١٠	« وما كان »
٣٩	٩	البخارى(١)
٤٠	٥	« فؤادك »(١)
٥٠	٨	الكتابيين
٦٧	١٥	أنّه
٨٥	٩	« والله »
٨٧	١٢	« وكلوا »
١٠٨	٤	« وما فى الأرض »
١٠٨	٥	الأرض »(٤)
١٢٧	١٢	« ولا تجادلْ »
١٨٠	٥	« من »
١٩٩	١٤	كشف الخفاء
٢٣٥	١١	وقت
٢٤٣	٦	« وضرب »
٢٧٩	٧	فَبِها
٢٨٢	٦	والقافية
٣١٩	١٩	الثابت بالتواتر
٣٤٥	٦	لسان
٣٤٥	٩	والبصر